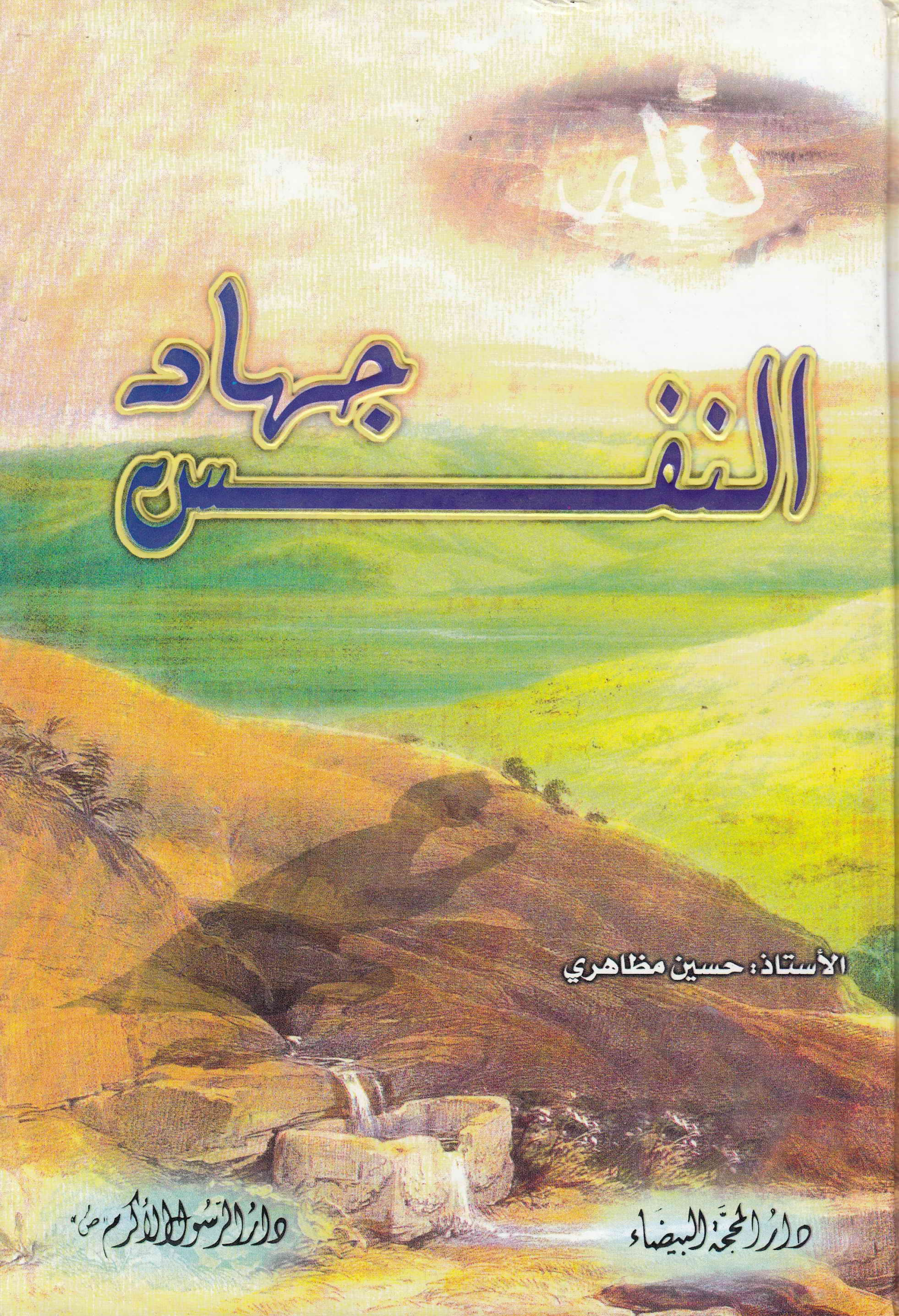
جهاد النفس
الأستاذ: حسين مظاهري
دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم (ص)

جهاد النفس

جهاد النفس

تأليف
الأستاذ مظاهري

ترجمة
لجنة الهدى

دار الحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

البحث الأول

التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قال ربِّ اشرحْ لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحللْ عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾[1] .

إن عملكم ودوركم في المجتمع أيها المعلمون الأعزاء يرضي الله ، إذ يعتبر القرآن الكريم عملكم عمل الله ودوركم بإذن الله أيضاً ، حيث تشير أول سورة نزلت على النبي الكريم (ص) إلى هذه الحقيقة :

﴿ بسم الله الرحمٰن الرحيم ، إقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق ، خلقَ الإنسانَ منْ علقٍ ، إقرأ وربُّكَ الأكرمُ ، الذي علّمَ بالقلمِ ، علّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ ﴾[2] .

في هذه السورة المباركة ، يورد القرآن إحدىٰ صفات الله ، وهذه الصفة هي التعليم ، أي نفس العمل الذي تقومون به ﴿ علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

إنّ هذا العمل بأمر الله ومن أولىٰ الصفات التي وردت في القرآن باعتبارها ميزة للنبي الأكرم (ص) ، ومن هنا يظهر أن صفة التعليم هي أفضل صفات الله .

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٤ ـ ٢٨ .

(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ ـ ٥ .

إنّ عملكم ودوركم في المجتمع ، عمل الأنبياء ووظيفتهم حيث نقرأ في آياتٍ كثيرة من بينها سورة الجمعة :

﴿ هوَ الذي بعثَ في الأميّينَ رسولاً منهمْ يتلو عليهمْ آياتهِ ويزكّيهمْ ويعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا منْ قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ﴾[1] .

لماذا بُعث النبي ؟ لقد بُعث النبي بمعجزة ، أي أنه جاء بالقرآن .

لماذا بُعث ؟ ولماذا جاء بالقرآن ؟ هل كانت البعثة النبوية ونزول القرآن من أجل التعليم والتربية ، أم من أجل التربية والتعليم ؟ .

هذه الآية التي تكررت في القرآن الكريم تقول : عملكم هو عمل النبي (ص) ودوركم في المجتمع يشبه وظيفة الأنبياء (ع) .

﴿ ومنْ أحياها فكأنّما أحيا الناسَ جميعاً ﴾[2] فحسب التفسير المنقول عن الإمام الصادق (ع) أنّ هذه الآية تعني أنه لو استطاع شخص ما أن يهدي شاباً وأن يُخرجه من الضلال إلى الصراط المستقيم ، ثمّ يصنع منه إنساناً ، فكأنما أحيا الدنيا كلّها . ولو شاهدتم طفلاً صغيراً يحتضَر ، ونقلتموه بواسطة المركبة التي بحوزتكم إلى المستشفىٰ ثمَّ تحسّنت صحته ، ستشعرون بارتياحٍ بالغٍ في ضميركم والناس سيكرمونكم ، ويشجعونكم كما أنكم ستحرزون مكانة عظيمة عند الباري عزّ وجلّ ، لأنكم تمكنتم من إنقاذ طفلٍ من الموت .

فالقرآن يبيّن أنه لو استطعت أن تُحيي طفلاً من الناحية المعنوية ، وأن تهدي شخصاً ما إلىٰ الصراط المستقيم ، وباختصار لو استطعت أن تصنعَ إنساناً ، فإن ثواب ذلك ليس إحياء شخص واحد فحسب ، بل كأنك أحييتَ الناس جميعاً . مثلاً ، إذا كان عدد سكان الأرض أربعة مليارات ، وكان بإمكانكم أن تُربّوا إنساناً واحداً فكأنكم أحييتم ثلاث مليارات من السكان المحتضرين . أيُّ أجرٍ في الإسلام يمكن أن يكون أفضل من هذا ؟ إنّ القرآن هو الذي حَدّد لكم هذا الأجر .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

في حرب خيبر ، كان الموقف حساساً جداً ، وذلك أن المسلمين هُزموا في اليوم الأول ، كما هُزموا في اليومين الثاني والثالث ، واستشرت حالة الهزيمة بين المسلمين وهبطت المعنويات بينما استقوت معنويات الأعداء ، وأصبح الإسلام في خطر . وعندما حان المساء أخبرهم النبي (ص) أنه سيُعطي الراية غداً لشخص يحبهُ الله ورسولُه ويُحبُّ اللهَ ورسولَه ـ ومن هنا أرجو أن تقرأوا التاريخ كي تستوعبوا دروسه وخصوصياته ـ وفي صباح اليوم التالي شعر أمير المؤمنين (ع) بألم في عينيه ، فاستدعاه النبي (ص) وداوىٰ عينيه بمعجزة حيثُ مسح عيني علي (ع) بماء فمه ، فبرأت عيناه وسلّمه الراية ، وكان الموقف حساساً جداً . أمير المؤمنين على أهبة الاستعداد للدخول في ساحة الحرب حينذاك ، حيثُ يريد النبي (ص) ـ وهو الرجل الأول في الإسلام ـ أن يقول جملة للرجل الثاني في الإسلام ـ علي (ع) ـ ينبغي أن تكون في مستوىٰ الموقف . فعندما يريد رئيس ديني أن يقول جملة لشخص ـ سوف يصبح قائداً فيما بعد ـ هذه الجملة ينبغي أن تكون بحجم الموقف وأمير المؤمنين (ع) راكب ، والنبي الأكرم (ص) راجل ، والراية بيد علي (ع) ، والجيش يستعد للدخول في ساحة الوغىٰ ، والجملة التي قالها النبي الأكرم (ص) آنذاك خير شاهد لما أريد قوله وهي :

« لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس »[1] .

يا علي ، إن ما تنوي القيام به مهم جداً ، لأنك تريد أن تُحيي الإسلام ، ولكن ينبغي أن أخبرك أن هناك ما هو أهم ، وهو أن تهدي شخصاً ما وأن تصنع إنساناً ، إن استطعت أن تُربي إنساناً مسلماً وتقدمه إلى المجتمع ، فإن ثواب ذلك ليس أكثر من هذه الحرب فحسب ، بل **« خير لك مما طلعت عليه الشمس »** أي إنّ أجر ذلك أكبر من الدنيا وما فيها .

هذا من ناحية الثواب ، فإن عملكم يحظىٰ بهذا القدر من الثواب . أما من ناحية القيمة ، أنتم الذين تستطيعون أن تبطلوا مفعول قانون الوراثة ، والبيئة ، بل أن تبطلوا قانون التغذية والتربية الأسرية .

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ، ج ٤ ص ١٣ ـ ١٤ .

كما تعلمون ، فأن قانون الوراثة هام جداً ، بمعنىٰ أن الصفات الظاهرية ، والصفات المعنوية للوالدين تنتقل عبر الجينات إلى الأولاد . فالأب المتكبّر يكون ولده وبناته متكبرين ، وغالباً ما يكونون هكذا ، أولاد الإنسان الأناني يكونون مثله في الغالب . هذا هو قانون الوراثة ، الذي يُقرّه الإسلام أيضاً .

تعلمون أن علماء النفس والأطباء النفسانيين تحدثوا كثيراً عن هذا القانون ، كما أنّ التجارب أثبتت صحة قانون الوراثة ، وإذا لم يلتزم الآباء والأمهات بالإجراءات الوقائية ، فإن مضاعفاته كبيرة وخطيرة جداً ، والعكس أيضاً صحيح ، بمعنىٰ أنه إذا كان للأب صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد . وإذا كانت الأم تحمل صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد .

كما في العبارة : « **الشقي من شقي في بطن أمه** »[1] .

البعض يتصور أن هذه العبارة تعني الجبر ، حيث يفسّرها بشكل بعيد عن الواقع . طبعاً هذه العبارة لا تعني ذلك ولكنها إشارة إلى قانون الوراثة بالذات . إنها تعني بأن عليك أن تعلم أنت أيها الأب وأنتِ أيتها الأم ، بأنكما توفّران الأرضية اللازمة لسعادة طفلكما أو شقائه وهذا هو قانون الوراثة .

إن قانون التربية الأُسرية له تأثير كبير أيضاً . فلو نشأ طفل في عائلته ، فمن المستبعد ألا يكون لحن صوته وطريقة كلامه شبيهين بهما عند الأب والأم كما في العادة، وقانون التربية الأُسرية كقانون الوراثة ، قانون عجيب يُهيء الأرضية لسعادة الأولاد أو شقائهم .

أما حول قانون البيئة ، فعندما يكون أحدٌ في بيئة ما فكأنه يسبح في مياهٍ جارية بقوة . إذا أراد أن يتحرك بخلاف حركة التيار ، فسيواجه صعوبات جمّة ، وإذا كان سبّاحاً قد يتمكن من العوم ، ولكن بصعوبة بالغة ، وعادة يجرفهُ التيار أينما ذهب . لذلك فالبيئة تؤثر في التربية وبالأخص لها تأثير كبير على الأطفال .

القانون الآخر هو قانون التغذية . إنكم تعلمون أن علماء النفس تحدّثوا

---

(١) سفينة البحار ، ج ١ شقى .

بإسهاب حول الغذاء ، وهم يعتقدون بأن نوعية الغذاء لها تأثير كبير على جمال الأطفال .

عندما تكون الأم حاملة فإنّ الإسلام يأمرها بعدم تناول الأطعمة المشتبهة ، وفي المقابل عليها أن تكثر من تناول الفواكه الطازجة ، كالسفرجل والتفاح . . . الخ ، لأنها تؤثر على جمال الطفل ، وتطبق نفس القاعدة على حليبها . . لو تناولت الأم أطعمة طازجة ولذيذة ، فإن ذلك له تأثير على جمال الطفل . الأطعمة الحرام أيضاً تؤثر سلباً ، ولكن علماء النفس لا يعرفون ذلك ، علينا أن نأخذ هذه الأمور من الإسلام . الأطعمة الحرام لها تأثير كبير في شقاء الطفل ، والأغذية المشتبه بها تؤثر في شقاء الطفل ـ أيضاً ـ . كما أن الطعام الطاهر والحلال يؤثر منذ انعقاد النطفة حتى سن الرشد .

هذه وجهة نظر الشارع الإسلامي ، طبيعي كلكم تعلمون أن هذه القوانين الأربعة (التي يكفي واحد منها لتوفير أرضية سعادة الأولاد أو شقائهم ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟ فسيكون لها حتماً تأثير بالغ على التربية) .

ولكن ما يعنينا الآن هو أنه هناك أشياء عديدة يمكنها أن تبطل مفعول هذه القوانين الأربعة ، أقصد أنكم أنتم المعلمون لا سواكم ، تستطيعون إبطال مفعول جميع هذه القوانين ، وهذه قيمة عملكم .

قدّم عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الأمويين ، خدمات كثيرة لمحبّي أهل بيت الرسول (ص) خلال فترة خلافته القصيرة ، إذ أفلح في تجسيد العدالة الاجتماعية في الإسلام . حتى أن المؤرخين يذكرون بأنه في فترة خلافته القصيرة الأمد لم يكن هناك فقير واحد في المجتمع الإسلامي . بحيث كانوا يكتبون له بأن ليس عندنا فقراء ، فماذا نفعل ببيت المال ؟ فكان يصدر أوامره بشراء العبيد وإطلاق سراحهم .

لقد جسّد بحق العدالة الاجتماعية والمدرسة الاقتصادية في الإسلام . ومن الناحية التاريخية يجب أن نقول إنه كان رجلاً طيباً ، رغم اغتصابه الخلافة ، لكنه خدم محبي الرسول وأهل بيته (ع) بالأعمال التي أنجزها . قبل زمن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت الأمور قد أخذت منحىً خطيراً أصبح فيه

لعن أمير المؤمنين علي بن طالب (ع) بعد الصلاة يُعدّ عندهم من الواجبات ، ويذكر المؤرخون بأن شخصاً مسافراً كان قد نسي لعن علي (ع) بعد الصلاة ، فعاد إلى نفس المكان ولعن علياً (ع) وبنىٰ مسجداً في نفس المكان تكفيراً لذنبه .

وبهذا الوضع الذي كان عليه المجتمع الإسلامي ألغىٰ عمر بن عبد العزيز هذا اللعن ، إذ كان يقول : إن أصبحت طيباً ، فإن المعلم هو الذي أوصلني إلى ما أنا فيه ، إشارة إلى دور المعلم وما أحدثه من تأثير في كيانه . فإشارة واحدة وشرارة واحدة ، على دماغ طفل من الممكن أن تشعله كشرارة في مخزن البارود .

يقول عمر بن عبد العزيز : جاءتني شرارة من العلم إلى دماغي .

إنّ عدالته الاجتماعية كانت نتيجة لذلك ، وحبّه لأمير المؤمنين علي (ع) كان من أجل ذلك . وما عدا غصبه للخلافة فإن كافة أعماله كانت حَسَنة ، وهنا لا أريد التطرق إلى معالجة قضية الخلافة في الوقت الحاضر .

شرارة من جانب معلم ، تصنع عمر بن عبد العزيز ، كان والد عمر ـ أي عبد العزيز ـ خطيب الخلفاء ، وهذا يعني أنّ عليه أن يصعد المنبر ويَلعن علياً (ع) . يقول عمر بن عبد العزيز : مع أن والدي كان خطيباً لامعاً إلّا أنه كلّما كان يصل إلى اسم علي كانت تنتابه لَكْنَةُ اللسان . سألته مرة عن سبب هذه اللكنة فقال : لو علم الناس بفضائل علي (ع) لما اجتمعوا حولنا . علي (ع) ينبوع الفضيلة .

بناءً على قانون الوراثة ، رجل كهذا ينبغي ألّا يُقدِّم عمر بن عبد العزيز إلى المجتمع ، عمر من ناحية قانون الوراثة كان سيئاً جداً ، من ناحية الطعام كان يأكل من مال أبٍ كان يؤمّن راتبه من « سبٍّ » أمير المؤمنين (ع) . ومن الناحية العائلية ، كانَ والده عبد العزيز خطيب الخلفاء ، نشأ هذا الولد في عائلة أبٍ كهذا . أما البيئة فإنه تربىٰ في بيئة مستهترة .

شرارة من معلم استطاعت أن تبطل مفعول كافة القوانين الأربعة . ونظير هذا كثير في التاريخ .

ابن يزيد بن معاوية قانون ورائته مثل يزيد من ناحية الغذاء ، أبٌ سكّير ومربّي كلاب ، وفي نفس المكان كان يمارسُ الموبقات . من ناحية البيئة العائلية فإن وضع معاوية ويزيد وزبانيته أمرٌ واضح ومعلوم . فقد ترعرع بين خلفاء بني أمية ، ولكن معلماً متديناً وعاقلاً في غضون أيامٍ معدودات استطاع أن يربيه ، بحيث أنه عندما مات يزيد ، صعد ابنه المنبر وقال : لعن الله معاوية ولعن الله أبي يزيد . أنا لستُ خليفة النبي ، لقد اجتمعتم حولي بدون سبب ، إن كنتم تريدون خليفة النبي حقاً ، فإنه الإمام السجاد (ع) في المدينة . بعد ذلك عندما تتبعوا الجذور ، ليروا كيف أصبح معاوية بن يزيد هكذا ؟! فوصلوا إلى دور المعلّم وتأثيره . فَدُفِنَ المعلّمُ حياً كي يلقوا الرعب في نفوس الآخرين .

وهم أيضاً أدركوا أن المعلّم يستطيع أن يصنع من ابن يزيد بن معاوية إنساناً محباً لأهل بيت الرسول (ص) بكل معنى الكلمة . ونظير هذه الأحداث كثيرة في التاريخ .

إلىٰ هنا استنتجنا بأن قيمة عملكم أنتم المعلّمون هي أنكم تستطيعون إبطال مفعول قوانين علم النفس الثابتة . عملكم لوجه الله ، وهو عمل الأنبياء ، وأجركم أيضاً عالٍ جداً . ليس لدينا أجر أعلى من أجركم ، فقيمة عملكم عالية جداً . إنكم تستطيعون أن تبطلوا مفعول القوانين التكوينية . فعليكم أن تنتبهوا لأنفسكم .

لأمير المؤمنين (ع) قول يقول فيه : « **كفىٰ بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره** »[1] علينا أن نعرف قدر أنفسنا . يجب أن ننتبه ، بأن كافة المصائب التي تصيب الإنسان سببها أنه لا يعرف قدر نفسه . ومن الناحية الأساسية فإن كافة مصائب عالم اليوم ، سببها أن العالم لم يعرف حقيقة الإنسان لحد لآن ، على هذا لم يمنحهُ المكانة والقيمة اللائقة .

إنكم ترون عالم اليوم بعلمه ومدنيته لا يعترفُ بقيمة الإنسان لأنه يجهل قدره .

---

(١) ميزان الحكمة ، الجهل/٢٨٦٤ .

إذن عليكم أن تعرفوا قدر أنفسكم ، يجب أن تعرفوا مكانتكم ، لأنكم لو علمتم أن لديكم درّة فلن تضيعوها ولن تدعوها دون أن تستفيدوا منها ، إذا كان لدى شخص ما مصباح ، ولكنه لا يعرف تأثيره ، فأما أنه سيبيعه بثمنٍ بخسٍ أو لا يحافظ عليه كما ينبغي . لكنه لو علم أن لديه حجراً ثميناً فإنه سيعلم قدره لا محالة .

عملكم أنتم المعلمون كدرةٍ ثمينة ، لا يمكن تحديد سعرها . إذن اعرفوا قدركم واستفيدوا من عملكم إلى أقصى حد . اعلموا أن الفُرص تمرّ مرّ السحاب . فإن سنحت لكم فرصة فاغتنموها .

على الإنسان أن يغتنم الفرصة أو النعمة المتوفرة لديه ، يقول القرآن :

﴿ ثمَّ لَتُسئَلُنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ ﴾[1] .

أحد الأسئلة التي توجّه إلى أهل جهنّم ، هي ، لماذا لم تعرفوا قدر النِّعَمْ التي كانت لديكم ، لماذا لم تغتنموا الفرص ، ولماذا لم تستفيدوا منها ؟! أنتم المعلّمون يمكنكم أن تربّوا مسلماً ، تستطيعون أن تصنعوا إنساناً ، وبإمكانكم أن تبنوا أفراداً يخدمون المجتمع . تستطيعون أن تسعدوا مجتمعكم . وباختصار يمكنكم أن تقدموا للمجتمع أناساً مفيدين للآخرين ولأنفسهم ، ولكن كلّما كان العمل راقياً ، كانت المسؤولية أكبر .

﴿ منْ قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً ﴾[2] حسب التفسير المنقول عن الإمام الصادق (ع) فإن هذه الآية تعني : إذا حَرَفتم بواسطة عملكم وقولكم أحداً عن الطريق القويم ، أي بدلاً من أن تربّوا الأطفال تربية إسلامية ، ينحرف الأطفال عقائدياً بواسطة أقوالكم وأعمالكم في المدرسة ، فيسيئون الظن بعلماء الدين والإسلام ، هل تعرفون مدى الذنب الذي تقترفونه بعملكم هذا ؟ .

فلو قتل أحدكم شخصاً ما بغير ذنب ، كأنما قتل الناس جميعاً . فما هي

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

جريمته ؟ يصفه القرآن بأنه قاتل ، والقاتل مصيره جهنم خالداً فيها .

﴿ ومنْ يقتلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤهُ جهنمُ خالداً فيها ﴾[1] .

فلو أجهضت سيدة ما ، وقتلت جنينها وهو في الشهر الرابع ، فهي قاتلة ، فإن ماتت دون توبة ، فستذهب إلى جهنم ، وتبقىٰ فيها إلى الأبد .

إنها لم تقتل سوى جنيناً في بطنها ، ولكن الإسلام يعتبر ذنبها كبيراً جداً . فنتيجة الآية التي قرأتها لكم تقول : إذا حَرَفت طفلاً مسلماً عن الطريق ، فإن ذلك ليس قتل نفس فحسب ، بل كأنك قتلت ثلاثة مليارات من نفوس الكرة الأرضية . **﴿ منْ قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً ﴾**[2] .

حذارىٰ من تربية الطفل على حب الجاه ، أو حب الذات ، أنتم المعلمون يمكنكم بواسطة أقوالكم وتصرفاتكم أن تربوا إنساناً يضاف إلى المجتمع أو بشراً جاهلاً لا يعرف شيئاً .

يقول الإمام الصادق (ع) ناصحاً أصحابه : « **كونوا دعاةَ الناسِ بأعمالكم ، ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم** »[3] .

اللّسان له تأثير كبير جداً سواءً على الأعمال أو التصرفات . عليكم أن تنتبهوا إلى تصرفاتكم في المدرسة لئلا تترسخ صفة الرذيلة ـ لا سمح الله ـ في الأطفال الذين يتخرجون من تحت أيديكم .

لو تداعت اعتقادات الطفل نتيجة أقوالكم ، وتربّىٰ على ارتكاب الذنوب فالقرآن يقول : كأنكم قتلتم العالمين جميعاً ، لذلك يجب أن أقول : أنتم المعلمون تستطيعون أن تقدّموا أشخاصاً صالحين أو سيئين إلى المجتمع ، أنتم تستطيعون أن تبطلوا مفعول قانون الوراثة . ما تقدم كان يتمحورُ في قيمةِ وأجرِ المُعلِّم .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢

(٣) قرب الإسناد ص ٥٢ / الكافي ج ٢ ص ٧٨ .

أما من ناحية المسؤولية ، عليكم الانتباه لأحاديثكم مع الأطفال في الصف . الموضوع الذي يجب أن أنوّه به ، هو أن تعلموا أن هناك واجبٌ كبير يقع على عاتقكم ، وعليكم تأدية هذا الواجب بصورة جيدة .

أدنى الأشخاص هو الذي لا يؤدي الواجب الملقىٰ على عاتقه بصورةٍ جيدة . لن أنسىٰ عندما كنت في خدمة أستاذنا الجليل الإمام الخميني (رحمة الله عليه) جاءت مجموعة من العاملين في شركة النفط ، وقالوا : جئنا لنرىٰ ماذا تريد الثورة منّا ، ولم نأتِ لنقول ماذا نريد من الثورة . من الواضح أن قائد الثورة العظيم سُرَّ بهذا الكلام الرقيق ، فأجاب سماحته : الثورة تريد منكم أمرين :

١ ــ تهذيب النفس ، على الإنسان أن يهذّب نفسه وبالأخص المعلم أو المدير أو الشخص الذي يتعامل مع الشباب واليافعين ، عليه أن يهذّب نفسه أولاً ، ليتمكن من تهذيب الآخرين . لا يُعقل أن يستطيع شخص لم يهذب نفسه تهذيب غيره : ﴿ **قلْ كلٌّ يعملُ على شاكلتهِ** ﴾[1] . وعلى هذا الأساس جاء تأكيد قائد الثورة بضرورةِ تهذيب النفس .

٢ ـ عليكم أن تقوموا بالواجب الملقىٰ على عاتقكم بصورةٍ كاملةٍ . وكلُّ شخص يقوم بواجبٍ ما ، أنا المعمم الروحاني لديّ واجب . أنتما المعلم والمدير لديكما واجب ، الكاسب في السوق لديهِ واجب ، والذي في الجيش والشرطة لديهِ واجب ، ينبغي أن يقوم كل شخص بتأديةِ واجبهِ دون التدخل في واجباتِ الآخرين . من هنا إذا كان سؤال تلك المجموعة دقيقاً ، فإن جواب سماحتهُ يمتاز برقّة خاصة .

إذن الواجب الملقىٰ على عاتقكم أيها المعلّمون الأعزاء هو واجب التعليم والتربية ، أو كما يقول القرآن الكريم التزكية والتعليم ﴿ **يزكّيهم ويعلّمهم** ﴾[2] ، فغالباً ما تقولون بأن التعليم والتربية ، ولكن القرآن يجعل التربية قبل التعليم لأن الإسلام يعتبر التربية الإسلامية وتهذيب النفس قبل التعليم والتعلّم .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

إذن هناك واجب مُلقىٰ على عاتقكم ، وعليكم أن تنهضوا بهذا الواجب بصورةٍ كاملة . وإذا أراد الإنسان أن يقوم بالواجب بشكلٍ تام عليهِ أن يبني نفسه ليكون تأثيره بنّاءً .

هذا البحث ، يحتاج إلى تفصيل والمجال لا يتسع لذلك . وفي الختام ، علينا أن لا نقول شيئاً أمام التلاميذ إلا بعد معرفة وتمعّن .

وإذا تكلمنا دون علم ووزن للكلام فإن الخسارة ستكون فادحة ، وهنا يكمن الفرق بين العاقل والأحمق . إذن العاقل هو الذي يفكّر أولاً ثم يتكلّم ، والأحمق هو الذي يتكلّم ثم يفكر .

إن موقعكم أيها المعلمون ـ بناءً على ما أشرنا ـ هو حساس للغاية . لأن الطلاب يسألون عن أمور مختلفة يطلبونها من المعلم . خاصة في الأوضاع الراهنة ، من الممكن أن تطرح أبحاث دينية وأيديولوجية أيضاً في الصف . ما أرجوه منكم هو إن كنتم تعلمون عن الموضوع المسؤول عنه أجيبوا ، وإن كنتم لا تعلمون عنه قولوا بكل صراحة : « لا أعلم » لأن علمنا ـ مهما كان كبيراً ـ فإنه وكما يقول انشتاين : « **نسبةُ علمنا إلى جهلنا ، كنسبةِ القطرة إلى البحر** » ، لا يمكن أن يكون الإنسان خبيراً في كافة الأعمال . لذلك في القضايا العقائدية من الممكن أن تجيبوا الطالب إجابة لا تكون صحيحة . فيرسخ الجواب الخاطىء في ذهنه . إنكم تعلمون أن دماغ الطفل مثل آلةِ التصوير ما يوضع أمامهُ ، يلتقط الطفل صوراً منه ، احذروا ألا تقولوا ـ دونما علم ـ كلاماً في القضايا الاقتصادية والاجتماعية وقضايا الإسلام الأخرى ، بحيث تبنون أساساً خاطئاً في عقل ودماغ الطفل . قد يصبح الأساس الفكري للطالب خاطئاً بسبب جوابكم الخاطىء ، وقد تصدر عنه تصرّفات غير لائقة .

لو حصل ذلك من يتحمل مسؤوليته ؟ لا شك أن المذنب هو من قام بتلك التصرفات أولاً ، ثم من لقنه المعلومات الخاطئة التي ترسخت في ذهنه وتصرف طبقها .

« **منْ سنَّ سنّةً حسنةً عُمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ سنّةً سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره**

ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً »[1] .

إذا بنى شخصٌ مسجداً ، فالذين يُصلّون في ذلك المسجد يحصلون على الثواب الإلهي ؛ وبنفس المقدار سيكتب الثواب لباني المسجد أيضاً . وإذا بنى شخصٌ مكاناً للفحشاء والمنكر ، فسيكتب لهُ ولمرتاديه نفس المقدار من الذنوب .

إذا أبديتم رأيكم في قضايا إسلامية ، مثلاً تقولون دونما علم وبدون وعي موضوعاً حول الاقتصاد الإسلامي ، وترسّخون في ذهن الطفل صيغة اقتصادية لا تتفق وتعاليم الإسلام ، ثم يتلف ذلك الطفل أموال شخصٍ ما نتيجة تعليماتكم الخاطئة ، في هذه الحالة سيكتب الذنب في قائمة أعمالكم أيضاً .

لو أبدت معلمةٌ في الصف رأياً حول الحجاب الإسلامي بدون أن تعي ذلك ، ورسّخت تعاليم خاطئة في ذهن الطفل ، فإن ذنب الأعمال الخاطئة الناجمة عن هذهِ التعاليم الخاطئة يقع على عاتق باني تلك الأفكار أيضاً .

مرة أخرى أرجوكم ألّا تقولوا ما لا تعلمون ، وإن كنتم لا تدرون ، قولوا ـ بشجاعة تامة ـ لا ندري ، فنحن الطلبة نقول : « **لا أدري نصف العلم** » هذهِ هي الحقيقة .

لو قال الإنسان لا أدري سيكون مرتاحاً ، ولن يتحمل مسؤولية فـ « أنا أدري » غالباً ما تكون خطأ ، وتنجم عنها المظالم . إن كنتم تعلمون فقولوا وإن كنتم لا تعلمون قولوا لا نعلم .

وعندما تكون لديكم شبهة قولوا أيضاً : لا نعلم . وهنا من الأماكن التي يجب أن يحتاط المرء فيها .

الإسلام لديه قضايا اقتصادية واجتماعية ومعارف ، قضايا أيديولوجية ، بالمعنى الخاص والعام . الإجابة على كل هذهِ الأسئلة تحتاج إلى خبرة ووعي ، والذي يُريد أن يُبدي رأياً ، يجب أن يستوعب الموضوع لا أن يردّد موضوعاً كالببغاء ، ففي ذلك مظلمة .

---

(١) ميزان الحكمة ٨٩٣٩ .

أرجـو أن تتمعَّنوا في هـذهِ الجملة الأخيرة ، كمـا أرجو أن تكـون هذهِ الجلسة مفيدة لي ولكم .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

البحث الثاني

الذنب وتهذيب الغرائز

﴿ رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾[1] .

كنت أنوي التحدث معكم عن موضوعٍ معين ، لكن وبسبب ذكرى عاشوراء أرجأت هذا الموضوع ، إذ ينبغي أن نعيش هذهِ الأيام بكلِّ وجودنا وشعورنا ، ولذلك فإن بحثنا سيكون عَن مُؤدّي نصيحة من الإمام الحسين (ع) ، لولا وضّحتم هذهِ النصيحة لأصدقائكم وفكّرتم فيها . نحن لدينا روايات قليلة عن الإمام الحسين (ع) وسبب قلةِ هذهِ الروايات هو أجواءُ الكبت والقمعِ والاستبداد التي تميّزت بها مرحلةُ هذا الإمام الشهيد . لذلك لم يكن هناك أحد يروي عنه . ولكن بما أن الإمام الحسين (ع) يمتاز بشفافية خاصة بين الأئمة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ فإن كلامه أيضاً له شفافية خاصة . طبعاً ليس هناك فرق من ناحية الفضيلة بين المعصومين الأربعة عشر ـ عليهم السّلام ـ ولكن الحسين (ع) يمتلك شفافية خاصة .

فمن المعروف أن النبي الأكرم (ص) قال : « **إن للحسين (ع) حرارة في قلوب الناس لن تبرد أبداً** »[2] بمعنى أن الحسين (ع) أوقد ناراً في قلوب الناس لن تنطفىء أبداً . هذهِ النار هي نار العشق والعرفان ، هذهِ الشفافية والحلاوة

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) ناسخ التواريخ .

يمتلكها الحسين (ع) ؛ ورواياته أيضاً فيها هذهِ الشفافية .

من بين الروايات المنقولة عن الإمام الحسين (ع) روايةٌ سنتحدث عنها هنا :

جاء أعرابيٌّ إلى الإمام الحسين (ع) وقال : « **يا ابن رسول الله ، عظني بكلمتين** »[٢] كأني به أعرابياً عالماً ، أراد جملةً بليغة يقتدي بها في حياته ؛ لذلك قال : عظني بكلمتين ـ فأجابه الإمام الحسين (ع) :

« **منْ حاولَ أمراً بمعصيةِ اللّهِ كانَ أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** »[١] .

ولمعرفة هذهِ الرواية ينبغي وضع مقدمة ليتضّح المفهوم أكثر . الإنسان لديه غرائز ، ومن وجهة نظر الإسلام يجب تلبيتها وتهذيب هذهِ الغرائز ، فإذا أراد شخص أن يقضي على رغباته ، فإن ذلك ممنوع في الإسلام . القرآن الكريم يُبيّن هذا المنع بالإضافة إلى أن هذا الأمر ممنوع حسب روايات أهل البيت وسيرة النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) أيضاً .

القرآن الكريم يقول :

﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا** ﴾[٢] .

بمعنى : أن الباري عزّ وجلّ أغرق عليك نعماً كثيرة من بينها العمر والسلامة ، والعقل والشباب ، فاستفد منها جميعاً لآخرتك ، ولكن عليك أن لا تنسىٰ الدنيا . أي لا تنسىٰ الرغبات والغرائز المودعة فيك ﴿ **ولا تنسَ نصيبكَ منَ الدنيا** ﴾[٣] .

القرآن الكريم يحتجّ على الرهبانية حيث يقول :

﴿ **قلْ منْ حرَّمَ زينةَ اللّهِ التي أخرجَ لعباده والطيباتِ منَ الرزقِ . . .** ﴾[٤] .

---

(١) تحف العقول حكم الإمام الحسين (ع) .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

بمعنىٰ : أيها النبي ، قل للذين يفضلون الرهبانية : من الذي حرم زينة الدنيا التي خلقها اللّهُ لعباده ؟ الرزق الجيد والطيب خُلق لكم . المرحوم الفيض الكاشاني عليه الرحمة ـ وهو أحد علماء الشيعة الكبار وصاحبُ « التفسير الصافي » .

ينقل رواية عن النبي الأكرم ص) حول هذا الموضوع يقول فيها: أخبروا النبي الأكرم (ص) بأن ثلاثة من الصحابة اختاروا الرهبانية خوفاً من آية العذاب النازلة ، أحدهم تعهد بأن لا يمس امرأة ، والآخر تعهد بأن لا يأكل طعاماً لذيذاً ، والثالث تعهد بأن لا يختلط بالناس . لقد ترك هؤلاء الحياة وذهبوا إلى الصحراء وانهمكوا في العبادة ويضيف المرحوم فيض الكاشاني : وامتعض النبي (ص) جداً عن سماعهِ هذا النبأ . وهرع مسرعاً نحو المسجد على غير عادة. كان ممتعضاً لدرجة لم ينتبه فيها إلى طرفِ عباءته الملقىٰ على الأرضِ وفي غير موعد صرخ المؤذن : « **الصلاة جامعة** » واجتمع الناس كلهم . ارتقىٰ النبي (ص) المنبر وقوفاً على السُلّم الأول وقال : أيها الناس إني نبيكم أأكل من الطعام اللذيذ ، ألمس المرأة ولديّ علاقات مع الناس في المجتمع « **فمن رغب عن سنتي فليس مني** » فمن لم يكن هكذا فليس بمسلم . نظير هذه الآيات والروايات كثيرة في الإسلام ، لذلك « **لا رهبانية في الإسلام** » .

إذن : خالق هذا العالم منح الإنسان غرائز ورغبات ينبغي تلبيتها . ولكن السؤال هنا ، كيف يجب تلبية هذهِ الرغبات . الإنسان يستطيع أن يلبّي رغباته عبر طريقين :

١ ـ **الحلال** .

٢ ـ **الذنب** .

يستطيع الإنسان أن يكدح ويؤدي واجبه بصورة جيدة ، ثم يحصل على المال ويرضي غريزة حبهِ للمال عن طريق الحلال ـ كما أنه يستطيع أن يواظب على دروسهِ ، وينال مكانةً اجتماعيةً ، وبذلك يرضي غريزة حبهِ للمال . وإذا كان ينوي ضمان مستقبل أبنائه عليه أن يكدح في الطريق المعقول والمشروع ، ليضمن مستقبل أبنائه وبذلك يُرضي ويُهذّب غريزة حب البنين . وهذا الطريق الأوّل أما السبيل الآخر لتهذيب وإرضاء الغرائز ، فهو سبيل الحرام (الذنب)

أحياناً يوفر الشخص المال عن طريق التزوير والاحتيال ، يحصل على منصب اجتماعي بواسطة النصب والاحتيال ، ويوفر ضمان مستقبل أولاده عن طريق التطفيف والاحتكار . أو إذا أحالوا واجباً إليه لا يؤديه بصورةٍ جيدة ، وقد حذر القرآن الكريم هؤلاء المطففين . هذا الشخص أرضىٰ غريزة حب المال وحب الجاه وحب الأبناء ولكنه انتهج الطريق الحرام (الذنوب) .

إن غرائز ورغبات كلا الفريقين قد لُبّيت ، ولكن هنالك فرق كبير . فلو لُبيت الغرائز عن الطريق الشرعي والمعقول فهي مباركة حقاً ، إن الإنسان يمكنه أن يصل أينما يشاء . إنّ السبيل الحقيقي لتكامل الإنسان هو أن يُرضي ويهذّب غرائزه عن طريق الحلال . هذا هو الطريق من وجهة نظر القرآن والروايات ، وقد أثبتت التجربة أن لا سبيل للتكامل سوى هذه الطريق . ولكن لو حدث ذلك عن طريق الحرام (الذنب) فلن يبلغ الهدف المنشود القرآن يقول : لن يبلغ الهدف المنشود ، والروايات تقول لن يبلغ الهدف المنشود والتأريخ أيضاً يقول لن يبلغ الهدف المنشود . سأنقل لكم قضية من كربلاء ، لكي ترون كيف لا يمكن بلوغ الهدف المنشود عن طريق الحرام (الذنب) :

كان من المقرر أن يأتي عمر بن سعد إلى إيران ويصبح والياً على إيران في ذلك العهد . فحدثت قضية كربلاء . جاء ابن زياد إلى الكوفة في وقت تزامن مع موعد قدوم عمر بن سعد إلى إيران .

الشورى التي شكلها ابن زياد قالوا له : عمر بن سعد يستطيع أن يخمد النار التي أضرمها الحسين (ع) لذلك استدعى عمر بن سعد ، وقال له : مهمتك أن تذهب إلى كربلاء . قال : لدي عهد من يزيد بأن أذهب إلى الري لأحكم هناك .

ابن زياد قال : أنا لدي صلاحيات تامة من قبل يزيد ، عليك أولاً الذهاب إلى كربلاء للقضاء على الحسين (ع) وبعدها تذهب إلى ولاية الريّ . فشعر ابن سعد بالخوفِ والقلق لأن قتل الإمام الحسين (ع) لم يكن عملاً هيناً ـ كان عمر بن سعد رجلاً ماكراً ـ ولكن حين تطغىٰ إحدى الغرائز على الإنسان أو يهيمن الشيطان على الإنسان ـ سأتحدث معكم حول هذا الموضوع في

المستقبل إن شاء الله ـ إنه كان حائراً عند مفترق طريقين ، العقل يقول : كلا ، الغريزة والجانب البهيمي تقول : نعم . في تلك الجلسة ، طلب مهلة لكي يفكر وفي ليلةٍ من الليالي استمر يفكر حتى الصباح .

المؤرخون يذكرون نقلاً عن ابنه أنه كان يسير في صحن الدار ويناجي نفسه : هل أذهب إلى كربلاء وأقتل الحسين (ع) ؟ لو فعلت ذلك فسأنال الرئاسة والمال وستقبل عليَّ الدنيا ، ولكن آخرين ستفنىٰ حيث جهنم وعذاب الله وخزيُ المنقلب إذا لم أذهب إلى كربلاء، لديّ الآخرة وكرامات الجنة ورضا الله ورسوله ، وبالمقابل لن أحصل على الدنيا . إنَّ حالة التلكّأ من الحالات السيئة للإنسان وتجرّه شيئاً فشيئاً نحو الكفر وعمر بن سعد انتابتهُ هذهِ الحالة حيثُ مهّدت الأرضية لخسرانهِ وتعاستهِ التي اختارها لنفسهِ . قبل أذان الفجر تغلّبت نفسه على روحه ، وطغىٰ الجانب البهيمي على الجانب الملكوتي . ومن أجل أن تطفِيء ضربات الوجدان الجانب المعنوي جاء بعذرٍ باهتٍ كروحهِ .

يقولون هناك قيامة ، سنذهب إلى كربلاء ونقتل الحسين (ع) ونُتمّ الأمر . ثم نعود إلى الري ونتولى الرياسة فيها . وبعد ذلك نتوب .

قرر أن يذهب إلى كربلاء ، لماذا اتخذوا هذا القرار الخطير ؟ لأن غرائز حب المال وحب الجاه وضمان مستقبل الأولاد ملأته وهو نفسه كان يبحث عن إرضاء يزيد . كافة هذهِ الغرائز عن طريق الحرام . وفي الصباح ذهب إلى ابن زياد وقال : جئت لأخبرك بأني سأذهب إلى كربلاء .

ذهب عمر بن سعد إلى كربلاء ، وأتم الأمر بشكلٍ مفجع . الكثير من الأعمال التي ارتكبها عمر بن سعد في كربلاء ، لم يؤمر بها . رأفة الإمام الحسين (ع) لم تستطع أن تغيّرهُ . حتى في اليوم التاسع التقىٰ به . لكن جذابية الإمام الحسين (ع) لم تؤثر فيه لو هُزمت روحنا الإنسانية ، سنصبح تُعساء . ستصل التعاسة إلى مدى لا تستطيع جذابية الحسين (ع) نوّه مراراً ، وقال : سأعطيك بيتاً .

وباختصار أي شيء كان يطلبه ، كان الحسين (ع) يقول: سوف أوفرّ لك،

إلى أن قال صراحةً : أريد حكم الري ، فقال الإمام الحسين (ع) : أرجو أن لا تأكل من قمح الري وأن يقطعوا رأسك في فراشك . فأجاب ابن سعد مستهزءاً : هذا هو ما يكفينا .

باختصار لم يقبل بنصائح الإمام وأتمم الأمر كما أراد ابن زياد وبعد مقتل الإمام (ع) جاء إلى الكوفة . ومكث فيها أياماً بسبب وجود السبايا من آل بيت الرسول (ص) وما نجم عن قضيتهم من هيجانٍ شعبي إلى حين إرسالهم إلى الشام وعندما خفتت الضوضاء ، جاء عند ابن زياد ـ وهنا تجد رواية الإمام الحسين (ع) مصداقها البارز ـ « **من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** » .

كل من يريد أن يحصل على شيء عن طريق الحرام (الذنب) سيواجه الإحباط واليأس ، وتراه مسرعاً باتجاه عكس ما كان يروم . قال لابن زياد : إني مستعد للذهاب إلى الري . فقال ابن زياد : سمعت أنَّ لديك جلسات مع الإمام الحسين (ع) في كربلاء . ما مناسبةُ عقد هذهِ الجلسات الخصوصية مع عدونا ؟ أنَّ ابن زياد بالذات لا يعرف ماذا يقول . إنها نبوءة الإمام الحسين (ع) تريد أن تتحقق .

إن الباري عزّ وجلّ يسلّط الأعداء على بعضهم البعض . قال عمر بن سعد : كانت لديّ جلسات أو لم تكن ، أنت أردت أن أقتُل الإمام الحسين (ع) وأنا قتلته ، وأسرت عائلته وسلمتها لك وقد أرسلتهم إلى الشام ، فماذا تريد مني بعد كل هذا ؟ .

قال ابن زياد: كان يجب عليك أن لا تعقد جلسات خصوصية مع عدونا . وفي أثناء الحوار ، قال لعمر بن سعد : أعطني عهد حكم الري .

أعطى ابن سعد عهد يزيد إلى ابن زياد فأخذه ومزقه ورماه جانباً .

قال عمر بن سعد : يا ابن زياد ، لقد حطمتني . قال : اخرجوه . فمسكوه وألقوا به خارجاً . كان دائماً يقول : ﴿ **خسرَ الدنيا والآخرةَ ، ذلكَ هوَ**

الخسرانُ المبينُ ﴾[1] بمعنى : « أصبحت تعيساً في الدنيا ، وخسرت الآخرة يا له من خسرانٍ مبينٍ » .

وتدريجياً أصبح مجنوناً . عندما يأتي إلى البيت كانت زوجته وأولادهُ يؤنبونه ، قالوا له : لقد حطمتنا، وكنت السبب في بؤسنا . بسبب عملك الشنيع ، لا نستطيع الخروج من البيت . عندما كان يسير في الزقاق كان الأطفال يرشقونه بالحجارة . كان هناك حمّام بالقرب من دارهِ ، وفي هذا الحمّام بابان يدخل من إحداهما إلى الحمام . فكان يواجه بالاستهزاء من قبل الموجودين ، وكانوا يضربونه ، بحيث يهرب من الباب الآخر وبناء على الأوامر تمت مصادرة فراشه . الشيء الوحيد الذي بقيَ يُرددهُ دائماً :

﴿ خسرَ الدنيا والآخرةَ ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ ﴾[2] .

ثم جاء دور المختار ، كانت زوجة عمر بن سعد أخت المختار . لذلك عندما ثار المختار ، تمكنت هذهِ الزوجة أن تحصل من أخيها كتاباً بعدم التعرض لابن سعد لكن المختار يعلم أن عمر بن سعد ارتكب جريمة ، ويجب أن ينال جزاءه لذلك كتب في كتاب عدم التعرض « عمر بن سعد في أمان » « **ما لم يحدث حدثاً** » المعنى الظاهر للعبارة أن عمر بن سعد ، طالما يتآمر فهو في أمان .

ثار المختار لينتقم لدم الحسين (ع) من المشاركين في مأساة كربلاء ، ليشفي بهذا العمل غليل الزهراء ـ عليها السّلام ـ والشيعة . كان يفكر دائماً في كيفية إنزال العقاب بعمر بن سعد . أحياناً كان عمر بن سعد يشارك في مجلس المختار . في أحد الأيام أمر المختار بذبح اثنين من أولادهِ أمام عينيه . قال عمر بن سعد : إن رؤية هذا المشهد تؤلمني جداً . قال المختار : عندما قطعوا رأسي عليّ الأكبر أمام الإمام الحسين (ع) ، ألم يكن ذلك مؤلماً ؟ .

ذهب المختار إلى داره وطلب اثنين من ضباطه الأذكياء وقال : اذهبوا وأتوا بعمر بن سعد . وكونوا على حذر لأنه رجل مخادع ، إذا قال هاتوا ملابسي

---

(١) سورة الحج ، الآية : ١١

(٢) سورة الحج ، الآية : ١١

أريد أن ألبسها ، فإنه يُضمر الخداع وعليكم أن تقضوا عليه هناك . باختصار أعلمهم أنه يريد رأس عمر ابن سعد .

هنا ستتحقق لعنة الإمام الحسين (ع) جاء الضابطان كان عمر بن سعد راقداً في فراشه . قالوا له : إنَّ المختار يريدك . فنهض وقال : المختار أعطاني كتاباً بعدم التعرض . قالوا : أرِنا ذلك الكتاب ، أخذوا الكتاب ووجدوا فيه مكتوباً : عمر بن سعد في أمان . « **ما لم يحدث حدثاً** » قالوا : حسناً ، هاتان الجملتان لهما معنيان ، الأول طالما أنه لم يتآمر فهو في أمان والمعنى الأخر ، طالما أنهُ لم يُخل بطنه فهو في أمان ، لأن « **ما لم يحدث حدثاً** » . من مادة الحدث ، قال عمر بن سعد : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني : ﴿ **ومكروا ومكرَ اللَّهُ والله خير الماكرينَ** ﴾[1] .

إنَّ آية الله الأراكي الذي كان يصلي في مدرسة الفيضية، أحياناً كان يقول هذهِ الجملة البارزة : ﴿ **الله يُمهل ولا يُهمل** ﴾ الباري عزّ وجلّ لديهِ صبرٌ وحلمٌ كثير ، ولكن يا أعزائي حذارى أن تنخدعوا من حلم الله ، الله حليم ، ولكن حينما يأتي دور العذاب ، فإنه شديد العقاب » .

قال عمر بن سعد للضابطين : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني ، قال الضابطان : نحن هكذا نفهم . قال : هاتوا ملابسي . ما إن قال هاتوا ملابسي ، قطعوا رأسه وجاءوا به إلى المختار . أحد أولاد عمر بن سعد كان هناك فبكىٰ لرؤية رأس أبيه . قال المختار : إلحقوه بأبيه . يقول الإمام الحسين (ع) :

« **من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** » لان من يصِح عمر بن سعد ، ويريد أن يرضي غرائزه عن طريق الحرام (الذنب) لن يحصل على ما يبتغيه ، يا ليت أنه لن يحصل على ما يبتغيه فحسب ، بل يحصل على عكس ما ينشره ، يحصل على الذل والجنون ، والقتل في

---

(١) سورة آل عمران ، الأية : ٥٤ .

الفراش . ولأنَّ ضمان مستقبل الأولاد عن طريق الحرام (الذنب) يؤدي إلى الذلّ والهوان . إن القرآن يقول :

﴿ وليخشَ الذين لو تركوا منْ خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[1] .

أي : إذا أردت أن تضمن مستقبل أولادك ، وإذا كنت تخشىٰ على مستقبلهم فاتّق وقوّ علاقتك بالله . عندما تتحدثْ انتبه ماذا تقول . أليس في كلامك لدغة واستغابة وقذف بالناس، كن على يقين بأن قذفك الناسَ بالتهم سيغدو حيّة قِطاء لضمان مستقبل أولادك ، ولكن كن على ثقة بأن استغابتك ولدغات كلامك ، وأكاذيبك وشهادات الزور ستصبح ناراً لضمان مستقبل أولادك . كما أن عكس هذهِ القضية نراه في قضية حضرة الخضر وحضرة موسى عليهما السّلام . قضية عجيبة جداً . وكما قال أستاذنا الكبير ، قائد الثورة الإسلامية العظيم (قدس سره) الذي كان يقول لي : في هذهِ الآيات القلائل يكمن علمٌ بحجم الدنيا . لقد حلّت ـ هذهِ الآيات ـ مسألة القضاء والقدر بصورة نهائية كما أنها حلّت مسألة الجبر والتفويض التي تعتبر من المسائل الفلسفية المهمة والمستعصية ، ففي هذهِ الآيات نقاط حساسة سيَدور حولَها بحثنا في هذا المجال .

فعندما وصل موسى (ع) والخضر (ع) إلى تلك القرية ، لم يأذن لهما أهل القرية بالدخول ، حتى أنهما أعطوا نقوداً ، وطلبا غذاءً ولكنهم لم يقدموا لهم غذاءً ، فخرجا من القرية متعبين جائعين وصلا إلى جدار مائل . قال الخضر (ع) لموسى (ع) : علينا أن نهدم هذا الجدار ونعيد بناءَهُ : فامتعَضَ موسى (ع) وقال : أنهم لم يقدموا لنا غذاءاً وطردونا ، فهل يعقل أن نقدّم عملاً حسناً لصالحِهم فَقوّضَا الجدار وأعادا بناءه كما قاما بأعمال أخرى في طريقهم لا حاجة لنا بذكرها الآن . عندما قرّرا الافتراق ، قام الخضر (ع) بتوضيح فلسفة أعماله إلى أن وصل الدور إلى قضية الجدار ، فقال : **﴿ وأما الجدار ، فكانَ**

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩ .

لغلامينِ يتيمينِ ﴾[1] بمعنى أن ذلك الجدار كان ملكاً لطفلين يتيمين ، وكان تحته كنز ، ﴿ وكانَ أبوهما صالحاً ﴾[2] بمعنى أن والد هذين الطفلين ، كان رجلاً مُوحِداً ، وكان كلامُهُ ينزل على الآخرين كالماء الزلال ، وليس كلدغة من حية قِطاء . لم يكن مضرّاً للآخرين ولا أنانياً . لذلك كان لديّ أمر من جانب الباري عزّ وجلّ بتقويض ذلك الجدار وإعادة بناءه ، لكي لا ينهدم الجدار قبل أن يكبر الأطفال ولكي لا يحصل الآخرين على الكنز الذي تحته .

ماذا تقول لنا هذه الآية ؟ هذهِ الآية تقول لنا : إذا أردت أن ترضي غرائزك إرضِها بالطريق المشروع ، وإذا أردت أن تكون عاقبتك وأولادك على خير ، كن صالحاً ، كُن خيّراً وخدوماً ، إخدم الله وخلق الله بقدر الإمكان . وكُن على يقين إذا أردت الدنيا ، سيعطونك إياها وإذا أردت الآخرة ستنالها أيضاً .

﴿ منْ عملَ صالحاً منْ ذكرٍ أو أنثىٰ وهوَ مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ ﴾[3] .

بمعنىٰ إذا أصبحت إنساناً خيراً ، وإذا متّنت علاقتك بالله ، وإذا لم يكن في حياتك ذنب بالأخص في حق الناس ، فلك في الدنيا حياة طيبة وسعيدة ، وفي الآخرة أيضاً تنتظرك الجنة الخالدة . الأجر الذي تناله في الآخرة يفوق ما قمت به من أعمال وليس هنالك أية نسبة بين عملك وذلك الأجر في القرآن الكريم الكثير من الآيات نظير هذهِ الآية وروايات كثيرة نظير الرواية التي قرأتها . ولدينا أمثلة عديدة في التأريخ ذكرت لكم عدداً منها ورواية الإمام الحسين (ع) تستند إلى القرآن وكذلك على الروايات والتأريخ .

إذن يا أعزائي ، إذا أردتم سعادة الدنيا ، لتكن لكم علاقة بالله ، وأن تخلوا حياتكم من الذنوب . كونوا على ثقة أنكم لن تجنوا شيئاً عن طريق الحرام . من الممكن أن يحصل المرء لأيام معدودات على المال والجاه عن طريق الحرام ، ولكن هذا المال والجاه قد يصبح مصدراً لتعاستهِ وبؤسهِ .

---

(١) و (٢) سورة الكهف ، الاية : ٨٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٩٧ .

أنا وأنتم سمعنا وشاهدنا البعض مرفهين ولكن نفس هذا الشخص الذي يبدو أن وضع حياتهِ مستقر ، عندما تنظر إليه بعمق ، ترى أن حياته هي الموت التدريجي ، وإذا كان الموت يُشْترىٰ ، فهو مستعد لأن يهب كل ما يملك ليشتري الموت .

هذا الشخص يتحسّر بشكلٍ لم يتحسّر مثله أي فقير أو مسكين طوال عمره . لماذا ؟ القرآن يقول :

﴿ ومنْ أعرضَ عنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكاً ﴾[1] كل من يُعرض عن الله وكل من ليس له علاقة قوية بالله . فإن أول مصائبه أن يحيا حياة تعيسة في الدنيا .

إذن أنتم يا أعزائي يا من تعشقون الإمام الحسين (ع) كلما فكرتم أو تحدثتم أو عملتم تذكروا رواية معشوقكم : « **من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر** » .

أنصحكم نصيحة : (وسأتحدث في المستقبل حول ذلك بصورة تفصيلية إن شاء الله) .

أعزائي ، لقد أكدتُ في أوقاتٍ سابقة : إن عملكم وحرفتكم راقية جداً ، هو عمل الله والنبي .

كما أن عبء مسؤوليتكم كبير جداً . الأولاد الذين تشرفون على تعليمهم ، أمانة في أيديكم وأرذل الناس هو الذي يخون الأمانة .

وهناك رواية عن الإمام السجاد (ع) ما مضمونها : لو وضعوا عندي الخنجر الذي قُطع به رأس والدي أمانةً فلن أخون وسأردهُ إلى صاحبه .

عبد الرحمن بن سبابة يقول : عندما توفي والدي ، كنا في ضنكٍ من العيش فأقرضني أحدُ أصدقاء والدي قدراً من المال . فاشتغلت في التجارة ، وعن طريق الكسب الحلال استطعت أن أوفي قرضي .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

وتدريجياً ادّخرت كميةً من المال . ساعدتني على أداء فريضة الحج . وفي المدينة ذهبت لزيارة الإمام الصادق (ع) فقال الإمام (ع) : كيف حال أبوك ؟ قلت : ﴿ **إنّا لله وإنا إليهِ راجعون** ﴾ لقد توفي أبي . قال : ماذا تصنع وكيف جئت إلى هنا ؟ فشرحت له القضية بأني اقترضت مالاً واشتغلت في التجارة .

ما إن سمع الإمام الصادق (ع) بالقضية ، قال : « ماذا فعلت بمال الناس ؟ » ، قلت : يا بن رسول الله ، لقد أوفيت قرض وأمانة الناس وبعدها جئت إلى خدمتكم » .

فَسُرَّ : الإمام الصادق (ع) كثيراً ، وقال لي : « **عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة** »[1] بمعنىٰ عليك بمراعاة أمرين : كن صادقاً ومستقيماً في عملك . إذا كان المرء ذا مصداقية فسيصبح عزيزاً في المجتمع .

٢ ـ المواظبة على أداءِ أمانات الناس :

الأولادُ الذين تشرفون على تَعلِيمهم هم أمانةٌ في أعناقِكم . عليكم تأديةُ واجبِ حفظ الأمانة إذا لم تُؤدوا واجبكم بصورة تامة لا سامح الله ، وتذهبون إلى الصف ، بدون مطالعة وتخدعون الأولاد ، وتتلفون وقتكم عبثاً ، فهذا تطفيفٌ وخيانةٌ في الأمانة والمالُ الذي تحصلون عليه من هذا الطريق سيصبح نقمة ، ويجرّ عليكم الويلات . وكما نوّهتُ فيما مَرّ ذكره من حديث الإمام الحسين (ع) : « **ستجري مسرعاً نحو الفقر والفاقة بدون أن تشعر** » .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ويلٌ للمطففينَ ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفونَ ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرونَ ، ألا يظنُّ أولئكَ أنهم مبعوثونَ كيومٍ عظيمٍ** ﴾[2] الظن بيوم القيامة يبعث على إعادة النظر في التعامل ، فكيف إذا تيقّن المرء من ذلك .

تقول الآية : ﴿ **ويلٌ للمطففين** » . إنّ الكاسب المطفف والمجحف

---

(١) وسائل الشيعة المجلد ١٣ ، ص ٣١٩ ، الحديث (٦) .

(٢) سورة المطففين ، الآيات : ١ ـ ٥ .

والمحتكر في خطٍّ واحد . موظف الدائرة الذي يتهاون في عملهِ مطففٌ .

وأنتم المعلّمون أيضاً إذا لم تؤدوا واجبكم والأمانة الملقاة على عاتقكم في نهاية العام الدراسي ، فإنكم مطففون . أنت أخذت مالاً ، ولكنك بتباطئك في العمل والعُطَل اللاشرعية ، لم تؤدِ الأمانةُ الملقاة على عاتقك بصورةٍ تامة . وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[1] .

استوفيت وخسرت الكيل ، إذن أنت مصداق هذهِ الآية شئت أم أبيت فويلٌ لك أيضاً .

إذن موجز البحث عبارةٌ عن نصيحةٍ مُؤدّاها أن تواظب دائماً في قولك وعملك ، وقبل أن تفكر ، وقبل أن تقول ، وقبل أن تعمل تَذَكّر قول الإمام الحسين (ع) :

« من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع ما يحذر » .

---

١) سورة المطففين ، الآيتان : ٢ و ٣ .

البحث الثالث

جهاد النفس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ربّ اشرح لي صدري ويَسِّر لي أمري واحلُلْ عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

الإنسان لديهِ امتياز من بين كافة المخلوقات وهذا الامتياز هو أنه ذو بُعدين بُعد مادي ، والآخر حيواني يسمونه في الفلسفة : الجسم كما يُسمىٰ جسم الإنسان في علم النفس باسم الرغبات أو الغرائز ويُسمىٰ في الأخلاق والعرفان الإسلامي باسم الاتجاه الحيواني ، أو البعد الحيواني للإنسان ولذا فهو من هذهِ الناحية حيوان بكل معنىٰ الكلمة ولا يختلف عن الحيوانات أبداً . وله بُعد معنوي أيضاً ، وهذا الجانب جانب ملكوتي ويُسمىٰ في الفلسفة « الروح » لذلك يقولون : إن الإنسان مُركب من الروح والجسم . العقل والروح والوجدان الأخلاقي ، والقلب والصدر جميعها ذات معنى واحد وتتجه نحو البعد المعنوي للإنسان ، وإن ارتقاء وتكامل الإنسان ، يجري عن طريق هذا التركيب ، وبما أنّ الملائكة يمتلكون البعد المعنوي فقط ، لذلك لم يُشاهد ، ولن يُشاهد تكاملٌ في الملائكة .

مع أن حضرة جبرائيل ملك مقرّب ، وله سعة وجودية على العالم وكما قال النبي الأكرم (ص) لو تمكن المرء من استيعاب حقيقة جبرائيل ، فإن له هيمنة على عالم الوجود أيضاً ، إن سعتهِ الوحدوية كبيرة إذ أنه ملك الله المقرب . كما هو الحال بالنسبة لحضرة عزرائيل . ولكن ليس هنالك تكامل في جبرائيل ، ليس هنالك أدنى فرق بين جبرائيل الحالي وجبرائيل قبل ميليار عام

مع أنه منهمك في عبادة الله ، وكما قال القرآن الكريم فإن جبرائيل لا يخالف ولا يعصي ربه وشأنهُ شأن سائر الملائكة ، لا يسير نحو التكامل ، كما أن الحيوانات ليس لها تكامل ، مثلاً دابّة الأرض والنمل هذهِ حشرات تعيش بصورة جماعية ، ولديها حضارة خاصة ، وبالأخص دابة الأرض والنحل والنمل حيث كتب علماء الإسلام كتاباً حولها مثل « الدميري » مؤلف كتاب حياة الحيوان وآخرين مثل مترلينغ النمل ودابّة الأرض والنحل .

النظام والطرق الحضارية المتبعة في حياة هذهِ الحشرات تفوق ما يتبعه الكثير من البشر ، ولكن على رغم الحضارة التي يمتلكها النحل مثلاً ، إلا أنه لا يسير نحو التكامل . قبل مليار عام كانت دابّة الأرض تبني بيتاً راقياً جداً بحيث حازت على إعجاب وتقدير المهندسين في دقّة تصميمها ، ولكنها الآن تبني نفس ذلك البيت .

لم يحدث أي تطور (تكامل) في بناء البيت أو في النظام لدى النمل لكي تصل إلى حضارة أرقى .

التكامل موجود في عالم الخلقة باسم الإنسان فقط ، لأنهُ يمتلك بعدين : بعد ملكوتي (ناسوتي) ويسمى الروح ، وبعد حيواني يُسمى الجسم . التركيب أيضاً تركيب عجيب ، بمعنى أن طريقة التركيب مجهولة لحد الآن ، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ندرك كُنهها ، لا يستطيع أي فيلسوف أن يوضّح طريقة التركيب بين الروح والجسم . إنهم يكتفون بالقول : إن طريقة تركيبه طريقة تعلّقية ولكن ماذا تعني التركيبة التعلقية ؟ ماذا تعني حقاً ؟ وما هي طريقتها ؟ تركيب بين ضدين ! . روايةٌ عن النبي الأكرم (ص) في سفرهِ إلى المعراج يقول فيها : رأيت ملكاً في ليلة المعراج ، كان نصفهُ من النار والنصف الآخر من الثلج ، الثلج لم يكن يسري إلى النار ، وكذلك النار إلى الثّلج . إذا أردنا أن نفهم هذهِ الرواية ، فنحن خير مثال لها .

جميع رغباتنا الروحية لا يتلاءم معها جسمنا ، وعلى العكس جميع رغباتنا الجسمية تسبب المتاعب والألم لروحنا . أنتم لا يمكنكم أن تجدوا لذة روحية ترضي الجسم ، كما تُرضي بُعدكم الحيواني ، مثلاً صفة طلب العلم وصفة

البحث عن العلم ، وصفة طلب الحقيقة وصفة التسامح ، وصفة الإيثار والتضحية جميع هذهِ الصفات ترتبط بالبعد الملكوتي والروحي للإنسان . عندما تُحل مسألة ما تستلذ الروح كثيراً ، ولكن نفس هذهِ اللذة الروحية يعقبها ألمٌ في الجسم بمعنىٰ أن طلب الحقيقة يسبب المتاعب عند البحث عن العلم ، وطلب العلم تُفرض أمور على النفس وعلى البعد الحيواني .

جميع هذهِ الأمور تسبب الألم والمتاعب لجسمكم ، أما الأكل والشرب وإطفاء الشهوة والاستراحة فهي مستلزمات مفيدة للجسم ، لكن وكما يقول مثنوي كلما اعتنيتم بهذا الجسم ، تقتل الروح ، ويسري الكسل والمتاعب للروح ، ما هذا التركيب بين هذين الضدّين ؟ التركيب الذي يتكامل الإنسان بواسطتهِ ، ولكن أحياناً يركب الجانب الملكوتي والمعنوي الذي أسميناه الروح ، يركب الجانب المادي ، الجانب الناسوتي والحيواني ، ويتحرك إلى الأمام في حركة تكاملية بمعنى أن هذا الجسم يصبح كالحصان بالنسبة للروح ، الروح تهذّبه وتُروِّضهُ وتمتطيه ، إلى أين يذهب ؟ يصل إلى مكان لا يعلمهُ إلا الله . نظير البراق الذي امتطاهُ النبي الأكرم (ص) وصعد إلى الأعلى ، أما كيف كان هذا البراق ، وكيف صعد إلى الأعلى ، لا نعلم ، إن ما نعلمهُ هو أن النبي الأكرم (ص) ذهب مع هذا الجسم إلى الحد الذي اقترب فيه إلى الله حيث يقول القرآن :

﴿ ثم دنا فتدلىٰ ، فكانَ قابَ قوسينِ أو أدنىٰ ﴾[1] .

آخر مراتب القرب تكمن في هذهِ الآية الشريفة . الإنسان أيضاً هكذا أحياناً يمتطي البراق ، بمعنى أنه يسمو فوق هذا الجانب المادي ، وهذهِ الرغبات والغرائز ، ويسير سيراً صعودياً يتصل في مرتبته الأولى والثانية بعالم الملكوت ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربّنا اللّهُ ثمَّ استقاموا تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم في الحياةِ الدنيا

---

(١) سورة النجم ، الآيتان : ٨ و ٩ .

وفي الآخرة ﴾[1] . بمعنى أن الذين يقولون رَبُّنا الله ، أولئك المؤمنون العاملون بإيمانهم ، إنهم حقيقةً مؤمنون أقبلوا على الله تعالى واستقاموا على الطريقة الإلهيةِ وصمدوا بوجهِ الشهوات .

يصل إلى مرتبةٍ يأتي الملائكة ويتكلمون معه . ويرى الملائكة . وهم يقولون له : نحن أصدقاؤك ، نُنجدك في الدنيا وفي الآخرة ، إنه يتعامل مع الملائكة ، وشيئاً فشيئاً يصل كما يؤكد القرآن وروايات أهل البيت ، ومن حيث التجربة إلى التصرف في عالم الملكوت ، ويتصرف في عالم التكوين . إن استيعاب هذا الأمر صعبٌ ، وشاهدنا بأن البعض قد حقق ذلك بالفعل .

« جابر الجعفي » أحد الأشخاص ، الذين استطاعوا أن يسيطروا على رغباتهم ويمتطون البعد المادي نحو التكامل الملكوتي . الراوي يقول : قلت لجابر في الكوفة : لقد اشتقت إلى الإمام الصادق (ع) . قال : هل تريد الذهاب إليه ؟ فتعجّبت ، وقلت : نعم ، ولكن كيف يمكن الذهاب إلى الإمام الصادق (ع) ؟ .

فذهبنا خارج الكوفة . ثم قال : أعطني يدك وأغمض عينيك . أعطيتهُ يدي ثم فتحت عيناي ، فإذا بي في أزقّة المدينة ، فتعجبت . قال جابر : هذا بيت الإمام الصادق (ع) اذهب إلى هناك حتى آتي . عندما مررت في الأزقّة سألت نفسي قد يكون هذا ضرباً من السحر ، أين أنا مِن الكوفة ؟ الأفضل أن أضع مسماراً في الحائط ، وفي العام القادم عندما آتي إلى مكة والمدينة سأرى هل المسمار موجود أم لا ؟ يقول : بينما كنت على هذهِ الحال وإذ بجابر الجعفي قادم فأعطاني مسماراً وصخراً وقال : اضرب المسمار في الحائط .

يقول : ذهبت عند الإمام الصادق (ع) ولكني كنت خائفاً جداً ، فرأيت جابراً قادماً وانفرد بالإمام (ع) أحياناً كان الإمام الصادق (ع) يناجيه وأحياناً كان هو يتحدث إلى الإمام ـ خلوة العاشق بالمعشوق ـ جلست عند الإمام (ع) مدة وبعد ذلك خرجنا سويةً ، فرآني جابر ، وقد أصبت بالذهول فقال : هل تريد أن

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٠ و ٣١ .

تذهب إلى الكوفة ؟ قلت : نعم . قال : اغمض عينيك وأمسك بيدي ، ثم فتحت عيناي وإذا بي في الكوفة .

لا تستغربوا ، إن هذهِ الأمور لها جذور قرآنية . ناهيك عن العرفاء والتجربة وتاريخنا ، فإذا لم تكن هذهِ الأمور ، ذات جذور قرآنية ما كنت قد تحدثت عنها لكم ، نقرأ في تفسير القرآن الكريم حول « آصف بن برخيان » أحد تلاميذ حضرة سليمان : عندما جاءوا بالخبر ، كان هو يعلم بالخبر بأن بلقيس تحكم في اليمن ، وإن الناس هناك يعبدون الأصنام . قال حضرة سليمان : من الذي يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس ؟ القرآن يقول : ﴿ **قالَ عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ تقومَ منْ مقامك . . .** ﴾[1] ثم يقول : ﴿ **قالَ الذي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفك** ﴾[1] قال : إئذن لي بأن آتيك بعرشِ بلقيس في لمح البصر ، اغمض عينيك ثم افتحها ، سيكون العرش جاهزاً ﴿ **قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾[2] فأذن له . فجاء آصف بن برخيا بالعرش في لمح البصر ، القرآن يقول إنه جاء به . ما هذا العلم يا ترىٰ ؟ .

كيف يمكن للإنسان أن يُدرك هكذا ؟ إذا أراد أن يُدرك ، هذا هو السبيل ، عليه أن يسير في الملكوت ، وأن يسيطر على النفس ويهذب البعد الحيواني ، أن يلجم هذا الحصان الجامح ويمتطيه ، حينذاك يصبح جابر الجعفي ، وآصف بن برخيا .

هذا الموضوع طرحته بصورة عرضية ، ولم أقصد أن أتناوله بهذا الشكل الأمر الذي أودّ أن أسترعي انتباهكم نحوه ، وأعلم أنكم تعانون من نقصٍ شديد في هذا المجال ، هو أن تتعاملوا مع القرآن ، القرآن فيه أشياء كثيرة ، كلما تريدونه في حياتكم موجود في القرآن وللأسف فنحن لا نتعامل مع القرآن ، إذا أردتم نور البصيرةِ والعلم ، وأن تسخّروا عالم الملكوت وسلامة الدنيا والآخرة ، عليكم بالتعامل مع القرآن .

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٤٠ .

الإمام السجاد (ع) يقول : إذا ماتت الدنيا وبقيت مع القرآن ، فلن أخشى شيئاً ، بمعنى لن أخشىٰ أحداً ما دمت مع القرآن . هذهِ الآية الشريفة تصف القرآن بما يلي :

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ أولئك الذين درسوا الأدب وهم موجودون الآن في مجلسنا يعلمون بأن كلمة « علم » قد جاءت بصورة نكرة ، وتدلّ على القلّة وتنوينها تنوين التنكير ، ويدل على القلة ، حيث يصبح معناها هكذا : ذلك الذي (أي آصف بن برخيا) كان لديه علم قليل من القرآن استطاع أن يقوم بهذا العمل . يقول الإمام الصادق (ع) :

« علم آصف بن برخيا » بالنسبة إلى القرآن وبالنسبة لنا كان كقطرةٍ في البحر . وحسب رواية الإمام الصادق (ع) وحسب القرآن وبالذات ، كانت لديه قطرة من علم القرآن وتمكن أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمح البصر . هذا علم . لذلك قلت : لا تظنوا بأن جابر الجعفي من خرافات التاريخ ، كلا ، إن له جذور قرآنية ، إذا امتطىٰ الإنسان البراق كما امتطاهُ النبي (ص) ، وذهب حيث كان جبرائيل الذي قال :

« **لو دنوتُ أنملةً لاحترقت** » بمعنى اذهب أنت ، فلا مكان لي هناك ، ولو اقتربت قيد أنمله لاحترقت ، وكما امتطى النبي (ص) البراق ، وذهب إلى ذلك المكان الذي لا نعرف أين هو ، الإنسان أيضاً هكذا هو سياقهُ التكاملي ، ليس فقط يستطيع أن يسخّر الفضاء وعالم المادة بل بإمكانه أن يُسخّر عالم الملكوت ، ليس فقط عالم الملكوت بل يمكنه أن يصل إلى مكان يجد فيه ربه ، كما يجد الإنسان الظامىء العطش . أنتم عندما تشعرون بالعطش كيف تشعرون بهِ ، مرةً قد يصل الأمر إلى أن يسمونه بعالم الفناء ، يقولون عالم القرب ، عالم اللقاء ، لقد تحدث في واحد وعشرين موضعاً حول عالم اللقاء وأساساً هذهِ هي الغاية من خلق الإنسان .

لو استطاع الإنسان أن يسيطر على هذا البعد المادي والبهيمي ، وأن يتغلب البعدُ المعنوي على البعد المادي يستطيع أن يصل إلى أي مكان يشاء . من العبث أن يقول إنسان ما ، لا أستطيع ، إذا لم يستطع فإنه لا يريد الحركة باتّجاه التكامل ، إذا أراد الإنسان كل شيء فذلك ممكن ، ويستطيع الإنسان أن يحققه

وهذا هو معنى الآيةِ الشريفة :

﴿ إنّا عرضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جهولاً ﴾[1] .

إلا أن هذا الإنسان الذي قَبِل الأمانة ، يمارس الظلم والجهل بحق نفسهِ . القرآن يقول : **﴿ ظلوماً جهولاً ﴾** مستعملاً صيغة المبالغة ، وهذهِ الحقيقة إذ أن الإنسان يمارس الظلم والجهل بحَق نفسهِ بصورة مستمرة . الإنسان يجهل نفسه وهذا هو مصدر كافة متاعبنا الراهنة . الغرب والشرق ، الحضارة والعلم لم يعرفوا الإنسان ، ولأنهم لم يعرفوه نرى كافة النظريات التي قدمها فلاسفة الغرب ولا سيما علماء الأخلاق تفتقر إلى معرفة الإنسان . كتاب « أسلوب البحث عن الأصدقاء » يتحدث حول الأخلاق ، أخلاق الغربيين ماذا يفعل الكاتب في كافة أجزاء الكتاب الذي طبعت ملايين النسخ منه وهو كتاب جيد إنهُ يقول : إذا كنت خلوقاً ستجذب المزيد من الزبائن . يضرب عدداً من الأمثلة للبائعين . . . إذا كنت بشوشاً ودمث الخلق ستكون محبوباً . يضرب بعض الأمثلة للمعلمين ، وبعض الأمثلة لمديري المعامل . وحتى نهاية الكتاب يفترض الكاتب الإنسان كحيوان آحادي الأبعاد ، الكل يحسبون الإنسان آحادي الأبعاد ، يتصورون أنه لا يفهم إلا أن مصدر كافة المتاعب يكمن في عدم معرفتهم وجود ودور الإنسان . مهندس ألماني أراد أن يزن قيمة الإنسان وبعد المحاسبة توصل إلى قيمةٍ هي عشرون ماركاً (٨٠) تومانـاً لماذا ؟ يضيف المهندس الألماني : الإنسان يملك ٤ كيلو من الكلس وكان قد قدر ذلك من الناحية الفيزيائية والكيماوية ، وكذلك (٥) كيلو حديد ، ٣ كيلو سكر و . . . إذن سعر الإنسان الواحد (٨٠) تومان حين قرأت هذهِ الجملة سخرْتُ من هذا المنطق الهزيل .

أمير المؤمنين (ع) يؤكد في أحد الروايات نفس هذا الموضوع .

« من كان همهُ بطنه فقيمتهُ ما يخرج منها » .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

إذا أراد الإنسان أن يصبّ جلّ اهتمامهُ على بطنه ، فليسَ له أية قيمة إطلاقاً ، قيمتهُ ما يخرج من بطنه . حقاً إن الإنسان لجهول ، بمعنى أنه لم يعرف نفسه ، عالم اليوم لا يعرف الإنسان ، نحن لم نعرف أنفسنا لذلك ننسج كدودة القز حول أنفسنا حتى نكاد نختنق ، ليل نهار من أجل البطن ، من أجل حب الدنيا ، والرئاسة ، لا نمضي فقط بل نذنب أيضاً من أجل ذلك .

يُعتبر هذا الشخص كدودةٍ تتخبط في المزبلة كما تؤكد ذلك الروايات . هذهِ هي قيمة الإنسان الذي يفكر في بطنه ويَهتم الجانب المادي ، الإنسان الذي لا يعلم إلى أي مدى يمكنه أن يصل ، الذي لا يعلم أنه قد يصل إلى مرحلةٍ يقول له جبرائيل : أنا خادمك ، الإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى القرب الإلهي ، يهوي إلى القعر بسبب حب الدنيا والذنوب . نقرأ في الروايات : إن البعض في يوم القيامة لديهم منازل وغرف من اللؤلؤ ، لا أعلم ماذا تعني ؟ ثم يقول : « **فأنظر إليهن سبعين مرة وأكلمهم ، من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت** » .

إني أتكلم ومن ضمن كلامي أقول : دع أهل الجنة مع أطعمة الجنة وحور العين ، ولكن ليكن طعامكم كلامي ولذّتكم التّحدث معي . هذهِ الأمور تحتاج إلى ذوق أرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بالمعشوق ، هذهِ ذروة اللذة . لا يمكنه أن يتذوق لذة أخرى . الأكل والشرب لا قيمة لهما بالنسبة له والأرقىٰ من ذلك حديث العاشق مع المعشوق ، والأرقىٰ من ذلك أن يتحدث المعشوق إلى العاشق ، هذهِ اللذة التي يحظىٰ بها العاشق من المعشوق لذة معنوية ، بمعنى أنه مستعد أن يتخلىٰ عن اللذة المادية ، وما هو حيواني ، وكذلك كل ما في الدنيا ، من أجل أن يقول لمعشوقه : أحبك .

هذا ما يقوله القرآن : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي** ﴾[1] . يا من تمكنت من أن تسيطر على نفسك وجانبك الحيواني ، يا من وجدت جانبك الناسوتي وضالتك ونفسك المطمئنة ، تعال ، تعال ، إلى أين ؟ ﴿ **ارجعي إلى ربك** ﴾[2] تعال ، تعال ، تعال نحوي . لا يقول : نحو الجنة ، لأن الجنة

---

(١) سورة الفجر ، الآيتان : ٢٧ و ٢٨ (٢) سورة الفجر آية : ٢٨

لا تساوي شيئاً للإنسان ، الإنسان خُلِقَ للذهاب إلى الجنة ، خُلق ليتخلى عن الدنيا والجنة من أجل معشوقه : ﴿ إرجعي إلى ربّكِ راضيةً مرضيةً ﴾[1] . المعشوق الحقيقي يقول : أيها العبد ، أنا راضٍ عنك ، أحبك ، أنا راضٍ عنك .

هذا الإنسان من وجهة نظر القرآن الكريم إنسان راقٍ جداً .

ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أنه انجرف نحو السقوط وتم تركيب بعدهُ المعنوي حيث تغلب البعد الناسوتي ، حينها يهيمن البعد الحيواني ويمتطي الروح ، مثل معاوية الذي امتطى عقله . العقل يعمل لحسابه ، والروح تعمل لحسابه ، إنه يتحرك أيضاً ولكن أيّةُ حركة ؟ حركة نزولية ، لا يمكن للإنسان أن لا يتحرك ولا يتكامل ، ولكن أي تكامل ؟ هنالك حرب دائمة تدور رحاها بين الروح والجسم ، ذلك هو الجهاد الأكبر . الإنسان في حركة مستمرة ، تارةً حركة صعودية يصل فيها إلى الله : ﴿ إرجعي إلى ربك ﴾ وأخرى حركة نزولية ، القرآن يقول إن الإنسان في الحالة الأخيرة يصبح أرذل من أي ميكروب :

﴿ إن شرّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون ﴾[2] .

أرذل من أي ميكروب . ما مدى الضرر الذي يلحقه ميكروب السرطان بالمجتمع والفرد ؟ يصبح أدنى من ميكروب الجذام : القرآن يقول : إن الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر وقد مات الجانب المعنوي فيه وقُضي عليه ، فإن مضارّه لنفسهِ وللمجتمع أكثر من ميكروب السرطان .

أيهما يلحق ضرراً أكبر بالعراق ميكروب الكوليرا أم صدام ؟ إذا هيمنت إحدى الغرائز على الإنسان ، فهذا هو الإنسان لا شيء يسدّ نهمه ، وإذا تورّط في الجريمة يصل إلى ما وصل إليه الحجاج بن يوسف الثقفي عندما حان وقت الغداء يأتي بأحد شيعة علي (ع) ويقطع رأسه ثم يتركه ينازع الموت ويرفس

---

(١) سورة الفجر ، آية : ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

برجليه . كان يتلذذ برؤية هذا المنظر البشع ، كان يؤكدُ ما مضمونه : إني أستلذ حين أقتل أحد شيعة علي . شخصٌ كهذا لديه حركة ، ولكن إلى أين ؟ القرآن يقول : إلى جهنم .

هناك رواية عن النبي الأكرم (ص) مفادها : أن النبي (ص) كان جالساً مع جبرائيل فسمعا صوتاً مدوياً ، هذا الصوت يسمعهُ جبرائيل والنبي . فسأل النبي (ص) : ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت صخرة ألقيت منذ سبعين سنة في أحد آبار جهنم ووصلت توّاً إلى قعر البئر .

لقد فسّر لنا أستاذنا الكبير قائد الثورة العظيم (قدس سره) في بحثهِ الأخلاقي هذهِ الرواية ، إذ قال : معنى ذلك أن الذي يأتي إلى هذهِ الدنيا ، وبدلاً من أن ينتهج حركة صعودية ، ينتهج طريق جهنم ويتقدم ، وبدلاً من أن يقوّي يوماً بعد يوم علاقته مع الله يقوم بتوثيق علاقتهُ مع الشيطان ، وبدل أن يقوّي الروح ، تتقوّى رغباته وغرائزه ، فاعلموا أن أيّاً من هذهِ الرغبات التي تقدمتم بها تستشري يوماً بعد يوم ، وشخصاً كهذا قد انتهج طريق جهنم ، وهو ميتٌ الآن وبعد مرور سبعين سنة وصل إلى قعر جهنم .

هنالك حديث شائع يقول : إن أحداً وقع من الأعلى إلى الأسفل ، فرأوه في المنام ، وسألوه كيف حالك يا سيد ؟ قال : يكفي أن أقول إن كل ما يقوله الروحانيون حول مجيء النكير والمنكر ، في ليلة القبر الأولى كذب في كذب ، فأنا عندما سقطت من الأعلى ، وقعت في وسط جهنم مباشرة ، لقد كان صادقاً في كلامه ، لأنه لا منكر ولا نكير لهؤلاء ، ويذهبون إلى وسط جهنم مباشرة . الرواية تعني نفس الشيء ، لقد فسّرها قائد الثورة العظيم تفسيراً حسناً .

حركته النزولية إلى وسط جهنم ﴿ إليه الرجعىٰ ﴾ ذلك يسير باتجاه الله ، وهذا يتجه نحو جهنم ، ذلك يصل إلى الجنة والآخر إلى جهنم ، أما الفرق فهو أنَّ : الذي يصل إلى جهنم ستكون حركته حركة ختامية وكَمالُهُ سيكون الاحتراق ، ولكن ذلك الذي كانت حركته السير في ذات الباري عزّ وجلّ فإن لذتهُ لذة العاشق من المعشوق ، لذة العبد من المولى ، ولا يصل إلى نهاية لذلك أدعوكم إلى معرفة النفس .

أمير المؤمنين يقول : « **كفىٰ بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره** »[1] ونحن لا نعرف أنفسنا .

الراوي يقول : كنت في خدمة أمير المؤمنين (ع) عندما كان يحفر قناتاً وسط النخيل . فخرج من القناة ظهراً ، وصلىٰ صلاة الظهر والعصر ، ثم قال : هل هنالك طعام للأكل ؟ قلت : لدينا قرع مطبوخ . قال : هاتهِ . يقول : جئت بقدرٍ من القرع المطبوخ لعلي (ع) فغسل يديه الكريمة من ماء كان يخرج من بين الرمل وبدأ بالأكل ، كان يناجي نفسه وأحياناً يقول : لعنه الله على من دخل جهنم بسبب البطن . حقاً لتكن لعنة الله على شخصٍ كهذا ، وكذلك لعنة الله على كل من يستغيب الناس حسداً وطلباً للجاه ويمارس القذف والنميمة ، ويصبح جهنمياً ، ولعنة الله على من يذهب إلى جهنم بسبب البطن . ثم يقول : تناول طعام الغداء ثم ذهب إلى القناة وقام بالحفر بالمعول فأصاب بمعولهِ صخرةً ففار الماء بحيث غمر الماء العكر محاسن أمير المؤمنين (ع) ولم يستطع الاستمرار في العمل . فخرج من القناة أمّا الأطفال والأقارب فجاءوا لرؤية علي (ع) ليشاهدوا الماء الوفير ويبدو أنهم فرحوا بذلك كثيراً .

وفي الوقت الذي لم يكن علي (ع) قد خرج بعد من القناة ، كانت إحدى قدميه على حافة القناة ، والقدم الأخرى على الحافة الأخرى ، قال : أعطوني قلماً ودواةً . لقد كان عمله طيلة السنوات الخامسة والعشرين إنه أوقف أربعاً وعشرين نبعاً وقناةً ومزرعة للفقراء والضعفاء والمساكين . يقول في تلك القناة ، كتب كتاب الوقف ، ثم قال : يا أولادي ، ويا أقربائي ، لا تطمعوا في هذهِ القناة ، إنها ملك للفقراء والمساكين . ماذا تقول لنا هذهِ الجملة ؟ عليٌّ إنسان ، لم تكن لذته مرتبطةً بوجود القرع المطبوخ أو فقدانه فهي لذة حيوانية .

لذةُ مولانا أمير المؤمنين (ع) هي أن يتمكن من حفر قناة ويعثر على ماء ليزرع النخيل للفقراء والمعوزين . إن هذهِ هي لذة علي (ع) ، وهذهِ هي الإنسانية . الإنسان هو الذي تكون لذته معنوية أن يستلذ بالعثور على العلم وطلب العلم ، والبحث عن الحقيقة والإيثار والتضحية ، أن يسعد لسعادة رفيقه

---

(١) نهج البلاغة ، طبع مصر ، المجلد (١) ، ص ٥٦ .

ويحزن لحزنه ، هذا الشخص يُسمىٰ إنساناً . قد يكون لدينا ما يربو على خمسين رواية عن الإمام (ع) يقول فيها : أحِب ما تحب لنفسك وما لا ترغب فيه لا تُرغبهُ للآخرين وإلا فلست بمسلم .

أيها السادة الكرام ، وأيتها الأخوات الفاضلات لو اقتديتم من الآن بهذهِ الرواية ، فستصلح جميع الأمور . هل تحبّذون أن يستغيبكم أحد ؟ كلا . إذن لا تستغيبوا مسلماً . أنتم الذين لا ترغبون أن ينظر أحد نظرة شهوانية إلى أعراضكم ، فلا تنظروا بها لأعراض الآخرين . أنتم الذين لا تريدون أن يقذفكم أحد ويريق ماء وجهكم ، فإذا كنتم حقاً مسلمين فلا تقفذوا أحداً . أنتم تريدون أن ينجدكم أحد عند الحاجة ؟ نعم . إذن يجب أن تفكروا بالمعوزين . أتريد أن يحترمك الناس ، وأن لا يهاجمونك ؟ إذن عليك دائماً أن تحترم شخصية الآخرين . هذا هو المسلم . تعالوا نقتدي بهذهِ الرواية منذ الآن وخلاصة البحث هي : أنا إنسان ، لدي جانب ملكوتي ، أصل به إلى أي مكان أريده ، أستطيع أن أصل إلى مرحلة أرفض الدنيا وزخارفها حين أواجه الذنوب ، إذن من الأحرىٰ أن يعمر بُعدي الملكوتي . هنالك حرب بلا هوادة بين البعد الملكوتي والمادي ، كل واحد يريد أن يصرع الآخر . تعالوا نترك الذنوب في حياتنا . لتكن هذهِ الرواية قدوتكم في الحياة ، لكي تكونوا منتصرين دائماً في هذهِ المنازلة التي سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » . إن لم نكن هكذا ، فالذنوب أحسن غذاء وقوة للبعد المادي .

الذنب يمكنه أن يزيل إنسانية الإنسان ، إذن الذنب يجعل الإنسان أرذل من أي حيوان ، يغطي العقل ويحجب القلب والوجدان الأخلاقي ، وأخيراً فإن الذنب يولد الفظاظة للإنسان ويقتل الوجدان الأخلاقي ويصل إلى مدى يقول القرآن عنه : ﴿ أولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ ﴾[1] أولئك ليسوا بشراً ، إنهم حيوانات بل أدنى من الحيوان . البحث لم يكتمل بعد ، أرجو أن :

١ ـ تتمعنوا في هذا الكلام ، إذا كان لديكم انتقاد أو أي شيء آخر فسنتحدث حوله لاحقاً إن شاء الله لذلك راجعوا أنفسكم في كل ما تحدثنا عنه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

٢ ـ إذا تقرّر أن تشاركوا في الجلسات عليكم بنظم أموركم لأنكم أنتم العاملون في مجال التربية والتعليم يجب أن تجسّدوا النظام أمام الآخرين .

البحث الرابع

الإنسان الملكوتي

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إتماماً للحديث السابق الذي قلت فيه أن الإنسان مركبٌ من الروح والجسم . وبعبارة أخرى الإنسان له بعدان : بعد ملكوتي ومعنوي يسمىٰ الروح وجانب ناسوتي ، وبهيمي يسمىٰ الجسم والذي يسمّونه أيضاً الرغبات والغرائز ، كما أننا نسمي ذلك البعد المعنوي علاوة على اسم الروح نسميه العقل . وقد سمي أيضاً في القرآن الكريم القلب والصدر ، وجميع هذهِ التسميات تشير إلى ذلك البعد المعنوي للإنسان .

الأمر الذي يجب أن أنوّه لهُ وننتبه إليه هو الحرب التي تدور بلا هوادة في داخلنا ، هذهِ الحرب سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » .

لدينا روايات كثيرة ، تقول بأن هذهِ الجبهة أصعب الجبهات ، وهذهِ الحرب أهم الحروب ، والشجاع من استطاع أنّ يحفظ توازنه فيها .

الروايات حول هذا الأمر مختلفة ، على سبيل المثال رواية تقول : إن شاباً كان قد عاد توّاً من جبهة الحرب . لم يكن قد ذهب إلى بيته وكان غبار الجبهة على وجهه . فمرّ من جانب النبي (ص) وهو يمتشق سيفه المُدمّىٰ . قال النبي (ص) : يا شاب بارك الله فيك وفي جهادك في سبيل الله ، ولكن « **عليك بالجهاد الأكبر** » فقال : يا رسول الله وأي جهادٍ أكبر من هذا الجهاد ؟ (إنه عائد

من جبهة الحرب) ، قال : الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمارة . جهاد الروح مع الجسد ، جهاد البعد المعنوي ضد البعد البهيمي ، ولدينا رواية أيضاً أن شباباً كانوا يتبارون في القوة وكانت هناك صخرةً كبيرةً أرادوا رفعها ، فوصل النبي الأكرم (ص) وشجعهم ، قائلاً : بارك الله فيكم ، إنها مباراة ورياضة ، ولكن « **أشجع الناس من غلب هواه** »[1] ليس الشجاع مَنْ تمكن مِن رفع صخرة حتى نقول إنه أشجع من الآخرين . أجل ، نسميهِ شجاعاً ، ولكن الأشجع من الجميع ، من تغلب على هواه وشهواتهِ وبُعدهِ البهيمي .

المهم هناك قضايا كثيرة في الإسلام مشابهة للقضيتين اللتين ذكرتهما وشعار الإسلام هو : « **أشجع الناس من غلب هواه** »[2] إذا تغلب البعد المعنوي لدى شخص ما على بعده المادي في ساحة الحرب ، هذا أشجع الناس وهذا ما يصعب تحقيقه .

التذكير المفيد لكم ، يا أعزائي هو أن هذهِ الحرب دائمية ، أحياناً يكون الجسم هو الغالب والبعد المعنوي مغلوب فيها ذنبٌ يطغىٰ على البعد المعنوي ويشلّ تحركه ، لأن البعد المعنوي يصبح مقهوراً بسبب الذنب . أحياناً يحصل العكس ، يدوس المرء على الذنب ونفسهِ الأمارة ، فيجتنب الذنب ويتغلب البعد المعنوي ، ويصرع البعد المادي ويتغلب عليه . الأمر الجدير بالعناية أنه إذا خرج بعدنا المعنوي من ساحة الحرب ، فنحن مرفوعي الرأس ، كشاب تقدم من جبهة الحرب وأحرز نصراً ، ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أن يخرج البعد المادي منتصراً فإن الإنسان يطرق برأسهِ خجلاً كمن قد شارك في حرب وخرج منهزماً منها . لكن هنا يختلف الأمر ، بمعنى أنه عندما يأتي الذنب ونتغلب نحن على النفس الأمارة ونصرع البعد الحيواني أرضاً ، فإننا صرعنا أنفسنا ، لأننا نتكوّن من جسمٍ وروح . من هنا علينا أن ندرك أن حقيقة الإنسان تكمنُ في بعدهِ المعنوي وليس المادي إنسانية الإنسان تتحقق بروحهِ ووجدانه الأخلاقي وعقله . الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر ، الإنسان الذي ليس لديه وجدان أخلاقي ، وأطفأ ومضات وجدانه ، ليس إنساناً أساساً ، ومن وجهة

---

(١) و (٢) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٦٨٩ .

القرآن أيضاً لا يعتبر إنساناً . القرآن يقول :

﴿ إنَّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ ﴾[1] .

بمعنىٰ أن عاقبة بعض الناس تؤول إلى جهنم ، كأنهم اتخذوا طريق جهنم ويتقدمون باتجاهه . لماذا ؟ إن هؤلاء لديهم قلب بمعنى لديهم البعد المعنوي ولكنه مقهور ، أبادوه ، ولم يعودوا يفهمون ، لديهم عين المعنوية والبصيرة ، ولكنهم فقأوا عين البصيرة بواسطة الذنوب ، بمعنى أن البعد المعنوي هُزم في الجهاد الأكبر ، لم يعد لديه إذن يسمع بها أو عين البصيرة يعقلُ بها . يقول : **﴿ أولئك كالأنعام ﴾** لم يعد إنساناً **﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾** لذلك من الواجب أن تكون هذهِ النقطة حاضرة في أفكاركم ومن هنا تتضح أحد أدلّة الوجود والتجرد ، إلى الآن وصلنا إلى هذهِ النقطة بأن الإنسان يتكون من البعد المعنوي والملكوتي ، والبعد البهيمي والناسوتي ، بمعنى أن لديه جانب حيواني يسمىٰ بالرغبات والغرائز ، وجانب معنوي يسمىٰ العقل والروح وهذان الجانبان في نزاع مستمر ، وإذا تغلب جانبنا المعنوي والروحي ، فنحن مرفوعي الرأس ، مع أننا لم نصرع أحداً ، بل صرعنا أنفسنا ، ولكننا مرفوعي الرأس ، وإذا حصل العكس ، بمعنى إذا صرع الجانب المادي الجانب المعنوي ، فنحن سنكون مطأطيء الرأس ، خجلين مع أن أحداً لم يهزمنا بل نحن الذين هزمنا ذلك الجانب . إذن إنسانيتنا في بعدنا الملكوتي .

الإنسان هو المسؤولُ عن تكوين وجدانٍ أخلاقي ، وتسامح وحبٍّ للآخرين وتفانٍ من أجلهم . إذا سمع استغاثة مظلوم ، يحزن ويبكي ، ويأرق ، وكما تقول الروايات : الإنسان هو من يفرح إذا أعان مسكيناً ، وأن يكون بنيان حياتهِ قائماً على حب الآخرين وليس حب الذات ورحم الله الشاعر سعدي حين يقول :

جسم الإنسان شريف بروحهِ الإنسانية
ليس هذا الثوب الجميل علامة الإنسانية

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢

إذا كان الإنسان إنساناً بعينه ولسانهِ وأذنه وأنفهِ

فما الفرق بين الرسم على الحائط وبين الإنسانية

ليت سعدي أخذ ذلك المعنىٰ من القرآن وقال : ما الفرق بين الإنسان والبهائم ؟ .

هكذا يقول القرآن ، إذا لم يكن للإنسان بُعدٌ ملكوتي ، إذا لم يكن للإنسان أخلاق إنسانية ، وإذا لم يهتم بواجباتهِ ، ولم يأبه لارتكاب المعاصي ، فما الفرق بينه وبين البهيمة ؟ القوا مقداراً من الكلأ أمام حمارين ، من المعلوم أن الحمار الأقوى سوف يتغلب ، ويأكل الكلأ ، هذا يسمونه قاعدة هيمنة القوي على الضعيف . إذا أصبح الإنسان هكذا : (دنيانا اليوم هكذا ، بمعنى أن قاعدة هيمنة القوي على الضعيف سائدة حالياً) . فما الفرق بين الحمار والإنسان ؟ .

عندما تقومون بعمل يرتضيه الله ويرتضيه العقل ، تشعرون بالفخر والاعتزاز ، وعندما تَقومُونَ بعمل لا يرتضيه الله والعقل ، تشعرون بأنكم مطأطيء الرأس ، من هنا ندرك أن إنسانية الإنسان بعقلهِ وروحه وجانبهِ الملكوتي إذا كنا بشراً ، علينا دائماً بتقويةِ جانبنا الملكوتي .

إذا أردنا أن نكون بشراً ماذا يجب أن نفعل ؟ .

هذا هو عنوانُ الإثارة التي سنبحثها . ماذا يجب أن نفعل ، لكي نحقق النصر في المعركة بين الحق والباطل ، في المعركة بين الجانب الناسوتي والجانب المعنوي في هذا الجهاد الذي قلنا : إن النبي (ص) أسماهُ الجهاد الأكبر ؟ القوةُ يجب أن تأتي دائماً من الخارج ، إذا لم تأتِ القوة من الخارج فنحن مهزومون والسبب واضح ، لأن الجانب المادي يكون عاصفاً دائماً كما أن جيشه لا يعد ولا يحصى كغريزة حب المال ، وغريزة حب الحياة ، وغريزة حب الأولاد ، غرائز الصفات الدنيئة ، كالحقد والحسد ، وكذلك قانون الوراثة ، وقانون البيئة ، وقانون التغذية . كل هذهِ في جانب ، والجانب المعنوي فقط في الطرف الآخر ، وإذا أردتُ أن أضرب مثلاً ، فإن الحرب في داخلنا تشبه الحرب الراهنة في الخارج .

إنكم ضعفاء جداً من حيث العدة والعدد ، فكيف تنتصرون ؟ هذا هو بحثنا ماذا يجب أن نفعل ؟ لنفترض أن الجانب المادي والجانب البهيمي فينا قوي جداً من الناحية التسليحية وأن الجانب الملكوتي فينا ضعيف جداً ، ماذا يجب أن نفعل لتقويتهِ ؟ طبعاً قوة الخارج ضرورية ، فما هي هذهِ القوة ؟ .

١ ــ الاهتمام بالواجبات :

أن يهتم الإنسان بالواجبات ، القرآن الكريم يقول :

﴿ واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وأنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾[١] .

بمعنىٰ أن تستعينوا بالله في معركة الحق ضد الباطل ، معركة الروح ضد الجسم ، هو يجب أن يُعينكم ، بأي شيء ؟ الصلاة **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾** إذا اهتم الشخص بواجباته ، عندما يحين موعد أداء الواجب يحدث صراع في داخله إلى أن يقوم بأداء ذلك الواجب ، هذا الصراع والقدرة الناجمة عنه تساعد المرء على تأدية واجباته .

القوة الخارجية تساعد ذلك البعد المعنوي ، ويمكن بواسطتها أن تتغلب القوةُ على الجسم ، بمعنىٰ عندما تحدث زوبعة تستطيع القوة الخارجية أن تقف في وجهها ، وأن تسيطر عليها وتروضها ، لذلك فقد أثبتت التجارب كما أكّدت الآيات القرآنية ، وروايات أهل البيت ، إننا إذا أردنا أن نصبح بشراً ، وإذا أردنا أن ننتصر في هذهِ المعركة التي قال عنها الرسول (ص) : « إنها أعظم المعارك » ، علينا الاهتمام بالواجبات وبالصلاة خاصةً ، أنا لا أعلم ما هذهِ الصلاة ؟ . كم هي قوة جبارة ، وكم هي مفيدة للإنسان بحيث تم التأكيد عليها إلى هذا الحد لذلك ينبغي عليكم أن تؤكدوا على قيمةِ الصلاة لشبابِكمُ .

فخر الرازي مُفسر ، وعالم سني ، عنده كتاب في التفسير ، وهو تفسير جيد ينقل جمله على هامش سورة : **﴿ والعصرِ ، إنَّ الإنسانَ لفي خسرٍ ﴾**[٢] . روايةً تبيّن الخلاف الموجود بين المفسرين حول معنى والعصر (حول تفسير

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة العصر ، الآيتان : ١ و ٢

والعصر) كل واحد تحدث بشيء ، الاحتمالات كثيرة ، وليس ذلك ما أريد أن أبحثه الآن .

أستاذي الجليل ، قائد الثورة العظيم قال : والعصر تعني قسماً بحضرة بقية الله (عج) وكان يقول : العصر بمعنى العصارة ، وبما أن إمام الزمان عصارة الخلق ، لذلك فقد أقسم الباري عزّ وجلّ بهِ .

حسناً ، هذهِ فتوى رقيقة لمن يملك رقّةً بالغة ، ولكن هنالك معانٍ أخرى من ضمنها ، قيل : إن المقصود بالعصر هو صلاة العصر : « والعصر » تعني قسماً بصلاة العصر ، فخر الرازي يحبّذ المعنى الأخير ، ولكي يثبت ادعاءه يروي رواية والرواية كما يلي : يقول جاءت امرأة ، وهي تولول وتصيح عند النبي (ص) فقالت : يا رسول الله ، ليخرج أصحابُك ، لديّ عمل معك وحدك . خرج الصحابة ، وجلست تلك المرأة عند النبي (ص) ، قالت : يا رسول الله ، ارتكبت معصية ، معصيتي كبيرة جداً ، قال النبي (ص) : رحمة الله أوسع منها ، مهما كانت المعصية كبيرة يجب أن لا يقنط المرء . مهما كانت المعصية كبيرة ، وأمدها طويل ، فلو تاب المرء وجرىٰ صراع في داخله فستغفر ذنوبه . ليس في الإسلام طريق مسدودة .

قال النبي (ص) : ما هو ذنبك ؟ قلت : يا رسول الله ، كنت امرأة متزوجة فزنيت وحَملْتُ ، وجاء الطفل إلى الدنيا فخنقته ، في زير الخل ، ثم بعت الخل النجس للناس ، معصية كبيرة جداً جداً ! من الواضح أن النبي (ص) تألم كثيراً لدى سماعهِ أقوال هذهِ المرأة ، وأصدر حكمه في هذا الأمر، الذي أقصده هو أنهُ قال : يا سيدة ، أتريدين أن أقول لك : لماذا وقعتِ في هذهِ البئر ؟ بمعنى لماذا يقع المرء أحياناً في البئر بحيث لا يمكنه الخروج منها ، ولو تظافرت جهود العالمين جميعاً لإنقاذه لا يمكنهم ذلك . قال : أتريدين أن أقول لكِ لماذا وقعتِ في البئر ؟ أعتقد أنك لا تصلين ، ولذلك قطعت علاقتكِ مع الله ، ولأنكِ فقدتِ يد الرعاية الإلهية ، لذلك وقعتِ في بئر التهلكة ! « **إنني ظننت أنك تركت صلاة العصر** »[1] .

---

(١) تفسير فخر الرازي ، المجلد ٣٢ ، ص ٨٥ .

ماذا تقول لنا هذهِ الرواية ؟ هذهِ الرواية فيها جانب إيجابي وآخر سلبي . الجانب السلبي يقول لنا : إذا لم تهتم امرأة أو لم يهتم رجل بالصلاة ، يقع في البئر ، ويصبح بائساً وقد يراق ماء وجهه الذي حصل عليه طيلة خمسين عاماً ، وماء وجه أسرته قد يراق نهائياً ، هذا الجانب السلبي ، الإنسان الذي لا يصلّي ، الإنسان الذي لا يهتم بالصلاة ـ تقول لنا الرواية ـ سيواجه متاعب جمّة . هذا في الدنيا ، ناهيك عن الآخرة . تلك الدار التي ليس فيها مفرٌّ للمذنبين .

أما الجانب الإيجابي وهذا هو بحثنا ، هذهِ الرواية تقول لنا : إذا اهتم المرء بالصلاة ، فإن الصلاة ستبعث قوة خارجية بعقلهِ وروحه ، وسينتصر البعد المعنوي ، ويمكنه أن يسقط البعد المادي أرضاً والقرآن يشيرُ إلى هذهِ الحقيقة : ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ استعينوا ، بأي شيء ؟ بمعنىٰ أن في داخلك حرب ، تحتاج إلى عساكر ، عليك أن ترسل العسكر والسلاح ، السلاح الخارجي هو الاهتمام بالواجبات خاصةً بالصلاة .

لا أعلم هل تمعّنتم في هذهِ السورة القصيرة ، ذات المعنى الكبير والبليغ ؟ سورة الماعون قصيرة جداً ولكنها بليغة وكبيرة المعنى :

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، أرأيتَ الذي يكذّب بالدينِ ، فذلك الذي يدعُ اليتيمَ ، ولا يحضُّ على طعامِ المسكينِ** ﴾[1] .

بمعنى ، يا أيها النبي هل تريد أن أريك مسلماً ليس بمسلم ، بمعنى هل تريد أن أريك من يتظاهر بالإسلام ؟ ثم يُرينا أربعة أوجهٍ مختلفةٍ :

١ ـ ذلك الشعب الذي يوجد بينه طفل يتيم ، ولا يأبه ذلك إذا كان في قبيلة أو مدينة أو شعب ، طفل يتيم ، ينبغي أن يصبح جميع الآباء أباً له ، وجميع الأمهات أمّا له ، لكي لا تظهر عليهِ عقدةُ اليتم . لا سامح الله أن تكبر عقدة في شخصٍ ما ، لقد درست معظم هذهِ المدارس الشاذة ، وأدركت أنها تكون من مدرسة الصهيونية عادةً وأن أفرادها معقدين ، مدرسة فرويد ، ونيتشه

---

(١) سورة الماعون ، الآيات : ١ ـ ٣ .

وماركس ، ودوركهايم وغيرها، لقد قمت بدراسات موسعة حولها ورأيت أنها تَنبعُ من الصهيونية ، هذا من النا-حية الجماعية ، ومن الناحية الفردية ، فإن ماركس إنسان مُعقَّدٌ بكل معنى الكلمة ، من هُنا ينبغي على المسلمين أن يَدعوا الأطفال اليتامى ، ويدركوا حقيقة دورهم في المجتمع ، كما ينبغي على الآباء والأمهات أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم تجاه هؤلاء الأيتام .

٢ ـ ﴿ **ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ بمعنى يا أيها النبي إن الذين يتظاهرون بالإسلام هم الذين لا يعتنون بالفقراء في حين أنهم يستطيعون العناية بالفقراء والمساكين ، هل هؤلاء مسلمون ؟ .

٣ ـ ثم يقول حول الفرقة الثالثة : ﴿ **فويل للمصلّين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[١] بمعنى يا أيها النبي هل تريد أن أريك شخصاً يتظاهر بالإسلام ، ويلٌ لهذا المتظاهر بالإسلام ، والذي يَسهُو عن الصلاة ، إنه يُصلّي ولكنه يتماهل ، بمعنى أنه لا يقيم الصلاة في وقتها .

سئل الإمام الصادق (ع) ما معنى السهو في الصلاة ؟ قال : معناها أن يُقدِّمَ المرءُ عملَ دنياهُ على عملِ آخرته . يتغدى أو يتعشى أولاً ثم يقيم الصلاة ، الصلاة ثقيلة بالنسبة له ، حيث يقول القرآن : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[٢] بمعنى أننا أحياناً نكون مستعدين للوقوف ساعة أو ساعتين نتحدث مع بعضنا البعض ولا نشعر بالتعب ، بل نشعر بالبهجة ولكننا عندما يحين وقت الصلاة نشعر بالتعب والإرهاق ولا نطيق الصلاة ، الصلاة التي لو أقمناها بصورة لائقة فإنها لا تتجاوز الربع ساعة نريد إتمامها في خلال خمسة دقائق لذلك نرى البعض يجلس من أول المساء إلى ساعة متأخرة ولا يشعر بشيء ، ولكن عندما يصل إلى الصلاة ، يتقاعس ! هذا واضح ، لأن في الصلاة جانبٌ معنوي ، وذلك البعد البهيمي يتربص بنا لكي ينسينا الصلاة ، إذ عندما يحين وقت الصلاة نتمنى أن تغدو الربع ساعة خمس دقائق ، لماذا نحن هكذا ؟ .

---

(١) سورة الماعون ، الآيتان : ٤ و ٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

القرآن يقول : لست بمسلم ، لست بمسلم وويلٌ لك ! .

٤ ـ ويقول للنبي (ص) مرة أخرى : ويلٌ للمتظاهر بالإسلام ، والإنسان المنافق ذو وجهين : ﴿ **الذينَ هم يراؤون ويمنعونَ الماعون** ﴾[1] الفئة الخامسة من المتظاهرين بالإسلام (ويلٌ للمتظاهر بالإسلام) ذلك الشخص الذي يستطيع أن يقضي حاجة الناس ، لكنه لا يقضيها ، إنه يستطيع قضاء حاجة أحد الناس بقلمهِ أو بقدمهِ ، ولكنه يتغاضىٰ عن ذلك ، جارهُ يريد منه حاجةً يستطيع إعطاءها لهُ ولكنه لا يفعل .

الإسلام يقول : هذا ليس مسلم ، كلا ، ليس مسلم . وويل لهذا الشخص . إنها سورة بليغة حقاً ، مع أنها تبعث على الألم ولكنها قدوة وهي مفيدة لبحثنا أيضاً .

لدينا آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، ولكننا نكتفي بهذا القدر . رواية أخرى أقصّها عليكم وأختم بها بحثي :

جاء رجل عند الإمام الصادق (ع) واستخاره في أمرٍ ، فكانت الاستخارة سيئة . فلم يأخذ بالاستخارة ، وذهب للتجارة وقضىٰ أوقاتاً طيبة وبالإضافة إلى ذلك حصل على أرباح كبيرة ، فتعجّب كثيراً ، لقد استخرت عند الإمام ، وكانت الاستخارة سيئة ، وقضيت أوقات طيبة في السفر ، وحصلت على ربحٍ وفير ، فما معنىٰ هذا ؟ .

جاء عند الإمام الصادق (ع) وقال : يا ابن رسول الله ، هل تَتذكّرْ عندما جئت عندكم قبل فترة ، واستخرت ، وكانت سيئة ، كانت تلك الاستخارة للسفر ، وذهبت للتجارة ، وكانت سفرة مربحة قضيت خلالها أوقات طيبة .

فابتسم الإمام الصادق (ع) وقال : هل تتذكر في ذلك البيت كنت متعباً . فأقمت صلاة المغرب والعشاء ، وتعشيت ونمت . ثم نهضت من النوم في وقتٍ كانت الشمس قد أشرقت وأصبحت صلاتك قضاء ؟ (طبعاً لم يكن مذنباً لأنه لم يشأ أن تصبح صلاته قضاء ، ثم إنه صلىٰ قضاء) قال : هل تتذكر ؟ قال :

---

(١) سورة الماعون ، الآيتان : ٦ و ٧ .

بلى يا ابنَ رسول الله ، قال : لو كان الله قد أعطاك الدنيا وما فيها ما كنت لتعوض تلك الخسارة . لقد فقدت أشياء كثيرة ، إنك لا تعلم ماذا يجري . ما هي الصلاة ؟ إنها تصنع الإنسان ، كما تحتاج خلايا الجسم للغذاء وإذا لم تحصل على الغذاء تضعف ثم تموت ، وقد يكون الشخص شاباً ويستفيد من طاقتهِ الشابة ، ولكن الخسارة بالنسبة للجسم قائمة . عندما يحتاج جسمكم أي الجانب الناسوتي والبهيمي للغذاء ، وروحكم أيضاً تحتاج للغذاء ، فما هو غذاء روحكم ؟ الصلاة غذاء الروح . صلاة الفجر تحل مكان الفطور وصلاة الظهر تحل محل الغذاء ، وصلاة المغرب والعشاء تحل محل وجبة العشاء ، والصلاة في منتصف الليل في محل الفاكهة التي تتناولونها .

كلما أردنا أن نقوّي الروح ، بمعنى أن نسمو بإنسانيتنا ، علينا أن نهتم بجميع الواجبات وبالأخص الصلاة . لقد وُصّي بها كثيراً حتى أن بعض الروايات تذكر أن النبي قبل وفاته كان يكرر هذهِ الجملة ، ثم قضىٰ نحبه ، كان يكرر قول :

« **أمتي الصلاة وما ملكت أيمانكم** » بمعنى عليكم الاهتمام بشيئين : الأول : الصلاة ثم ما ملكت أيمانكم هنالك رواية عن الإمام الصادق (ع) أنه جمع أهلَهُ ساعة الوفاة ، فظن أهلهُ أن لديه وصيةً جديدةً . قال جملة ، ثم فارق الحياة ، الجملة الأخيرة التي قالها الإمام الصادق (ع) : « **لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة** »[1] .

أعزائي تعلمون أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى الجنة بشفاعة أهل البيت ، حتى الأنبياء .

إذا لم تكن شفاعة أهل البيت (من الناحية العلمية أيضاً) فليس هنالك مكان في الجنة ، وهذهِ الرواية تقول إذا استخف أحدٌ بالصلاة لا ينال شفاعتنا .

أرجو أن تكون هذهِ الإثارة مفيدة لي ولكم وأن تأخذوا بمفاهيمها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، بالأخص أن تطبقوا البحث الأخير للشباب

---

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ١٣٣ .

وللأطفال ، وأن تُحدِّثُوا الأطفـال كثيراً حـول الصلاة لأنكم تعلمـون أن دماغ الطفل يشبه كاميرة التصوير ، جملة واحدة من الممكن أن تؤثر على دماغه ، وأن يصبح مقيماً للصلاة طوال عمره فإن ذلك مفيد جداً بالنسبة لكم ، في كل صلاة يقيمها يكتب الله في ورقة أعمالكم ثواباً . اهتموا بهؤلاء الأطفال ما استطعتم فهؤلاء أمانة وعليكم حفظ الأمانة .

إلٰهي نقسم عليك بعزتك وجلالك ، أن تمنحنا جميعاً الصفات الإنسانية والشجاعة المعنوية والـروحانيـة والبصيرة والتـوفيق لعبادتـك وعبوديتـك وترك المعاصي والتوفيق للاهتمام بالصلاة .

إلٰهي نقسم عليـك بعزتك وجلالك أن تحفظ هذهِ الثورة ، وقائدها العظيم وحدود إيران في كنف إمام الزمان (عج) وصلّى الله على محمد وآلِ محمد .

البحث الخامس

النفس الأمارة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدةً من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إلحاقاً بموضوع السابق فقد بَيّنتُ أن في داخلنا حرباً تسمىٰ حرب الرواية الإسلامية الجهاد الأكبر ، بمعنى أن الجانب المعنوي لروحنا في صراع مستمر مع الجانب البهيمي وكما قال النبي (ص) : « **أعدىٰ عدوك نَفسُكَ التي بين جَنبيك** »[1] .

أي ليس لدينا أعدىٰ من النفس الأمارة .

المقصود بالنفس الأمارة هو البعد الحيواني للإنسان ، والذي يُسمّى أيضاً الرغبات والغرائز . الفلاسفة يسمونه الجسم ، والعرفاء يسمونه البعد البهيمي والناسوتي . هذا الصراع مستمر دائماً ، إذا استطاع الشخص أن ينتصر في هذا الصراع ، وأن يأسر العدو ، ويروّضه ويهذبه حينذاك بإمكانه أن يصل إلى أي مكان يشاء وسعادة الدنيا والآخرة مرهونة بمقدرته على ترويض غرائزه .

طبعاً يجب إشباع الغرائز ، لا يمكن قتل النفس ، قتل النفس والرهبنة والعزلة وما شابه حرامٌ في الإسلام ، بل ينبغي الاستفادة منها (كالحصان الجامح ، ينبغي لجمه وامتطاؤه . وهذا هو معنى الانتصار ، أي السيطرة على النفس الأمّارة والرغبات والغرائز) . وإذا حدث العكس ، بمعنى أن يُهزمَ في

---

(١) نهج الفصاحة ، ص ٦٦

هذهِ الحرب وتتغلب إحدى رغباتنا على بعدنا المعنوي سيكون شقاء الدنيا والآخرة من نصيبنا ، وإذا تغلبت إحدى الغرائز علينا ، وأسرت عقلنا وسيطرت عليه ، فإن عقلنا شئنا أم أبينا ، سيتبع الجانب البهيمي فينا ، وإذا حدث ذلك وكما يقول القرآن الكريم سيكون الإنسان خطراً فتاكاً على نفسه ومجتمعه :

﴿ إنّ شرّ الدوابّ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ ﴾[1] .

إذا أخذنا الجانب العام للآية الشريفة سيكون معناها كالآتي :

الإنسان أخطر من الميكروب للمجتمع ، وأخطر من السرطان عندما يُهزم عقله أو بعده المعنوي وتتغلب إحدى الغرائز أو البعد البهيمي . القرآن يقول : هذا الشخص أقذر من ميكروب السرطان بالنسبة لنفسهِ وأقذر من ميكروب الجرب ، بالنسبة لمجتمعهِ .

كما أنكم ترون الأشخاص الذين يسودهم حب الجاه والذين ترسّخت في أنفسهم إحدى الصفات الدنيئة ، أولئك الذين تمكّن منهم حب المال ، وسيطر عليهم ، إلى أي مدى يصلون وأي جرائم يرتكبون وعَلاوة على كل ذلك يسمّيهم القرآن عبدة الأصنام :

﴿ أفرأيتَ منْ اتخذ إلٰههُ هواهُ وأضلهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[2] .

القرآن يقول : إذا سيطرت الشهوات على الإنسان وتغلب البعد البهيمي عليه فسيصبح وثنياً .

الوثن يكون أحياناً صخرة أو خرافة يعبدها الإنسان، وأحياناً ماله يعبده ، وأحياناً امرأة يعبدها ، وأحياناً الشهوات . والقرآن يعتبرها أوثاناً كما نقرأ في سورة يسّ :

﴿ ألمْ أعهدْ إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة يسّ ، الآية : ٦٠ .

صراطِيَ مستقيماً فاتبعوهُ ولا تتّبعُوا السبُلَ فتفرَّقَ بكمُ عنْ سبيلهِ ﴾[1] .

لقد أنزل الرحمن جميع الكتب السماوية للبشر من أجل أن يعلموا أن السبيل إليه ، وهوسبيل النجاة والسعادة مستقيماً ولا يحتاج الإنسان في سيره إلى ربه أن يسلك غير هذا السبيل ، لأن من سلك غيره ضلّ وانحرف عن الجادة الصواب ، وبذلك سيلقى عذاباً أليماً .

فيا أيها الناس ، إنكم في هذا العالم تمتلكون سيراً وحركةً استكماليةً ، ستنتهي بكم إلى الله ، وسيكون اللقاء به وحده تعالى هذا ، فإذا كنتم ترومون السعادة ، فاسلكوا الطريق المستقيم إليه .

إن العديد من الأمم قد اهتدت إلى هذا السبيل المستقيم ، فساروا عليه ، وستسيره في المستقبل أيضاً أمم أخرى ، ولكن الأمم بشكل إجمالي تختلف في سرعة سيرها ، فالبعض منهم يتسابق في حركته صوب المحبوب تعالى فترى سرعته أكثر من سرعة غيره .

وهذا ما أطلق عليه القرآن الكريم « بالسابق » ، فقال تعالى : ﴿ والسَّابقونَ السابقونَ أُولئكَ المقرَّبونَ ﴾[2] .

وعلاوة على السابقين توجدمجموعة أخرى من البشر سلكت السبيل نفسه وهم من أطلق عليهم القرآن اسم أصحاب اليمين ﴿ وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ في سدرٍ مخضودٍ . . ﴾[3] .

إن كلمة اليمين ترجع في أصلها إلى اليمن والبركة ، ويقول الفلاسفة : إن أصحاب اليمين هم خليط ممن أسرع في سيره ، وتباطأ ؛ ولكنهم كانوا جميعاً في حركة دائبة على صراط مستقيم ، يشتركون في هدف واحد ألا وهو لقاء الله ـ تعالت أسماؤه ـ .

تقول الروايات الواصلة إلينا عن طريق أهل البيت (ع) : «إن على جهنم

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الواقعة، الآية ١٠ .

(٣) سورة الواقعة، الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

جسراً أدق من الشعر وأحدّ من السيف هو ذا الصراط » وإن « الناس يمرون على الصراط طبقات . . . فمنهم من يمر مر البرق ، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمر حبواً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً »[1] .

« والصراط المستقيم في حقيقته صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة .

فأما الصراط المستقيم الذي هو في الدنيا ، فهو ما قصر عن الغلوّ ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل .

وأما الطريق الآخر ، فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم »[2] .

وقد يقول البعض إن الصراط المستقيم له ظاهر وباطن ، فظاهره الدنيا ، وباطنه الآخرة .

ولو أردنا إدراك الصراط وفهم السير عليه إلى الجنة لوجب علينا أن ننظر إلى الحالة التي نحن عليها في هذه الدنيا .

فما كانت عليه حركتنا في هذه الدنيا الدنيّة سنرى حقيقته وواقعه يوم القيامة في الحياة الأخرى .

فمن كان سيره في الدنيا سريعاً وملكوتيّاً ، كان سيره في الآخرة سريعاً أيضاً وملكوتياً .

ومن كان سيره هنا بطيئاً ، كان سيره هناك بطيئاً أيضاً .

وإذا تعثّر الإنسان في سيره في الحياة الدنيا سيتعثر أيضاً في سيره في الحياة الآخرة فمثلما ترى الناس هنا في سيرهم مختلفين ستراهم هناك كذلك .

إن السقوط في الحياة الدنيا ، وانتخاب السبل المختلفة سيؤدي بالإنسان

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥

(٢) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩

حتماً إلى أن يسقط في الحياة الآخرة ، ولا يتمكن من سلوك الصراط المستقيم أو قد يرى متعلقاً بيد أو مستمسكاً بقدم وما إلى ذلك .

وهذا ما أخبرتنا به الروايات المتواترة ؛ قال رسول الله (ص) : « . . . والناس على الصراط فمتعلق بيد ، وتزول قدم ، ويستمسك بقدم »[1] .

وجاء أيضاً عن (ص) : « . . . ومنهم من يمضي عليه كمرِّ الريح ، ومنهم من يعطي نوراً إلى موضع قدميه ، ومنهم من يحبو حبواً ، وتأخذ النار منه بذنوب أصابها . . . »[2] .

فالسقوط هنا سقوط هناك أيضاً ، والحركة هنا حركة هناك أيضاً .

فمن كانت حركته في المسار المستقيم ، كانت حركته هناك مستقيمة أيضاً ، ومن كانت حركته هنا غير مستقيمة وغير سوية ، هوى هناك في جهنم وبئسَ المصير .

وقد جاء في تفسير قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إنَّ ربكَ لبِالمرصادِ ﴾[3] قال : « قنطرةٌ على الصراط لا يجوزها عبدٌ بمظلمة »[4] .

وجاء أيضاً في تفسير ﴿ إهدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ يقول : أدِم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا ، والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة »[5] .

وذكر الصادق في قوله تعالى : ﴿ إهدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ يقول : أرشدنا الصراط المستقيم ، أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك ، والمبلّغ إلى جنتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب »[6] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥

(٢) كنز العمال/خ ٣٩٠٣٦

(٣) سورة الفجر، الآية ١٤ .

(٤) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٦

(٥) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩ .

(٦) معاني الأخبار/ص ٢٩

وإهدنا الصراط المستقيم تعني : إلهي تلطَّف علينا ووفقنا لأن نسير بسلام على نهجك القويم، وهو ما يصطلح عليه «إيصال إلى المطلوب»، أي دُلّنا على الطريق الذي نلقاك في آخره وأن رسولك قال : ﴿ **إنَّ هذا صراطِي مستقيماً فاتبعوهُ**﴾[1] وقد فعلنا ذلك، ولكن يبقى أن تأخذ أنت بأيدينا لنصل إلى قُربك وجوارك ، فأدِم علينا عنايتك ورحمتك ورضوانك حتى نصل إلى المطلوب .

وخلاصة البحث : إننا نسعى للوصول إلى المطلوب من خلال الطريق المستقيم وهذا الطريق مستمر وله نهاية ، وعند النهاية يكون اللقاء بالله العزيز المتعالي ورحمته التي وسعت كل شيء .

إن هذا الطريق هو جسر الصراط ، وجسر الصراط أدق من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وإن ظاهره هنا ، وحقيقته هناك ، فمن لم يدرك دقته وحدته ضلَّ وانحرف عن سواء السبيل ، وهوى في نار جهنم الحامية في تلك الدار الآخرة .

إن الحفاظ على استقامة السير في هذه الدنيا صعب جداً ، واستقامة السير أعني بها المحافظة على الالتزام بالدين القويم والشرع السليم ، فالقابض على دينه في يومنا هذا كالقابض على جمرة من نار ، وقد يأتي جيلٌ بعدنا سيُعاني أكثر مما نعاني في وقتنا الحاضر .

قد ينحرف الإنسان في بعض الأحيان عن الطريق المستقيم تحت مسمَّيات متعددة مثل: ثوري ومكافح ومناضل ومجاهد ، وما إلى ذلك من التسميات التي تحمل ظاهراً جميلاً وحسناً ومقبولاً لدى كل الأوساط الاجتماعية .

وقد تحرف بعض الجُمل إنساناً عن الطريق المستقيم لتسقطه في الهاوية ، وما إن ينتبه لذلك ويريد الرجوع إلى طريقه المستقيم حتى يرى الوقت قد فات عليه ، والرجوع إلى الوضع الأول صعباً إن لم يكن مستحيلاً ؛ وبعض الجُمل التي يتفوَّه بها الإنسان قد تؤدي بدين الفرد إلى نصفين ، ولذا ينبغي لنا أن نكون حذرين وفطنين وواعين لما نقول وإلا فالسقوط في انتظار من يغفل عن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

ذلك ، فيكثرون الذين سقطوا سنين متمادية من جراء جملة قالوها في غير محلها .

وإن النملة التي حملت حبة الحنطة بفمها لتطلع صخرة عالية ، بعد تعب شديد وعناء ، تهوى بحبتها تلك إلى أسفل الصحراء من جراء غفلة أصابتها ، وهذا ما يصيب الإنسان في بعض ساعاته .

جاء عن أمير المؤمنين علي (ع) أنه قال في ﴿ **إنَّ الذينَ قالُوا ربُّنا اللّهُ ثم استقامُوا** ﴾[1] : وقد قلتم : ﴿ **ربُّنا اللّهُ** ﴾ فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته . . واجعلوا اللسان واحد ، وليخزن الرجل لسانه ، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه ؛ والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه . . »[2] .

وقال رسول الله (ص) : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه . . . »[3] .

فاللسان الأحمر اللون يخضرُّ حين يطلق عنانه للاغتياب ، والتهمة ، والشائعة ، وكشف العيب المستور ، وهذا بحد ذاته يجرُّ الإنسان إلى مواقع الحضيض .

وقد يفعل مثل ذلك الطعام المحرم ، فيهوي الإنسان ويسقط في طرق الانحراف ، وحين يريد الرجوع عن تلك الطرق يرى الأمر صعباً مستصعباً .

إن الصراط المستقيم ، طريق ضيق ودقيق ، وإن اجتيازه أمر غير هيّن ، ولكنه يهون على أولئك الذين يعلمون ما يفعلون ، ويدركون ما يعملون ، ويفهمون مواقعهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويعرفون لماذا جاءوا ؟ وإلى أين يذهبون ؟ وما هو سيرهم ؟ وكيف يتأتّى لهم المسير ؟ .

إنه سهل على أولئك الذين عرفوا أن الله يراهم ولو كانوا هم لا يرونه ،

---

(١) سورة فصلت/ ٣٠ .

(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

(٣) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

فهموا أن الله حاضر في السر والعلن ، في الليل والنهار ، وأنه يرى ويتابع ويحصي ، ويسجل ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفِي الصدورِ ﴾[1] ، ﴿ إنَّ اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصدورِ ﴾[2] .

إن من ألطاف الله على عباده ، إرساله الأنبياء أدلّاء على صراطه المستقيم ، أدلّاء رحماء بمن جاءوا إليهم ، لقد تحمّلوا المصائب والبلايا بصدر رحب كيما يهدوا البشر إلى السير السليم ، وإلى صواب الطريق .

وقد ورد في الأخبار المتكاثرة من طرق العامة والخاصة « أن زكريا (ع) دعا قومَه ليلاً ونهاراً لكي يستقيموا على الطريق القويم والصراط المستقيم ولكنهم قصدوه بالقتل ، فهرب منهم والتجأ إلى شجرة ، فانفرجت له ، فدخل جوفها ، ثم التأمت ، فدلّهم الشيطان عليه ، وأمرهم أن ينشروا الشجرة بالمنشار ، ففعلوا وقطعوه نصفين ، فقتل (ع) عند ذلك »[3] .

فأرسل الباري تعالى رسولاً من بعده ، ومن بعد ذلك أرسل رسلاً آخرين حتى بلّغوا (١٢٤) ألف رسول لطفاً منه ورحمةً وإتماماً للحجة على العالمين .

وعلاوة على إرسال الباري تعالى لكل أولئك الرسل ، وفّقنا أن نكون خلفاً لسلف عرفوا طريقه المستقيم ، وصراطه القويم ، والحمد له وحده على هذا الأمر .

ولو لم يكن هناك نبيّ أو رسول أو وليٌّ ، لما اهتدينا إلى نهجه وجادّته السويَّة ، فعلينا أن نحذر الغفلة التي تبعث على السقوط والانحراف عن تلك الجادة من خلال حديث في غير محله ، أو اغتياب مسلم ، أو انتهاك حرمة ، وما إلى ذلك من القضايا التي توجب السقوط في مهاوي الرذيلة في الدنيا ، وفي نار جهنم الحامية في الآخرة .

لقد اهتدى البعض إلى هذا الطريق الذي هو السير إلى الله ، وعرفه حق

---

(١) سورة غافر، الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٩ .

(٣) الميزان/ج ١٤ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

المعرفة ولكنهم انحرفوا عنه لعناد فيهم ، فدلَّهم عنادهم على طرق أخرى غير سويّة على الرغم من معرفتهم للطريق السويِّ ، فراحوا يتنكَّرون للحق ويتمادون في الظلم .

وعند لقاء الله سيؤول بهم الأمر إلى أسفل السافلين على العكس من أولئك الذين اهتدوا إلى الطريق القويم واستمروا عليه في سيرهم الذي وجدوا فيه رحمةً من الله واسعة ، وكان الحكم في كلا المسارين لله جلّت قدرته ؛ فكان لقاء الصالحين رحمةً من الله خلاف لقاء الطالحين الذي سيكون نقمة عليهم ﴿ إن الحُكمِ إلاَّ للّهِ ﴾[1] .

إن الذين يعاندون ، وينحرفون عن الطريق المستقيم بعد هدايتهم كُثر .

وما كان من انحراف وضلال ، فبما كسبت أيديهم ، لتحكيم الشيطان على قلوبهم على الرغم من أنه كان ينبغي لهم تحكيم الله عليها : ﴿ أفرأيت من اتَّخذ إلَهَهُ هواهُ وأضلَّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[2] .

إن القرآن المجيد نقل لنا الكثير من الحوادث والقصص التي تدلل على معرفة المنحرفين بالطريق السوي ، ولكنهم أبو إلا الضلال ، ومثال ذلك ابن نوح (ع) الذي اتخذ إلَهه هواه ، فلم يمتثل لأمر النبي نوح (ع) وهو أبوه الذي يعرفه حقَّ اليقين .

إن نوحاً (ع) صنع سفينةً وقال لقومه اركبوا فيها ومنهم ابنه ، وأفهمهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وكان القوم يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يقول لهم (ع) : ﴿ إنْ تسخرُوا منَّا فإنَّا نسخرُ منكُم كما تسخرونَ فسوفَ تعلمونَ منْ يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ ، ويحلُّ عليهِ عذابٌ مقيمٌ ﴾[3] .

﴿ حتّى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التنورُ ، قلنا احملْ فيها منْ كلٍّ زوجينِ اثنينِ وأهلكَ إلاّ من سبقَ عليهِ القولُ ومنْ آمنَ وما آمنَ معهُ إلاّ قليلٌ ﴾[4] ، ﴿ ونادى

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٧ .

(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٣ .

(٣) سورة هود، الآيتان ٣٧ و ٣٨ .

(٤) سورة هود، الآية ٤٠ .

نوحٌ ابنَهُ وكانَ في معزلٍ : يا بنيَّ اركبْ معنا ولا تكنْ مع الكافرين ، قال سآوي إلى جبلٍ يعصمُني منَ الماءِ ، قال : لا عاصمَ اليوم منْ أمرِ اللّهِ إلاّ من رحِمَ ، وحالَ بينهُما الموجُ فكانَ منَ المغرقِينَ ﴾[1] .

إن الله ـ تعالى اسمه ـ حدثنا في كتابه الشريف عن كثير من العلماء والأغنياء والحكّام الذين كانوا يعلمون بالطرق السويّة ، ولكنهم ولعناد فيهم أبو إلاّ ركوب الطرق المنحرفة الملتوية ؛ ﴿ ومَا أرسلنا فِي قريةٍ منْ نذيرٍ إلاّ قالَ مُترفُوهَا إنَّا بما أُرسلتُمْ بهِ كافرُونَ ﴾[2] ، فلا تظنَّ عزيز القاريء الكريم ، أن أولئك المترفين كانوا جهلة أو حمقى .

لا ، وألف لا ، ولكن عنادهم وكبرياءهم واستعلاءهم منعتهم من أن يمتثلوا للرسل الذين جاءوا برسالات الحق والهداية ؛ وما نراه اليوم في البعض لا يخفى على البصير .

إن الذين تصدوا للأنبياء والرسل ولرسالاتهم الإلهية كانوا في الأعم الأغلب من الشخصيات العلمية ، أو السياسية ، أو من الذين كانت منافعهم المادية لا تنسجم والأهداف التي جاء بها الأنبياء ، ولو تأتّى لنا البحث في من كذّب (١٢٤) ألف نبي لشاهدنا ذلك جليّاً وواضحاً ، وفي مقابل ذلك نرى أن أغلب التابعين أو الذين صدقوا الرسل حين مجيئهم كانوا من الحفاة ، من سكان الأكواخ ، من المعدمين ؛ ولا أريد أن أعتبر ذلك دليلاً على عدم معاندين بين الفقراء والمساكين والمستضعفين ، ولكن يمكنني القول بأن عنادهم وعداوتهم ، وعدم امتثالهم أقل من تلك التي نشاهدها في الطبقات الثرية ، أو المتسلطة .

إن هذه الثورة التي قامت في إيران ، جاء بها الحفاة والمستضعفون ، وإن أغلب مخالفيها كانوا من الأثرياء والمترفين .

ومن هنا نفهم أن مثل هذا الأمر حصل منذ زمان آدم (ع) وسيبقى إلى يوم

---

(١) سورة هود، الآيتان ٤٢ و ٤٣.

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٤.

القيامة على هذه الشاكلة .

نقل لنا أحدهم عن أحد الفلاسفة المعاصرين لزمان عيسى (ع) حيث كان يقول لعيسى (ع) : « أنا لا أعرف مدى صحة رسالتك ، ولكنني أعلم أنك رسول من ربّ العالمين ، رسول للمستضعفين والمعدمين ، وأن رسالتك لا يمكن أن تشملني لعقل فيَّ كبير ، ولعلم عندي عظيم .

لقد كان ذلك الفيلسوف متكبراً وعنوداً تستعرُّ في نفسه شعل نيران حب الذات ، والخوف على منافعه ومصالحه .

وقد نشاهد مثل ذاك الفيلسوف بين أبنائنا ، فما يحصل على شهادة البكلوريوس حتى يبدأ بتغيير لحن حديثه ظنّاً منه أنه وصل القمة في علمه ، فلا يسمع لوالده ولا لوالدته .

وإذا حصل على الدكتوراه تعالى على أبناء جلدته ، فلا يحضر مجلساً أو اجتماعاً فيه من هم أقل مستوى منه في شهاداتهم أو تحصيلاتهم ، رغبةً منه في حضور يضم من هم في مستواه الدراسي .

عجباً لهذا البشر ! عجباً له وهو يتمثل الصفات الرذيلة ! .

هل أن من يحصل على العلم يصبح متكبراً أو حسوداً ؟ .

إن هذه الصفات تنحرف به رويداً رويداً إلى المعاصي والآثام ظنّاً منه أنه أسمى وأرقى من أولئك الذين يسلكون سلوك الأنبياء والرسل ، فيتنكر للحق : **﴿ وإذْ قالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ منْ عندِكَ فامطِرْ علينا حجارةً منَ السماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾**[1] .

يقال : إن بلالاً الحبشي طلع سطح المسجد وقال : « الله أكبر » .

وإذ رآه أحدهم قال : « ليتني متُّ قبل أن أرى هذا الغراب فوق سطح المسجد » .

لم يستطع رؤيةَ عبد مسلم يشاركه دين الإسلام لظنه برقيه وسموه على

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٢.

ذلك المخلص لدين الله ورسوله (ص) ؛ والجدير بالذكر أنّه كان من رؤساء القبائل من المترفين الذين كانوا يقولون : ﴿ إنّا بمَا أُرسلتمْ بهِ كافرونَ ﴾[1] .

ومثل على العناد ذلك الذي نزلت فيه الآية المباركة : ﴿ إنْ كانَ هذا هوَ الحقُّ منْ عندِكَ . . أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ ونزلت هذه الآية بعد تنصيب النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) عليّاً خليفة للمسلمينَ ، بعدما قام أحدهم ليقول للنبي (ص) : يا رسول الله ! هل كان تنصيبه للخلافة من عندك أو من عند الله ؟ .

فإن كان من عندك ، رفضنا ذلك ، وإن كان من عند الله فحريٌّ بالله أن يمطر علينا حجارةً من السماء ، أو يعذبنا بعذاب أليم .

لا تعجبوا لذلك اللئيم ، ولا تعجبوا للنبي الأكرم (ص) المؤتمر بأوامر الله تعالى حين رفع يد عليٍّ إلى السماء ، وقال : « من كنت مولاه ، فهذا عليٌّ مولاه ، اللهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصرْ من نصره ، واخذُلْ من خذله »[2] ؛ وما إن أنزل الرسول (ص) يد علي (ع) حتى اجتمع حوله كبار القوم وسادتهم ليقولوا له : « بخٍ بخٍ لك يا أمير المؤمنين » .

كان ذلك اليوم هو السابع عشر من شهر ذي الحجة ، وكان يوم التحاق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى هو الثامن والعشرين من شهر صفر . وما رحل الحبيب (ص) حتى شكّل القوم ترتيب سقيفة بني ساعدة لينصّبوا أحدهم خليفةً للمسلمين بعد رسول الله (ص) بدلاً من أمير المؤمنين علي (ع) ، وليحرقوا في اليوم الثاني باب دار عليٍّ (ع) ، وليكسر أحدهم ضلعَ الزهراء البتول ـ عليها السّلام ـ ومن ثم يُكرهوا عليّاً على دخول المسجد ، ولا عجب في ذلك ! .

إذا استعرت نار الحسد والحقد وحب الذات في قلب فرد ، وصل به الأمر إلى نكران أمر الله ورسوله الكريم (ص) .

يقول المؤرخون : كان مالك بن نويرة أحد أصحاب الرسول (ص)

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ١ ، ص ٣٦٦ .

الخاصِّين قد أتى بعد وفاة الرسول (ص) من البادية لسماعه برحيله إلى الحق تعالى وما إن دخل المسجد حتى رأى جمعاً غفيراً من الناس حول أحدهم ، ولا يوجد فيهم عليٌّ (ع) فسأل عنه ، فقالوا له : وما تريد منه ؟ .

قال : ألم ينصِّبه الله ورسوله عليكم خليفة ؟ .

فقالوا : دعك من هذا ، واجلِس في مكانك .

فقال : جئت مسجد رسول الله (ص) قبل عدة شهور لأقول للرسول (ص) : أنا زعيم قبيلة ، فعلِّمني الدين ؛ فقال (ص) : الدين شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأن تدين بالولاء لهذا ـ وأشار لعليٍّ بن أبي طالب (ع) ـ وقال : « إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا »[1] ثم علمني بقية الدين لأرجع إلى البادية .

عندما كان يتحدث مالك بن نويرة في القوم في المسجد اجتمع حوله الضعفاء والمحبّون ومن كان حاضراً زمن الرسول (ص) عندما جاءه مالك بن نويرة ، فخاف بعضهم حدوث ما لا تحمد عقباه ، فأخرجوه من المسجد كرهاً وأضمروا له العداوة والبغضاء .

وما إن رجع مالك إلى عشيرته حتى قصَّ عليهم القصص ، فبدأت تلك الحادثة تنتشر بين القبائل ؛ فخرج خالد بن الوليد ـ الذي كان بالأمس قد أحرق باب منزل أمير المؤمنين علي (ع) ـ إلى البادية يرافقه (٥٠) شخصاً من المسلمين وكانت هذه المجموعة قد ذهبت إلى قبيلة مالك بن نويرة تحت عنوان جباية الزكاة ، وحين وصولهم إليه قال مالك : سأعطيكم الزكاة كي لا تقع الأُمّة الإسلامية في اختلافات تؤدي بها إلى الضعف والانهيار ؛ فذبح لهم في تلك الليلة جملاً وخرافاً لعشائهم أملاً في ذهابهم صباحاً إلى حيث يريدون .

وفي المساء ، وبعد أن هجع القوم إلى النوم قام خالد مع ثلّة من حرّاسه إلى الهجوم على خيمة مالك بن نويرة صاحب رسول الله (ص) ليذبحه وهو في فراشه وفي حضور امرأته التي اغتصبها خالد في تلك الليلة بعد أن قتل الكثير

---

(١) كنز العمال/خ ٣٦٤٢٠ .

من شباب وشيوخ ونساء وأطفال تلك القبيلة المسلمة المسالمة ، وسرق ما عندهم من أموال ويرجع إلى من أمره بذلك .

ولما سمع الإمام علي (ع) بتلك الحادثة حتى رفع يديه إلى السماء قائلاً : « اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما فعل خالد » .

ويقال : إن عبارة أمير المؤمنين تلك كانت تختلف عما نقله بعضهم ، إذ قالوا : إن الإمامَ عليّاً (ع) قال : « اللهم إني أبرأُ إليك من خالد »[1] .

يقول المؤرخون الشيعة والسنّة على السواء : إن خالداً في تلك الليلة أمر أصحابه بالطعام للمرة الثانية ، ليضع رأس مالك بن نويرة في وسط قدر مليء بالرز والماء ، كان موضوعاً على نار شديدة ، ويجمع المؤرخون على أن الرأس لم يحترق ـ إن الرأس الذي اشتاق للجنّة لن يحترق ـ وعلى الرغم من رؤية خالد لهذه القضية اغتصب زوجة الصحابي مالك بكل وقاحة !! .

إن هذه القضايا ليست من مبهمات التاريخ ، وإن الجميع يعرفون ذلك ولكن ﴿ قلْ سِيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُجرمينَ ﴾[2] ، و ﴿ كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ ﴾[3] .

أعزائي القراء احذَروا الترف وخصوصاً في مسائل الدين ، فلا يستولي عليكم الحسد والكبر والعجب والغرور ، لأنه لا يؤدي بالإنسان إلاّ إلى المهالك ، ولا يغرنكم ما تعرفون من مسائل علمية فينعكس ذلك سلباً على سلوككم .

يقول نيوتن ـ وكم هو جميل قوله ـ: إن ما لديَّ ليس علماً ، فعلمي مقابل جهلي ، قطرة من ماء مقابل بحر متلاطم ، وعندما أستعمل التلسكوب الذي صنعته بيدي أرى عوالم مجهولةً أشعر كأن التلسكوب ذاك يقول لي : إنك قطرة في بحر .

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ٣ ، خ ١٠٢١ ، ١٠٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد/ج ١ ، ص ١٣ ، ١٤٠ . ١٤٣ .

(٢) سورة النمل، الآية ٦٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.

إن الكرة الأرضية في مجموعها قد تكون قطرة في بحر العالم ، فمن تكون أنت أيها الإنسان الضعيف ؟ وما هو علمك الذي تدَّعي ؟ ويقول بعض العلماء : إن الكرة الأرضية إذا قيست مع باقي الكرات الموجودة في هذا العالم عدت حصية في صحراء متمادية الأطراف ، هذه هي الكرة الأرضية ، فمن أكون أنا ؟ وأين تكون أنت ؟ وما هو علمي وعلمك ، وأين يكون موقعه من العلم ؟ .

فمعرفة عدة قوانين رياضية لا ينبغي أن تجلب عليك كل هذا الغرور ، وحل عدة مسائل فقهية لا غرور فيه .

ولكن الإنسان أقل مما يجب أن يحتوي واستعداده لهذه المسائل قليل ، وقليل جداً ، فلا يغرنك أيها المعلم أن تصير غداً مديراً لمدرستك ، وإن فعلت ذلك سيؤول بك الأمر إلى الانحراف عن الصراط المستقيم الذي بيَّنه لنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار المنتجبون .

اللهمّ أنت أهل الوصف الجميل ، والتعداد الكثير ، إن تؤمَّل فخير مأمول ، وإن تُرْجَ فخير مرجوٌّ .

اللهمَّ وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ، ولا أثني به على أحد سواك ، ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة ، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين ؛ والثناء على المربوبين المخلوقين ، صلِّ على محمد وآله الطاهرين وهب لنا في هذا المقام رضاك ، وأغنِنا عن مد الأيدي إلى سواك بحق محمد وآله الطاهرين .

([٢])
سيرٌ إلى اللّـه

قال رسول الله (ص) : « كنت جالساً إلى جبرئيل . . . فسمعت صوتاً مهيباً . . وسألته ماذا كان ذاك ؟ فقال : رُمي بحجر قبل (٧٠) سنة إلى جهنم ووصل للتوّ إلى قعرها »[١] .

وقد فسَّر قائد الثورة الإسلامية ذلك الحديث قائلاً : « انحرف شخص ٧٠) عاماً عن الصراط المستقيم ، وسار إلى جهنم في ما طواه من مسيرة ، وكان ينحطُّ يوماً بعد يوم إلى أن قبض الله روحه ، فلم يستقر في الدرك السابع ، بل تعدَّاه إلى بئر ليستقر فيها ، وبعدما استقرَّ أفاق من غفلته ، وفي مثل ذاك قال رسول الله (ص) : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[٢] .

إن حياتنا التي نحياها موت ، وإن بداية الحياة الحقيقية تكون بعد الموت ، أي بعد عبور قنطرة الموت الفاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ﴿ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ ﴾[٣] .

فالحياة هناك ، ولهذا يشهد الإنسان تكلم جهنم معه وهي تحرقه ، ويشهد تكلم الأفاعي والعقارب وتجريحهم له في التحدث إليه ، ناهيك عن طيِّه لمسافات درجات جهنم الحامية ليستقر في تابوت في بئر تقع في الدرك الأسفل

---

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ ـ ٧٥٨ كتاب الموت وأحوال تقع بعده .

(٢) علل الشرائع/ص ٤ ، كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

من تلك النار التي سجَّرها الخالق الجبار ، وما سقوط الإنسان في تلك البئر ، وتسافله وانحطاطه في مسيره من الدرك الأول إلى الدرك السابع إلا تشابه في انحطاطه وتسافله في هذه الحياة الدنيا .

فالذي يريد أن يتعرف موضعه في الآخرة ، فلينظر إلى ما هو عليه في الحياة الدنيا ، ولا يبتعد الإنسان عن تلك الظنون الشيطانية التي يظنها أنه سوف ينجو من تلك النار ، أو أنه لا ينتهي إلى رب السموات والأرض : ﴿ **إنَّ إلى ربِّكَ المنتهى** ﴾[1] ، ﴿ **إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجعى** ﴾[2] ، فالمسيرة البشرية لا بد لها من الرجوع إلى خالقها ؛ ومن غفل عن ذلك ، فهو ما يـزال في نوم عميق ، وحين يموت يصحو من غفلته ، وعندها لا تنفعه شفاعة الشافعين . وقد أخبرتنا الروايات المتواترة أن البعض يقطعون الصـراط وكأنـه عدة كيلومتـرات ، وأن قطعهم لتلك المسافات يعد فسحةً نادرة إذا قيس بما بعدها من الأهوال .

وتخبرنا الروايات أيضاً أن البعض ممن يحسبون تحت لواء الحمد الذي هو بيد أمير المؤمنين (ع) ينتهلون من حوض الكوثر ، ويمتِّعون أنظارهم بمناظر الحشر .

ومن المؤكد أن ذلك أفضل لهم من الجنة نفسها لكونهم ينضوون تحت لواء علي بن طالب (ع) ، فباطن هذه الدنيا هو الآخرة ، والآخرة ليست ما وراء هذه الدنيا ، وهذه هي حقيقة الدنيا ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن وعندها يدعو الباري كل قوم بإمامهم ﴿ **يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامِهم** ﴾[3] ؛ فمَن كان إمامه معاوية انضوى تحت رايته ، ومن كان إمامه أمير المؤمنين علي (ع) ظللته راية علي (ع) وجاء معه .

ومن عاش تحت لواء صدام ، حشر معه ، فانظر عزيـزي القاريء إلى واقعك المعاش ، وتحت أي لواء تحيا اليوم ؛ فما أنت عليه اليوم ستراه غداً ، ومن كان إمامك اليوم فهو في الغد إمامك ، وما تعيشه الآن مجرد فيلم وسترى

---

(١) سورة النجم، الآية ٤٢ .

(٢) سورة العلق، الآية ٨ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧١ .

حقيقته غداً عندما ترجع إلى الواحد القهار في عرصات يوم القيامة المهيب .

فالسقوط والانحطاط هكذا ، فإذا ما رأيت حالك يقترب من الرذائل فاعلم أنك تنحدر إلى أسفل ، والنار هي الحضيض .

أما من رأى نفسه يقترب من الله ـ ولا يمكن معرفة ذلك إلا من خلال أئمة أهل البيت النبوي ـ سلام الله عليهم ـ أو من ينوب عنهم من العلماء الذين يشهد الفضلاء والأجلّاء لهم بالعلم والتقوى والورع والعدل ـ فليعلم أنه في سير صعودي ، والجنة عالية وسامية .

فالمُعاند هنا ، سيرد جهنم هناك ، والمنحرف الضال هنا ، سيؤول الأمر به إلى غضب من الله هناك ، وقد يصطلح البعض على هكذا أفراد بأنهم « يهود » على الرغم من أنهم يشهدون الشهادتين لأن اليهود مصداق للانحراف والضلالة .

وقد حكي لي أحدهم حكاية لا بأس بالإتيان بها هنا يقول : أقام أحدهم تعزيةً ، وأراد تمثيل تلك التعزية بأفراد ، فحضر جميع من يريد تمثيل تلك التعزية ، ولم يبق إلا من يمثل دور الذي كان يحول دون الوصول إلى شط الفرات ، فبحثوا هنا وهناك ، فلم يعثروا إلا على أحد الأرامنة ، فعرضوا عليه الأمر فوافق عليه ، وحينئذ بدأ العزاء فجاء العباس ، فمنعه من ورود الماء . وجاء علي الأكبر ، فمنعه أيضاً ثم جاء القاسم فحال بينه وبين ماء الفرات .

بعد ذلك سمع الأرمنيّ صوت أطفال الحسين وهم يصرخون « العطش ، العطش » وعندها صرخ الأرمني ، وقال : قسماً بذات الله ، لقد تقطعت نياط قلبي لكم ، ورغبتي إلى إعطائكم الماء شديدة ، ولكن هؤلاء المسلمين لا يجيزون لي ذلك ! وعليه أقول . إن فينا نحن المسلمين من هو أسوأ من اليهود ، وأسوأ من الكفرة .

إن هذه الحكاية التي تقول بانحطاط اليهود ، مصداقها هو : أن اليهود كانوا ولا يزالون جرثومة الفساد والعناد منذ زمن موسى (ع) حتى وقتنا الحاضر . وعجباً لهؤلاء اليهود ، فقد كانوا مريدين لموسى (ع) ولكنهم ـ وكما أخبرنا

القرآن الكريم بذلك ـ يقولون لـه : ﴿ **فاذهبْ أنتَ وربـكَ فقاتِـلا إنَّا هـا هنا قاعدُونَ** ﴾[1] .

ويطلبون بصلاً وثوماً بالرغم من أن غذائهم يأتي من السماء ، يقول لهم موسى (ع) : « إن طعامكم يأتي من عالم الملكوت ، فكلوا واحمدوا الله على ذلك ، فيقولون : لا نريد إلا بصلاً وثوماً وقرعاً وعدساً ﴿ **وإذ قلتـمْ يا موسى لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ ، فادعُ لنا ربَّكَ يخرِج لنا ممَّا تنبتُ الأرضُ من بَقلِها وقِثَّائِها وثُومِها وعدسِها وبصلِها . قال : أتستبدِلونَ الذِي هو أدنى بالذِي هـوَ خيرٌ** ﴾[2] ؛ إنهم كانوا معاندين ، ولجوجين ، بل إنهم مرضى .

لقد كان اليهود أظلم من عليها في زمن الرسول الأكرم (ص) ، وقد وصل ظلمهم إلى درجة أمر معها الله نبيَّه (ص) بقطع رؤوس (٧٠) منهم ، لكونهم وصلوا إلى حدٍّ كانوا يريدون فيه قتل الرسول وكل من كان في المدينة فكشف الله ذلك لرسوله وقضى عليهم وعلى مؤامراتهم اللئيمة .

إن رؤساء أمريكة هم من اليهود ، وإن بريطانية تعتمد في سياستها على أحـزاب صهيونيـة ، وإن ماركس كـان يهوديـاً معقداً ، مـريضـاً نفسيـاً ، وإن المذاهب التي جاءت بعده كانت تحت نظر الصهيونية من مثل مذهب « فرويد » ذلك المذهب الذي يبعث على حياء الأحياء ، إنه المـذهب الذي يعتبـر كل الغرائز ترجع في أصلها إلى الغريزة الجنسية .

وكان « دور كيم » يهودياً أيضاَ ، وهو صاحب مذهب أو مدرسة ، وكان يقول بالرغم من أنه يعدُّ عالماً : ينبغي أن يكون الإنسان مستغلاً ، وإن على القوي أن يستغل الضعيف ويمتصَّ دمه كالعلقة التي تمتص الدماء لتحيا ، وإن الرحمة والعطف والرأفة من الضعف ، فمن ضعف بانت عليه الرحمة والرأفة والعطف ، ولا ينبغي للإنسان أن يكون رؤوفاً رحيماً ! عليه أن يكون مثل ريغان وصدام ! .

كان ماركس يهودياً ومنتميـاً للحزب الصهيـوني ، وقد يكـون فرويـد ،

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

ودوركيم ، ونيتشه غير معقَّدين ، ولكن ماركس كان كذلك ، لكونه كان فقيراً ومعدماً ، يذهب في أغلب الأحيان إلى المدرسة حافياً ، وقد أصيب بصداع مزمن لعدم تمكنه من تناول إفطار على طول السنين التي كان فيها في الجامعة فاستغلَّ « إنكلز » وضعه المادي المتردي ذاك ليلقي في عنقه غلَّ ذلك المذهب الذي التزمه فيما بعد .

وخلاصة الأمر : هي أن كل المصائب التي عانت وتعاني منها الإنسانية منذ زمان موسى (ع) حتى زماننا الحاضر ، كان وما زال أصلها اليهود ، إنهم معاندون ولكنهم في الأعم الأغلب أزكياء ، ولجوجين ولكنهم يخططون لما يريدون إنجازه .

قال عزَّ وجلَّ في محكم كتابه الشريف : ﴿ **وضربتْ عليهمُ الذِّلةُ والمسكنَةُ وباؤُوا بغضبٍ منَ اللّهِ** ﴾[1] .

لماذا كان ذلك ؟ .

﴿ **ذلكَ بأنهم كانُوا يكفرُونَ بآياتِ اللّهِ ويقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عصَوا وكانُوا يعتدُونَ** ﴾[2] .

يقول الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بصدد هذه الآية : « واللّهِ ما ضربُوهم وما قتلوهُم ، ولكن سمِعوا أحاديثَهُم فأضاعُوها »[3] ، فالقصد من القتل في هذه الآية الشريفة هو : قتل الهدف الذي جاء من أجله الأنبياء ـ سلام الله عليهم ـ ومن قتل هدفاً لشخص كانت المصيبة أعظم مما لو قتل الشخص نفسه .

وقد نعت القرآن الكريم اليهود ، فقال فيهم : ﴿ **المغضوبِ عليهِمْ** ﴾ ، لماذا ؟ لعنادهم ولجاجتهم .

وإن من بين المسلمين ما يتَّصف بصفات اليهود في عناده وكبريائه وعجبه

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) تفسير نور الثقلين/ج ٢ ، ص ١٩١ ـ وكذا جاء في تفسير العياشي .

وإصراره ، وقد نرى الكثير من النزاعات الأسرية ترجع في الأساس إلى العناد ، فترى المرأة أو الزوجة تمتنع عن إطاعة وليِّ أمرها ، وهي تعلم أن رب الأسرة هو الرجل بالرغم من أنها أدركت ذلك بالفطرة ، فترى البعض منهن مستعدة لأن يسرح ويمرح أطفالها في الشوارع ولا تنتهي عن طلبها للطلاق وهكذا نساء : ﴿ **مغضوبٌ عليهنَّ** ﴾ ويحشرهن الباري يهوديات يوم القيامة ، وعندما يحشر الباري إحدى النساء المسلمات على أنها يهودية تسأل عن ذلك ، فيقال لها : لقد كان سيرك في الحياة الدنيا سير ﴿ **الضالِّين** ﴾ ولم يكن سير ﴿ **الصراطِ المستقيمِ** ﴾ بل كان سير ﴿ **المغضوب عليهمْ** ﴾ سير العناد والإلحاح واللجاجة والإصرار ، سير عدم الامتثال للطاعة سير تخريب المحيط الأُسريّ؟! .

وأنتم أيها الرجال الأعزاء : لا ينبغي لكم أن تستخدموا التجريح بالعبارات ، فتحرقوا قلوب زوجاتكم ، فمن كان سلوكه جهنمياً ، كان سيره إلى جهنم أقرب ، وإن التجريح ليتجسَّد للرجل يوم القيامة بشكل حيوان قبيح يؤدي به إلى أسفل جهنم بضعة آلاف من السنين . وعندما يريد الصعود ثانيةً سيحتاج إلى بضعة سنين أخرى ، فيقال له : هذا ما جره عليك تجريحك للآخرين ! ففي الدنيا تجريح وفي الآخرة يصير حيواناً قبيحاً ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن ﴿ **يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً ، ويحذركُمُ اللّهُ نفسَه** ﴾[1] .

فالتهمة والغيبة والكذب والتجنِّي كلها تنقلب غداً على صاحبها ناراً حاميةً : ﴿ **يا أيُّها الذينَ آمنوا قُوا أنفسَكُم وأهليكُم ناراً وقُودُهَا الناسُ والحجارة** ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) في قوله : ﴿ **ويُسقى من ماءٍ صديدٍ** ﴾[3] قال : يقرب إليه فيكرهه ، فإذا أدنى منه ، شوى وجهه ووقع فروة رأسه ، فإذا شرب منه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره ؛ يقول الله : ﴿ **وسقُوا ماءً حميماً فقطَّعَ**

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ١٦.

أمعاءَهُم ﴾[1] ويقول : ﴿ وإنْ يستغيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالمهلِ يَشوِي الوجوهَ ﴾[2] »[3] .

إن ذلك الماء الكريه الرائحة هو انعكاس لسوء الخلق الذي يمارسه الزوج مع زوجته أو الفرد مع صاحبه في المجتمع ، وأنه يشوي الوجوه ، فلأن ذلك الذي سيشوى وجهه ، أراق ماء وجه صاحبه الذي ائتمنه على سره ؛ وأن يستغيث في الآخرة فيُغاث بماء كالمهل ، جزاءً بما فعله بفلان من الناس حينما استغاثه ولكنه لم يردَّ لهفته بل سخر منه ، وتخلّى عنه .

إن ما تفعله اليوم ستراه حقاً غداً عند مليك مقتدر ، وعندئذ ستفيق من غفلتك ونومتك التي لم تتجاوز اللحظات ، وقد حسبتها أنت سنين طوالاً ، ﴿ فكشفنَا عنكَ غطائِكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ ﴾[4] .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ مُحضراً وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً ﴾[5] .

وتعني هذه الآية المباركة : أن الأعمال الصالحة في زمن الدنيا تتحول إلى أنيس وصاحب ورفيق حسن يوم القيامة ، والأعمال السيئة تتحول إلى حيوانات مفترسة وعقارب مؤذية فيتمنى المسيء حينها أن تكون المسافة بينه وبين تلك الحيوانات بعيدة .

« اللهمَّ إنك آنس الآنسين لأوليائك ، واحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم . . إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبَّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ومصادرها عن قضائك » .

---

(١) سورة محمد، الآية ١٥ .

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٢٤٤ .

(٤) سورة قّ، الآية ٢٢

(٥) سورة آل عمران، الآية ٣٠ .

ولادة الرسول الأكرم (ص)

كانت مكة غارقةً في ظلام وسكون ثقيلين ولا يطالع الناظر إليها مظاهر للحيوية والنشاط ، اللهمّ إلا ذلك القمر الدؤوب الذي بدا كعادته كل يوم يتحرر من خلف تلك الجبال الجرداء المنودة ، ويرتفع في الآفاق رويداً رويداً لينشر أشعته الفضية الهادئة على تلك البيوت البسيطة الغريبة عن تعقيدات المدنية وتجملاتها .

الجميع كانوا في نومهم العميق إلا آمنة ، فقد كانت يقظةً وبدأت تحس بالألم الذي كانت تنتظره ، وفجأةً رأت في غرفتها عدة نساء تعلوهن المهابة ويجللهن النور ، وتفوح منهن روائح زكية لم تعهدها آمنة من قبل ، وتحيّرت آمنة في شأن هؤلاء النسوة المجهولات ، وكيف استطعنَ الدخول من الباب الموصد![1] .

ولم يطل تحيُّرها إذ جاء إلى الدنيا وليدها الحبيب ، وبهذا قرَّت عينها بعد شهور من الانتظار بوليدها الذي أطلَّ على الدنيا في سحر اليوم السابع عشر من ربيع الأول[2] ، وفرح الجميع بهذا المولود الحبيب الذي أنارت طلعته بيت آمنة التي كانت قد افتقدت زوجها الذي لم تمهله يد الموت ليتسنَّى له رؤية الوليد المبارك ، إذ اختطفته حين رجوعه من الشام ، فتوفي في يثرب ودفن هناك ،

---

(١) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٣٢٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٠ .

وترك آمنة وحيدة مع جنينها الذي كان يؤنس وحشتها القاتلة[1] .

صاحبت ولادة الرسول الأكرم (ص) حوادث مختلفة في السماء والأرض، وجاءت تلك الحوادث وكأنها تريد أن تؤدي دور وكالات الأنباء السريعة في عصرنا هذا لتنبىء عن وقوع حادث خطير ؛ ومن الحوادث أن إيوان كسرى أنوشيروان الذي كانت الأنظار مشدودة إليه وإلى صاحبه اضطرب في تلك الليلة ومادت به الأرض فسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته .

وخبت نار فارس لأول مرة منذ ألف سنة[2] ، وهكذا تنبَّه سدنة معابد النار والكهان الذين منعتهم عصبيتهم وتقليدهم الأعمى عن التفكر في آيات الله في الكون وفي أنفسهم ، هؤلاء تنبَّهوا إلى أن للسماء خبراً ، وإن لهذا اليوم شأناً خطيراً .

وكان لجفاف بحيرة ساوة أثر في تنبيه منطقة أخرى لحقيقة ما يجري على وجه الأرض[3] .

ولد الرسول الأكرم (ص) في عام الفيل ، وقد عرض القرآن الكريم لهذه الحادثة وأفرد لها سورةً سميت سورة الفيل ؛ وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة المشرفة بقيادة أبرهة الحبشي ، وقادوا معهم فيل الهدمة ، فضيَّع الله كيدهم بأن أهلكهم وعصم الكعبة بإرساله تعالى عليهم جماعات من الطيور صغيرة الجثة رمتهم بحجارة من سجِّيل أي من طير متحجر ، وقيل من أسجله وإذا أرسله ، كان في منقار كل طير حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فيرمى الرجل بحجر في رأسه فيخرج من دبره ، فجعلهم كورق زرع أكلته الدواب ، وراثته أوداد .

في الوقت الذي كان عامة الناس يتجهون صوب الأصنام ، كان محمد (ص) الذي لم يتلقَّ درساً من أحد يتجه وحده صوب غار « حراء » وهناك يقف خاشعاً متضرّعاً وهو يتأمل في الكون وما أبدع فيه الخالق عزّ وجلّ من روائع

---

(١) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ١٢٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٨ .

(٣) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٦٣ .

تتجلى فيها عظمته وقدرته .

وقد كانت طهارته وعفته (ص) حديث الناس في المجامع والمجالس الخاصة منها والعامة ، كما منحه صدقه وأمانته وإخلاصه لقب « الأمين » الذي لازمه واشتهر به ، ولقد كانت هذه الصفة المحبّبة هي التي دعت خديجة رضي الله عنها أن تختاره ليتّجر بأموالها .

إن أخلاق محمد (ص) وسلوكه وتعاملَه مع الناس بلغت حداً من الرفعة والسموّ بحيث استطاع بها أن يدخل قلوب الناس ويجتذبهم إليه ؛ فعن عمّار بن ياسر أنه قال : كنت راعياً مع محمد (ص) قبل البعثة ، فاقترحت عليه يوماً أن نذهب بأغنامنا في اليوم التالي إلى مرعى « فخّ » فوافق على ذلك ، ولما كان من الغد ذهبت إلى « فخّ » فوجدت محمداً (ص) قد سبقني إلى المرعى ، إلا أنه كان يمنع أغنامه من الرعي ، ولما سألته : لماذا تمنعها عن الرعي ؟ أجاب (ص) : « إني كنت واعدتك ، فكرهت أن أرعى قبلك »[1] .

كان محمد (ص) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف حين اجتمعت قريش لبناء الكعبة وترميم بنائها السابق ، ولما كانت قبائل قريش المتعددة تريد اقتسام هذا الفخر ببناء الكعبة ، ولذا جزأته وجعلت لكل قبيلة قسماً منه .

وقد بدأ الوليد بن المغيرة بالهدم وهو يقول : اللهمّ إنا لا نريد إلا الخير ثم تبعه الناس وأعانوه ، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس الذي بناه إبراهيم (ع) .

وهنا بدأت كل قبيلة ببناء قسم من البيت حتى بلغ البنيان موضع « الحجر الأسود » ، فاختصموا فيه ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى لتفتخر بذلك على سائر القبائل ، وقد استمرَّ الخلاف والخصام بينهم أربع ليال أو خمساً ، ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا؛ فقال لهم أبو أمية بن المغيرة : وكان أكبر قريش سناً « يا معشر قريش اجعلوا بينكم أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضيَ في الأمر ، فكان أول داخل عليهم هو رسول الله (ص) ، وما

---

(١) بحار الأنوار/ج ١٦ ، ص ٢٢٤

أن رأوه حتى قالوا : هذا الأمين » .

فلمّا وصل إليهم وأخبروه الخبر ، قال (ص) : هلمَّ إليّ ثوباً ، فأُتي به ، فأخذ الركن (الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال (ص) : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وبذلك رفعوه جميعاً حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه ووضعه بيده المباركة ثم بُنيَ عليه[1] .

أصيبت قريش في إحدى السنين بأزمة قحط شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، ومال قليل ، مما دعا النبي (ص) إلى أن يأخذ عليّا (ع) إلى بيته ليخفف بذلك عن عمه أبي طالب[2] ؛ ومنذ ذلك الوقت والنبيُّ (ص) كالأب الحاني المحب يحرص على تربيته وتنشئته بأحسن وجه .

لأن علياً (ع) كان يعيش في بيت الرسول (ص) ، فقد كان أكثر من غيره تعرفاً لخصوصيات النبيّ (ص) الأخلاقية ، وفضائله ، وصدقه ، ولذا سارع إلى الإيمان بنبوة محمد (ص) عن بصيرة كاملة في أمره وهو في العاشرة من عمره ، وبهذا حاز هو الآخر قصب السبق من الرجال ، فكان أول رجل آمن بالله ورسوله[3] .

بعد أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة ، وبنى المسجد الذي هو في الواقع مركز الدعوة ، وجّه عنايته الشريفة إلى البنية الاجتماعية للمسلمين فأرسى دعائم الأخوّة بينهم .

كان عامل الأُخوّة هذا يُنسي المهاجرين مرارة الهجران ، ويقدم لهم الدليل على أنهم وإن كانوا قد خسروا أهليهم ووطنهم إلا أنهم ربحوا إخواناً أوفياء أودّاء ، ولذا لم يكتفِ النبي (ص) بالأُخوَّة العامة التي تربط بين المسلمين بل تعدَّاها إلى الإخاء بين كل اثنين منهم بعقد خاص .

وكان أن اختار لنفسه عليّاً (ع) أخاً وقال : هذا أخي[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام/ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٨ ط، مصر .

(٢) نفس المصدر/ج ١، ص ٤٦ ، وبحار الأنوار/ج ١٨ ، ص ٢٠٨ .

(٣) الغدير/ج ٣، ص ٢١٩ .

(٤) سيرة ابن هشام/ج ٢ ، ص ٥٠٤ .

قال الإمام الصادق (ع) : « من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ، ويواري عورته ، ويفرِّج عن كربته ، ويقضي دينه ، فإذا مات خلفه في أهله وولده »[1] .

وفي السنة العاشرة للهجرة ،وفي صحراء الحجاز وهي تشهد جمعاً غفيراً من الحجيج ، وكلهم يسيرون بشعار واحد نحو هدف واحد ؛ تلك السنة تميّز الحج بحرارة خاصة ، والمسلمون يقطعون المسافات ويجتازون المنازل بسرعة وشوق .

صوت التلبية يتعالى في صحراء مكة ، وهذه القوافل تقترب من أُمِّ القرى الواحدة بعد الأخرى ، والحجاج بثياب الإحرام ذات اللون الواحد . . علاهم غبار الطريق ، جاءوا ليلقوا بأنفسهم في أحضان بيت الله الحرام طائفين حوله . . ذلك البيت المقدس الذي شيّد على يد أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم (ع) . . والذي جعله الله سبحانه أمناً لعباده في الأرض .

وترى وجه النبي (ص) حينها تعلوه أمارات السرور والارتياح على هذه النعمة ، فلقد استطاع أن يؤدي الرسالة على أكمل وجه ، ولكن بالرغم من ذلك ترى في وجهه (ص) هالةً من الحزن والأسى العميق تطغى على بشاشته وسروره ، وينقضي موسم الحج . . ويتفرَّق الناس . . كلٌ باتجاه بلده وأهله . . وفي الصحراء حدثت مفاجأةٌ . . منادو النبي (ص) يدعون المسلمين للرجوع إليه . . فماذا حدث ؟ .

إنه الأمين جبرائيل يرد على رسول الله (ص) ويبلغه قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أنزلَ إليكَ من ربكَ ، وإن لَّم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالتَهُ ، واللّهُ يعصمُكَ منَ الناسِ ، إنَّ اللّهَ لا يهدِي القومَ الكافرينَ** ﴾[2] .

ولم يكن الناس يعلمون لماذا صدر إليهم هذا الأمر وأي موضوع مهم استجده .

---

(١) الكافي/ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

وسرعان ما يعلن الرسول الصلاة جامعةً وبعد أداء فرض الظهر صعد النبي الأكرم (ص) الذي كان قد أعدّ من أقتاب الإبل ليقول : « . . . أيُّها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمّر نبيٌّ إلا مثل نصف عمر الـذي قبله ، وإني أوشك أن أدعى فأجيب ، وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ .

قالوا : نشهد أنك قد بلَّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً .

فقال : ألستم تشهدون أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن جنَّته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟ .

قالوا : بلى ، نشهد بذلك .

قال : اللهم اشهد . . إلى أن قال (ص) بعد أن أخذ بيد عليٍّ فرفعها حتى بانَ بياض إبطيهما : « أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مـولاه فعليّ مولاه . (قـالها ثـلاث ، وقال ابن حنبـل قالهـا أربـع مرّات) .

ثم قـال : اللهمّ والِ من والاه ، وعادِ من عـاداه ، وأحبَّ من أحبَّه ، وأبغض من أبغضه ، وانصُر من نصره ، واخذلْ من خـذله ، وأدرِ الحق معـه حيث دار . ألا فليُبلِّغِ الشاهد الغائب ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين الله بقوله : ﴿ **اليومَ أكملتُ لكمُ دينكمْ ، وأتممتُ عليكُم نعمتي ، ورضيتُ لكمْ الإسلامَ ديناً** ﴾[1] .

فقال رسول الله (ص) : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضيَ الربُّ برسالتي والولاية لعليٍّ من بعدي ؛ ثم طفق القـوم يهنئون أمير المؤمنين (ع) وممن هنأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر كلٌّ يقول :

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

بخٍ بخٍ لك يا بن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة »[1] .

ينبغي للبصير من المسلمين أن يقسم بالنبي الأكرم (ص) على الله لأمر مهم من مثل التوفيق للعبادة ، ومساعدة الضعفاء والمساكين ، أو إنجاز عمل يدرُّ عليه رزقاً كثيراً يحفظ به نفسه وعياله من السؤال .

ولا يجدر به أن يقسم على الله بدعوات تافهة وهو جالس في داره فاغر فمه ، من مثل الدعوات التي يطلب فيها طعاماً شهياً ، أو امرأةً حسناء وما إلى ذلك ، بل يجب عليه أن يدعو بدعاء معقول ، فالقسم بالنبي (ص) وآله الأطهار (ع) أمر مهم ، لذا لا ينبغي أن يكون من أجل رئاسة أو تسلط في الدنيا على عباد الله ، لكون الدنيا بمجملها لا تساوي قيمة جناح بعوضة .

ولا أريد التقليل هنا من قيمة الدعاء ، وأن الله أمر موسى (ع) أن يدعوه حتى على تهيئة ملحه ، لكون الدعاء يقرّب الإنسان زلفى من الله ويجعله دائم الذكر والاتصال بالخالق الباريء .

ولكن لا يجدر بالمرء أن تكون الدنيا كل أمره ، ومن كان كذلك شتت الله أمره ، ومن كانت الآخرة همَّه الأساسي أصلح الله دنياه وآخرته .

أما بالنسبة لزواج الرسول من خديجة فلا بأس أن نتعرض هنا وبالذات في هذا الفصل الذي خصَّصناه بالرسول الكريم (ص) في مختصر مفيد :

كانت خديجة (ع) امرأةً ثريةً ، وقد قام الإسلام بثروتها وبسيف عليّ ، فتكون بذلك قد فدت نفسها وثروتها من أجل أن يشيع النهج الإلهي الحنيف ليشمل العالم بأسره ، وقد تحملت خديجة مشقة كبرى في أثناء الحصار الذي قام به الكفرة للمسلمين ، في شعب أبي طالب ، فحملت الطعام مراراً وتكراراً إليهم وبذلت الغالي والنفيس من أجل الرسالة والرسول (ص) ، وقد استغل بعض اليهود ذلك الرضع ، فاقترحوا على خديجة شراء قرية ومزرعة منها مقابل

---

(١) النص مأخوذ من الغدير/ج ١ ، ص ١٠ - ١١

حمل من تمر ، فقبِلت اقتراحهم ذاك ، وكلّفت صهرها لنقل التمر إلى شعب أبي طالب .

لقد طالت أيام الحصار لتصل إلى ثلاث سنين ، فيموت فيها الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، ناهيك عن وفاة أبي طالب وخديجة في العام الأخير ، فيقطتع البين بذلك جناحَي الرسول الأكرم (ص) ليسمي ذلك العام بعام الحزن .

كتب الحلبي وابن هشام في سيرتيهما : دخل الرسول يوماً إلى منزله فاستقبلته ابنته الزهراء ـ سلام الله عليها ـ وما إن لاحظت الدماء تسيل من قدميه ، والتراب يعلو وجهه ورأسه حتى أجهشت بالبكاء ، وخرجت إلى خارج الدار ، وقالت : لو كان أبو طالب حيّاً لما تجرّأ أحد على فعل ذلك .

ولقد استعمل المشركون وأتباعهم كل الأساليب اللاإنسانية من تهم رخيصة ، وسبّ مقذع وحصار اقتصادي ومالي وتعذيب نفسي للرسول الأكرم (ص) وأتباعه المسلمين ، وقد روي عن جابر أن رسول الله (ص) مرَّ بعمار وأهله يعذَّبون في الله ، فقال : « أبشروا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »[1] ، يقول ابن الأثير : كان المشركون يعذبون عماراً وأباه وأمه أشد العذاب ، وذلك بإخراجهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ـ الأرض ـ يعذبونهم بحرِّ الشمس الملتهبة ؛ وكانت سمية ـ رضوان الله عليها ـ أول شهيدة في الإسلام بعد أن ضربها أبو جهل بحربة وقتلها ؛ كما قتل ياسر هو الآخر تحت التعذيب الوحشي .

وشدَّدوا العذاب على عمار نفسه بالحر تارة وبوضع الصخرة على صدره أخرى وهم يريدون أن يسبَّ محمداً (ص) ويظهر الكفر وهو يمتنع عن ذلك حتى أجابهم إلى ما يريدون تقيّةً منهم ، وكان قلبه مطمئناً بالإيمان كما تقول الآية المباركة التي عرضت لهذا الأمر وبذلك نجا من الموت الذي كان ينتظره على أيديهم[2] .

---

(١) أعلام الورى/ص ٤٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير/ط. بيروت، ج ٢ ، ص ٦٧ .

ومن جملة من عذب (بلال) الحبشي ، وكان عبداً قد أسلم على يد رسول الله (ص) وكان مولاه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللاّت والعُزَّى ، وكان صابراً على تحمل كل ذلك العذاب والتهديد ولا يجيب إلا بكلمة واحدة يكررها ويقول : أحد أحد[1] .

لقد تمكن الرسول الأكرم (ص) من السيطرة الكاملة على الحجاز بعد مرور (١٠) سنوات على بداية دعوته . وإن أيامه التي يمكن أن تعدَّ سعيدةً كانت في المدينة المنورة على الرغم من إكراهه على القتال في (٧٤) غزوة وواقعة .

لقد كانت أغلب تلك الغزوات تدار بيد يهودية ، ويمكن القول : إن الجميع من مشركين ومنافقين يعدّون ضمن اليهود الذين قال الله فيهم : **﴿ وضربتْ عليهمُ الذلّةُ والمسكنةُ وباءُوا بغضبٍ منَ اللّهِ ذلكَ بأنهمْ يكفرونَ بآياتِ اللّهِ ويقتلونَ النبيِّينَ بغيرِ الحقِّ ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدَون ﴾**[2] .

قال رسول الله (ص) : « . . . أما بعد أيُّها الناس فما تنكرون من موت نبيِّكم ، ألم أنعَ إليكم ، وتُنع إليكم أنفسكم ، لو خلِّدَ أحد قبلي ثم بعث إليه لخلدت فيكم ، ألا إني لاحق بربي وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا كتاب الله تعالى بين أظهركم تقرؤنه صباحاً ومساءً ، فلا تنافَسوا ولا تحاسَدوا ولا تباغَضوا وكونوا إخواناً كما أمر الله ، وقد خلّفت فيكم عترتي أهل بيتي وأنا أوصيكم بهم . . »[3] .

وقال (ص) أيضاً : « إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي وأحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود بين الأرض والسماء ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[4] .

---

(١) نفس المصدر/ص ٦٦

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) أمالي الشيخ المفيد/ص ٣٧ .

(٤) كنز العمال/ج ١ ، ص ١٧٢

قال رسول الله (ص) : « من قرأ القرآن ، فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي ، فقد حقّر ما عظّم الله ، وعظّم ما حقّر الله »[1] .

قال الإمام الصادق (ع) : لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون[2] .

قال رسول الله (ص) : « إن أئمتكم قادتكم إلى الله فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) فيما أجاب به طلحة : « . . . إن أخذتُم بما فيه نجوتم من النار ، ودخلتم الجنة ، فإن فيه حجتنا ، وبيان حقّنا ، وفرض طاعتنا . . . »[4] .

اللهمّ إنا نشكو إليك غيبة نبيِّنا ، وكثرة عدوِّنا ، وتشتّت أهوائنا فاحمِلنا على عفوك ، ولا تحملنا على عدلك بحق محمد وآله الطاهرين .

---

(١) وسائل الشيعة/ج ٤ ، ص ٨٢٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٢ ، ص ١٠٧

(٣) بحار الأنوار/ج ٨٨ ، ص ٩٩ .

(٤) الاحتجاج/ج ١ ، ص ٢٢٥ .

[٣]
سير إلى اللّه

إن عالم الوجود في حركة دائبة ، وإنه لا بدَّ أن ينتهيَ إلى الحق تعالى ، وإن الإنسان سلك ثلاثة طرق ، فكان بذلك ثلاثة مجموعات أو أقسام :

١ ـ **القسم الأول** : الأفراد الذين عرفوا واهتدوا إلى الجادّة الصواب ، فساروا عليها ، وكانت تلك الجادّة هي نفسها التي سار عليها الأنبياء والرسل والأئمة والصالحون والشهداء : ﴿ **ومَن يُطعِ اللّهَ والرسولَ فأُولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللّهُ عليهمْ منَ النبيِّينَ والصّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحسُن أولئكَ رفيقاً** ﴾[١] .

وقد عرضنا في الصفحات السابقة إلى الصراط المستقيم وكيف أن الناس يختلفون في عبورهم عليه ، فمنهم من يمرُّ عليه كمرِّ الريح ؛ ومنهم من يمرُّ عليه مرَّ السحاب ، ومرِّ الخيل وما إلى ذلك .

وإن منتهى هذا السير في الدنيا قد يؤول إلى رحمة الله والفوز برضوانه من خلال الابتعاد عن المعاصي وتجنُّب الآثام وما يغضب الله ـ جلَّت أسماؤه ـ بعيداً عن هوى النفس وأوهامها التي تؤدي بالإنسان إلى الانحطاط والتدني والسقوط في الهاوية بعد الاضطراب الذي قد يحدث في السير على الصراط المستقيم .

وقد حدثتنا الروايات المتواترة : أن الإنسان قد يسقط في جهنم ، ولكنه يتمكن من الخروج ، وهي كناية عن سقوط الإنسان في الرذيلة في الحياة

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩ .

الدنيا ، وتمكنه من الخروج على تلك الحالة ليصير إلى سلوك الجادة الصواب التي بيّنها لنا الله تعالى في كتابه الكريم وترجمها لنا رسوله (ص) في مجمل أحاديثه .

وقد يشعر البعض من خلال سيره على الطريق القويم بأن نفسه مطمئنة للقاء الباريء تعالى : ﴿ **يا أيَّتُها النفسُ المطمئنَّةُ ارجعِي إلى ربِّك راضيةً مرضيَّةً** ﴾[1] .

ونقرأ في الروايات عن بعض الأفراد الذين يردون الجنة مذهولين كالعاشق الواله ولا يوجد في قلوبهم إلا الله تعالى فلا يرون غيره ، ولا يسمعون كلاماً إلاّ كلامه ، ليبقون في ذهولهم وحيرتهم عدة آلاف من السنين حتى لكأن الحور العين تشكو إلى الله منهم لعدم اهتمامهم واعتنائهم بما حولهم ، كأنهم غارقون في مقام الألوهية ولا شيء غير ذلك .

هكذا أفراد اهتدوا إلى الصواب في الحياة الدنيا ، وساروا على الطريق المستقيم ، طريق الإسلام الحنيف ، فاستمعوا إلى رسول الله (ص) وامتثلوا لأوامره ، وأوامر الأئمة الأطهار من بعده ، وهم من سمَّاهم القرآن الكريم بـ « أصحاب اليمين » .

أما الذين سبقوا أصحاب اليمين إلى مراتب ودرجات أسمى ، وسمهم القرآن الكريم بـ « السابقين » .

٢ ـ **القسم الثاني** : أصحاب الشمال وينقسمون قسمين :

أ ـ قسم عرف الطريق الصواب ، ولكنهم لبسوا العناد واللجاجة ، فانحرفوا عن ذلك الطريق « وسمّوا باسم المنافقين »

ب ـ وقسم لم يهتدِ إلى جادة الصواب بسبب قصوره أو تقصيره ، ولكنهم ليسوا من العناد في شيء وهم « الضالُّون » .

وقد سمى القرآن الكريم هذين القسمين . ـ الناس بـ « أصحاب

---

(١) سورة الفجر ، الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

الشمال » ، وإن لهم لمراتب مختلفة فقد يكون انحراف البعض منهم أقلَّ من صاحبه ، ولكن يبقى القسمان غير مباركين ، وإن طبقات النار السبعة تنتظر قوافلهم ﴿ **إنَّ المنافقينَ في الدَّرَكَ الأسفلِ منَ النارِ** ﴾[1] .

٣ ـ **القسم الثالث** : هم ﴿ **المغضوبِ عليهم** ﴾ والذين أو ﴿**وضربتْ عليهمُ الذِّلَّةُ والمسكنةُ وباءوا بغضبٍ منَ اللّهِ** ﴾[2] .

هؤلاء يموتون والشكُّ والشبهة تعتمر في قلوبهم فيدخلون جهنم مع قلقهم واضطرابهم ﴿ **لا يزالُ بنيانهُم الذي بَنَوا رِيبةً في قلوبهمْ إلّا أن تقطَّعَ قلوبهُمْ** ﴾[3] .

وبهذا يدخلون مداخل الشك من خلال ذلك الاصطراب الذي لازمهم . والشك الذي كان أوضح سماتهم ﴿ **ومن يُشرِكْ باللّهِ فكأنَّما خرَّ منَ السماءِ فتخطَّفَهُ الطَّيرُ ، أوْ تهوِي بهِ الرِّيحُ في مكانٍ سحيقٍ**[4] .

إن هؤلاء الذين عددناهم من القسم الثالث ، ضعفاء القلوب تسلّطت الأوثان والأصنام على قلوبهم ، فحب الدنيا والتكبر والغرور والعجب والأماني والحسد كلها أصنام متمثلة في صفات رذيلة .

فتراهم دائمي القلق والاضطراب لا يهدأ لهم خاطر ، وفجأة ينتقلون إلى العالم الآخر ، فينتبهون إلى ما كانوا فيه ؛ ولكن الوقت ، قد قطعهم ولا مجال للرجوع إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ما كان في قلوبهم المترددة المضطربة ، وقد كان اضطرابهم راجعاً إلى تعدد آلهتهم التي ذكرنا (الحسد ، الكبر ، الطمع . . .) .

فلو كان الإنسان يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً ، لن يُرى إلّا سائراً على صراط مستقيم وبقلب مطمئنٍّ ، لأنه تعالى يمنح الذي يركن إليه ارتياحاً خاصاً

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) سورة التوبة، الآية ١١٠ .

(٤) سورة الحج ، الآية ٣١ .

بعيداً عن القلق والاضطراب .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ **لا يـزالُ الذينَ كفـرُوا تصيبهُم بما صنَعُوا قارعةٌ** ﴾[1] أي أن الذين كفروا دائماً يصـابون بـالدواهي التي تـدخل الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية ضمنها ، ناهيك عن إصـابة أبنـائهم وأزواجهم أو من هم أقرباؤهم الذين يرتضون لهم أعمالهم الكافرة .

فالذي يكون مصاباً بالقلق والاضطراب والشكّ في هذه الدنيا سيكون في الآخرة أيضاً على ما هو عليه الآن من الشك والضلالة .

وإن المضطرب في الحياة الدنيا لا يمكن أن يميز بين الحق والباطل ، أو لا يتمكن من التمييز بين الظلمة والنور مثله كمثل الأعمى الذي لا يفرِّق بين الليل والنهار .

وهذه الحالة جاءت من الإعراض عن ذكر الله تعالى : ﴿ **ومنْ أعرضَ عن ذِكرِي فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى** ﴾[2] ، ﴿ **ومنْ كانَ في هذهِ أعمى فهُوَ فِي الآخرَةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً** ﴾[3] .

ومصاديق الإعراض عن الذكر عدم الصلاة ، أو عدم إتيانها في أوقاتها ، أو الاستخفاف بها وهذا ما يجرُّ على الإنسان قوارع ومصائب ومعيشةً ضنكاً ؛ ومن وصل إلى هذه الحالة ضلَّ وانحرف وسقط في مهاوي الرذيلة ؛ فتراه دائم القلق والاضطراب بعيداً عن راحة البال والهدوء النفسي .

أمـا ذلك الإنسـان الـذي سلك الـطريق المستقيم بعيـداً عن الـرذائـل والمعاصي تراه سعيداً مطمئنَّ البال والخاطر بسبب ركونه إلى خالقه تعالى الذي سخَّر له ما في السموات والأرض ، وعندها لا يهتم إلا لروابطه مع الباري تعالى بعيداً عن الملق للسلاطين والرؤساء وما إلى ذلك .

يقال إن أحد الفلاسفة كان ينزل منزلاً من خمير الخـلِّ ؛ وحينما قـدم

---

(١) سورة الرعد، الآية ٣١ .

(٢) سورة طه، الآية ١٢٤ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٢ ـ ٧ .

الإسكندر المقدونيّ إلى تلك الولاية ذهب الناس جميعاً لزيارته إلا ذلك الفيلسوف فقال الإسكندر : سأذهب أنا لرؤيته ، وفي الوقت الذي أراد الفيلسوف إخراج رأسه من خمير الخلّ ليصيب بعض أشعّة الشمس حضر الإسكندر لزيارته فأصاب ظلّه رأس الفيلسوف . وبعد أن تحدث الإسكندر إليه ، طلب منه أن يقول حاجته فقال : إن حاجتي تكمن في إبعاد ظلك الظليل عن رأسي لأتمتع قليلاً بأشعة الشمس ؟! .

يقال : إن أحد العرفاء كان له دكاناً في سوق بغداد ، فجاء إليه أحدهم في أحد الأيام ليقول له : احترق سوق بغداد كله إلا دكانك لم تصبه النار بالمرة ، فقال : ﴿ **الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ** ﴾ .

وبعد ساعة انتبه إلى أن قوله ﴿ **الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ** ﴾ يعني الحمد لله لعدم احتراق دكاني ، والحمد لله على احتراق دكاكين الآخرين ، فانزعج كثيراً ، وظل يستغفر الله على مدى (٣٠) سنة وهو يقول : إلّهي أتوب إليك من تلك ﴿ **الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ** ﴾ .

يقول البعض : « إذا متُّ عطشاناً فلا نزل القطر » .

ولو قال ذلك العارف هذه الجملة لمات من ساعته ، وحينها لن يتأتّى له قول إلّهي أسأت ، وتبت إليك .

ولو فتحت في قلوبنا فتحة لشاهدنا قول : ليغطي الماء تمام المعمورة ، وليغرقها شريطة أن لا يصيب بيتي ما يمكن أن يضرّ بي ! وهذا هو عين الانحراف الحاكم على قلوبنا ، والآمر لنا ، بالرغم من ادعائاتنا التي يفهم منها بأنّا على الصراط المستقيم سائرون .

جلس رجل أعمى البصيرة في مجلس الرسول (ص) وجاء آخر لكنه أعمى البصر ، ليجلس في ذلك المجلس إلى جنب أعمى البصيرة ، فابتعد بعض الشيء ـ وكان رجلاً متمولاً ثرياً ـ فامتعض الرسول الأكرم (ص) من ذلك الفعل وقال لأعمى البصيرة : لِمَ فعلت ذلك ؟ أتخاف أن يسري إليك فقرُ هذا الأعمى أم تخاف أن يسريَ شيء من ثروتك إليه ؟ فقال : أنا مستعد للتنازل عن

نصف ثروتي لهذا الفقير كيما ترضى عني! فالتفت الرسول (ص) إلى ذلك الفقير الأعمى البصر ، وقال له : هل تريد نصف ثروة هذا الرجل ؟ .

فقال : لا .

فقال (ص) : ولِـمَ؟ .

فأجاب : أخـاف على نفسي الاغترار بثـروتي ، فأصبـح مثل صـاحبنا وبذلك أكون أعمى البصيرة ، إضافة إلى عمى بصري[1] .

قيل لأحد قادة جيش (ص) : عندما تذهب إلى قتال العدو عليـك أن تتزيَّن بعض الشيء وتلبس لباساً جديداً ، وتركب أحسن وأفضل الخيل ليهابك العدو ، وما إن فعل ذلك وسار عدة خطوات حتى صرخ ونزل عن دابته قائلاً : إن فعلي ذاك أشعرني بالكبر والعجب والزهو .

وترى في أيامنا هذه بعض الأفـراد يتكبَّرون ويصيـرون جهنميين بسبب حصولهم على ماجستير في علم الحيوان أو دكتوراه في علم الفلك ، وما إلى ذلك ؛ فالماجستير الذي يوصل الإنسان إلى هكذا حالة ، لا يمكن أن يسمح لصاحبه بطاعة الأبوين ، والإنسان الذي نال شهادة الدكتوراه ورأى نفسه قريباً من القمـر والنجوم لا يتـأتّى لـه إلا أن ينعت أبـاه بـالـرجعيـة والتخلف ؛ وعجبـاً لهم ولعلمهم الذي يؤدي بهم إلى الانحراف والضلالة ، على الرغم من سماعنا إلى أن العلم يرقى بالإنسان ويسمو إلى حيث الدرجات العلى ، إذن ما كان لدى هؤلاء المتكبِّرين ليس علماً ، بل ضياعاً وانحرافاً وسقوطاً وتسافـلاً في أسفل جهنم الحاملة .

لـذا يجب علينـا أن نشفق على أنفسنـا ونترحَّم ونبحث عن الـطريق المستقيم ، طريق محمد (ص) وأهل بيته الأطهار ـ سلام الله عليهم ـ .

يقول علماء الأخلاق : على الإنسان أن يكـون مثل ذلـك الذي يـرافق الفيل ؛ ومن يرافق الفيل شخص بيده مطرقة يستعملها دائماً في ضرب رأس الفيل ، فإذا غفل عن ضربة واحدة ، ألقى الفيـل بنفسه وبصـاحبه في أتعس

---

(١) كحل البصر/ص ٦٨

المطبَّات ، وعليه ينبغي للإنسان أن يراقب نفسَه الأمَّارة بالسُّوء ويـديم ردعها وصدعها كيما لا تنحرف عن الصراط المستقيم والطريق القويم الذي سلكه وبيَّنه لنا أهل بيت الرسالة النبوية الشريفة .

إن النفس البشرية إذا لم تراقب طغت أبعادهـا الحيوانيـة على أبعادهـا الإنسانية ، وحينما يكون الأمـر كذلـك تنحرف عن جـادة الصواب إلى جـادة الضلال ، وحينها تنعت بالنفس الغافلة .

وإذا غفلت النفس هان عليها اللغو والاستماع له ، وتساهلت في أمر الغيبة والنميمة وما إلى ذلك من القضايا التي أمرنا الله باجتنابها وتركها والابتعاد عنها .

وتأتي كثرة الكلام واللغو في الحديث من التوغل في الشبهات بعيداً عن ذكر الله ـ جلَّت أسماؤه ـ .

إن القاعدة الأولى التي يلتزمها العرفاء يعلمونها لمريديهم هي : « إيّاك إيّاك من التوغل في المشتهيات ، وإيّاك إيّاك من كثرة الكلام ، وعليك عليك بذكر الله بذكر الله » .

إن التكرار في مجمل العبارات إحدى القواعد العرفانية .

وقد لاحظنا هذه المسألة في مجمـل آيات القـرآن المجيد الـذي هو كالمعمل الذي يصنع البشر ، وكالكتـاب الأخلاقي الـذي يمتاز بـالتكرار في المسائل المهمة والخطيرة .

وبصدد التكرار الذي جاء في آيات القرآن المجيد اختلفت النظريات ، فترى البعض يقول بعدم تكرار فيه .

وقد يكون السبب في مقولته : الابتعاد عن المتاعب التي قد تترتب على تلك المقولة ، ونرى بعضاً آخر قضى ساعات وأياماً وشهوراً طوالاً ولم يتوصل لتوجيه لذلك التكرار .

ويقول قائد الثورة الإسلامية ومؤسس جمهوريتها : إذا لم يكن هنـالك تكـرار أحتسب الأمر ناقصاً ـ والعياذ بالله ـ فلا بدّ من التكرار في آيات القرآن ، لكونه كتاباً أخلاقيّاً محضاً ، والمسائل الأخلاقية تحتاج إلى تكرار دائمي كيما تأخذ

القيم والمثل موقعَها الصحيح من النفس البشرية .

ونقول : « الدرس حرف ، والتكرار ألف » أي أن الدرسَ الذي يلقي علينا أو نلقيه على الآخرين يجب أن يكرره السامع ويتذاكر به مع أصحابه ليتأكد في أعماق النفس ويقول العرفاء : إن درساً أخلاقياً واحداً في الأسبوع كاف جداً بشرط أن يكرر السامع ذلك الدرس على نفسه عدة مرات من خلال التمارين والمذاكرات .

وإذا كان الشيخ الأنصاري ـ عليه الرحمة ـ الذي كتب كتباً تعدُّ دوائر معارف للمجتهدين والمراجع يستمع أسبوعياً إلى محاضرة أخلاقية يلقيها أحد تلامذته ، ثم يعقّب على تلك المحاضرات بقوله : إن قلوبنا علاها الصدأ وما علينا إلا أن نحضر محاضرة الآخوند الهمداني في الأسبوع القادم ـ هذا على سبيل المثال ـ كيما نتمكن من جلي الصدأ عن قلوبنا .

ويقول أيضاً : إن محاضرةً واحدةً في الأسبوع كافية ، مشروطة بتكرار المحاضر والسامع لها ، كي تأخذ العبارات الأخلاقية مساراً في النفس البشرية ، فتحيلها إلى نفس ملتزمة مطيعة عاملة ، ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يتعداه إلى العمل بما كرر من معان أخلاقية ، ولا بأس أن يحدد الإنسان ساعة في كل (٢٤) ساعة لهذا التكرار الأخلاقي .

يقول أحد العلماء الكبار : « لا أعرف السبب في احتياج الفقه والأصول والفلسفة والعلوم الطبيعية وعلم الجفر إلى أساتذة ، ولا يحتاج علم الأخلاق بظرافته ولطافته ودقته إلى أستاذ ؟! .

أقول لكم : إنكم ترومون شهادات ، ونيل الشهادة الدراسية يتطلب رؤية الأساتذة ، وعمل التمارين ، وتكرارها ؛ ولكن هل علم الأخلاق أقل من تلك العلوم في نظركم ، حتى لا يحتاج إلى متابعة وتكرار وأستاذ ؟ .

إننا ـ مع الأسف ـ نهتمُّ بجميع الأمور باستثناء تلك التي هي لازمة لحياة سعيدة ! .

إن في آيات القرآن الكريم تكراراً واضحاً ، وينبغي أن يكون كذلك ،

وإذا انعدم ذلك فيه عدَّ ناقصاً ـ والعياذ بالله ـ، وقد تستمعون إلى تكرار بعض الجمل مني ، ولا تظنّون بأنها مكررة ، ولا يعلق على ذلك بشيء .

أما بالنسبة لآيات القرآن الكريم ، فليس بهذا الشكل مطلقاً ؛ فقد يطول البحث في آية قرآنية واحدة عاماً واحداً دون أن تكون تلك الآية مكررة .

وما التكرار الموجود في آيات القرآن الكريم ، إلا من أجل التمعن والتفكير في آية من الآيات على مدار أسبوع واحد في الأقل .

ومن هنا نفهم أن التمرين من مستلزمات الرسوخ ، وما التكرار إلا للتمرين والتوكيد .

قديما ذهب أحد العلماء إلى عيادة أحد الأطباء في أصفهان ولم يكن في كل أصفهان حينها غير طبيبين لا يراجعهم أحد ، فيجلسان لقراءة القرآن الكريم كيما يراجعهم أحد على عكس ما نراه اليوم من زحام على عيادات الأطبّاء الذي قد يطول زمانه على أحدهم ساعات وساعات ، وهذا هو من هدايا تمدُّن اليوم وحضارته .

على أيّة حال : جلسَ ذلك العالم في عيادة الطبيب حيث كانت قبلَه امرأة قروية تسعى لفهم مسألة من الطبيب ؛ وتقول : أيها الطبيب لقد وضعت النسخة التي كتبتها لي في الماء بعد أن سخّنته جيدا ، ثم شربت ذلك الماء ، ولم أر تغييراً يذكر على حالتي فما السبب في ذلك ؟ .

اغتاظ الطبيب وصاح بها : لقد قلت لك بتسخين الدواء الذي كتبته لك على تلك النسخة ، والذي كان المفروض بك أن تشتريه من الصيدلية ، ولم أقل لك بتسخين النسخة في الماء ؟! .

إنك بعملك هذا تحرِّمين على نفسك لقمة الخبز التي يتعب بها زوجك من أجلك! أنه أعطاك الخبز لتأكليه ولم يعلمك كيفية العيش ! .

فضحك من كان في العيادة وسخروا منها . وبعد ذلك ندِم على فعلته وكتبَ نسخةً جديدةً وقال لها : أختاه هذه هي نسختك فاذهبي إلى الصيدلية الواقعة في المكان الفلاني ، واشتري هذا الدواء الذي كتبته لك ، وحين تتناوليه

تشفين بإذن الله تعالى .

وجاءت نوبة العالم ليدخل على ذلك الطبيب ويقول له : ما الذي فعلتَه أيها الطبيب المحترم ؟ .

فأجاب : بما الذي فعلت ؟ .

فقال العالم : لقد كان فعلُك مع تلك المرأة القروية المظلومة سقوطاً ، بل تسافلاً ، لأنك أهنتَ امرأةً مسلمةً ، وأن الإمام الصادق (ع) يقول : « من أهانَ وليّاً فقد بارزني بالمحاربة »[1] .

والمسألة الثانية أنك سخرت منها واستهزأت بها ، وأن الفرد لا يخرج منَ الدنيا حتى يرى عاقبةَ أمره ذلك ، أو يتوب ويستغفر ؛ وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنُوا لا يسخرْ قومٌ منْ قومٍ عسى أن يَكُونوا خيراً منهُم . .** ﴾[2] .

أما السقوط الثالث الذي سقطته ، فهو قولك لها : « إنك بعملك هذا تحرِّمين على نفسك لقمة العيش التي يتعب بها زوجك من أجلك » وهذا كذب محض ، وعلى العكس من ذلك ، فهي امرأة نشيطة تهتمُّ ببيتها وزوجها وأولادها ، ولو تأتّى لزوجها أن يتلف من أجلها كل مال الدنيا ، فهو قليل بحقِّها ، لإخلاص فيها ، ورحمة على أولاده .

وعليه ينبغي للإنسان التحفظ فيما يقول ، فقد يؤدي به حديث أو جملة واحدة إلى عدة منحدرات من قبيل التهمة والغيبة والكذب وما إلى ذلك من العبارات النابية التي يراد منها إهانة خلق الله وعباده .

ومن خلال مطالعتنا لبعض الروايات عرفنا أن البعض من الناس يسعى نورهم بين أيديهم يوم القيامة ؛ فمن الظلم أن يتلف الإنسان ذلك النور بكذبة أو اتهام أو غيبة أو سخرية يريد بها دفع التعب عن كاهله ، فيسخر ويضحك ويستهزىء بالآخرين . وإن الإنسان ليظلِمُ نفسَه عندما يؤتى به على هيئة كلب أو

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ ـ ص ١٤٢ ـ باب ٥٦ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١ .

خنزير أو لص . إنها جنايته على نفسه ، وليس لأحد في ذلك الأمر يد ، فهو الذي اتهم فلاناً ، فأحاله الباري يوم القيامة إلى قرد أو خنزير ، وهو الذي سبَّ زيداً ليصير إلى كلب في يوم كشف السرائر وبلائها .

لقد قال لي أحد العلماء ـ رحمة الله عليه ـ إن التفكير بما سيؤول إليه الكاذب والساخر والمستهزىء وما إلى ذلك يقصِم الظهر ، فتعالَوا ننتهِ جميعاً عن تلك الرذائل بعيداً عما يمكن أن نصير إليه .

« اللهمّ اغفر لي ما أنت أعلم به مني ، فإن عدت فعد عليَّ بالمغفرة .

اللهمَّ اغفر لي ما وأيت من نفسي ، ولم تجد له وفاءً عندي .

اللهمَّ اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني ، ثم خالفه قلبي .

اللهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ ، وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان ، وهفوات اللسان » .

[٤]
سير إلى اللّـه

موضوعنا هذا يـدور حول أولئـك الذين اهتَـدوا إلى الصراط المستقيم والطريق القويم .

والأخطار المحدقة بهم في سيرهم هذا ، أخطار خارجية وأخطار داخلية ، أخطار باطنية وأخطار يمكن أن تواجههم في مجتمعاتهم .

إن تلك الأخطار الخارجية والداخلية تحاصر الإنسان لتحرفَه عن الجادة الصواب والطريق المستقيم .

وكما قلنا إن الطريقَ ذاك الذي سمَّيناه الصراط المستقيمَ هـو أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وإن الغفلة لتحرفنا عن ذلك الصراط الـدقيق ، فنصير حينها إلى ما لا تحمد عقباه .

فالغفلة خطر حقيقي يؤدي بالمرء في بعض أحيانه إلى الكفر .

وبناءً على ذلك ينبغي للإنسان أن ينتبِهَ إلى ما هو فاعل وإلى ما هو قائل كي يبقى سويّاً في سيره إلى خالقه .

فمـا أكثر الـذين أعرفهم من المقـدّسين عند أغلب النـاس وهم علماء ومثقفون آلت عاقبتهم إلى سـوء من جراء انحـرافهم الذي صـاروا إليه لعـدم التزامهم بعض الفرائض ، أو لإيغالهم في المعاصي والآثام ! .

إن العدوَّ الأول للإنسـان ، وهو مـا يمكن احتسابـه عدوّاً بـاطنياً هـو :

« الغفلة » ، فلو غفل الإنسان عن بعض الفرص الدنيوية لخسر ، وكانت خسارته ماديةً (دنيوية) ، أو قد تكون الخسارة معنوية .

فلو تغافل الإنسان أو غفل عن بعض الأعمال الخيرية خسر نفحةً من نفحات الله ـ جلّت أسماؤه ـ .

قال (ص) : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات الله ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده »[1] .

وقال أيضاً (ص) : « تعرَّضوا لرحمة الله بما أمركم من طاعته »[2] .

لقد شاهدنا في مجمل حياتنا الكثير من الرجال والنساء الغافلين الذين أذهبوا دنياهم سُدى ، وكذا الآخرة وما فيها من نعيم تُسدُّ أبوابها في وجوههم إذا غفلوا عن الخير .

وقد شبَّهَ القرآن الكريم الغافل عما يدور حوله من عظمة لله ونفحة خير له بأقل من الحيوان فقال : ﴿ **ولقدْ ذرأْنا لجهنمَ كثيراً منَ الجنِّ والإنسِ لهمْ قلوبٌ لا يفقهونَ بها ، ولهمْ أعينٌ لا يبصرونَ بها ، ولهُم آذانٌ لا يسمعُونَ بها ، أولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ أولئكَ همُ الغافلونَ** ﴾[3] .

فإذا استفدنا من هكذا آياتٍ ، وجعلناها على رأس أعمالنا نصل إلى ما نريد ، ولو تأتَّى لنا فعل ذلك من قبل لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من مصائب وبلايا ولا بأس بقراءة هذه الآية يومياً لكي يخرج الإنسان من غفلته ، بعد أن يفكر في الوضع الذي سيؤول إليه يوم القيامة بغفلته ، فقد يضحى حماراً ليس إلا ، ويأتي إلى صفوف الحشر ليشاهده الناس على حقيقته التي جرَّته إليها الغفلة والتغافل .

إنها ألدّ أعداء الإنسان ولو استولت عليه ـ لا قدّر اللّهُ ـ آل البشر إلى ذلة ما بعدها ذلّة .

---

(١) كنز العمال/خ ٢١٣٢٥ .

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

إن أغلب البشر ضاعوا في متاهات هذه الحياة الدنيا ، فتغافلوا وغفلوا عن الدين والمسائل المعنوية والأخلاقية ، بل إن الكثير منّا لا يطرق ذهنه وفكره المسائل المعنوية ، وعلى سبيل المثال ، يصلي ويصوم ويزكي من أجل أن لا يدخل جهنم ولكنه لا يعرف شيئاً عن القضايا الأخلاقية أو المعنوية .

وإن ٩٠٪ من الناس لا يلتفتون إلى هكذا مسائل .

وهذه المسائل هي التي ستؤدي بالإنسان إلى أن يتحسَّر ويتأوَّه ويعضَّ على بنانه عند الموت ، وفي حالة الاحتضار .

فهل فكّر أحدنا بالتكبُّر الذي فينا ، وإلى أين سيؤدي بنا ؟ .

هل سأل أحدنا نفسَه ما مصيرُنا لو وصل الأمر أن تكون الصفات الرذيلة هي الحاكمة على أخلاقنا من قبيل الحسد والكذب والمنة ؟ .

هذه هي عين الغفلة!! .

نوم ما بعدَه نوم ، وغفلة ما بعدها غفلة ؛ الويلُ لنا من هذه الغفلة .

يقول رسول الله (ص) : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا »[1] .

وعند ذاك لا يحتاج المرء إلى ديبلوم وبكلوريوس وماجستير ، لأن الجميع هناك يقِظون منتبهون غير غافلين ولا نائمين، فلا يحتاج أحد حينئذ إلى العلم لكون الجميع يرون بعضهم البعض ، بلا ستر ولا حجاب ، فيتعرّفون أعمال بعضهم البعض وتسقط الخدود حياءً وخجلاً من رسول الله (ص) الذي سيكون حاضراً عندما يحاسب الباري أمته ؛ وهناك : ﴿ **يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَه أمداً بعيداً ويحذِّركمُ اللّهُ نفسَهُ** ﴾[2] .

قال أمير المؤمنين وسيِّد الوصيين علي (ع) : « الغفلة والغرور أشد سكراً

---

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ ـ ٧٥٨ ، كتاب الموات وأحوال تقع بعده .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

من الخمور »[1] ، وقال الإمام الصادق (ع) : « إيّاكم والغفلةَ ! فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه ، وإيّاكم والتهاون بأمر الله عزّ وجلّ فإنه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة »[2] .

إن الروايات المتواترة تخبرنا بوضع الغافل عندما يطرق بابه ملك الموت بعد أن قضى عمراً طويلاً في الضلالة والانحراف ، قضى عشرات السنين مثله كمثل الأنعام بل كان أضلّ منها ، يصحو صباحاً ليذهبَ إلى المدرسة أو الجامعة أو الدائرة وفي الليل يأكل غذاءه لينام ، أو ليقوم ثانيةً في اليوم التالي ليمارس نفس الأعمال التي مارسها بالأمس دون الالتفات إلى ما يريد الله منه ، وعند الاحتضار يقول : ﴿ **ربِّ ارجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومنْ ورائهم برزخٌ إلى يومِ يبعثونَ** ﴾[3] وعند ذاك يسأل عن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه فلا يتاح له أن يجيب .

وبماذا يجيب ؟ .

إنه لم يعمل خيراً ، وإذا كان قد عمل خيراً ، فبِمنَّة وضعها في رقبة ذلك الرجل الذي قَبِلَ الخير منه .

إن الإنسان موجود مركب من بُعدين : بعد مادي ، وبعد معنوي ، وليس من الأنعام في شيء ، ولكنه يضحى كذلك حينما يغفل عن أمر الله تعالى ، ويجري خلف الماديات دون المعنويات ، ومن هنا تبدأ البليّة والرزيّة ، فحاله حال ذلك الذي يذهبون به إلى المحكمة ، وقبل بلوغ طاولة المحاكمة يكرهونه على كتابة كل أعماله ويقرونه عليها ، ويثبتون ذلك في ملفّه الأسود ؛ هكذا يأتي المسيء إلى ساحة الحشر التي أعدها الجبار المتكبِّر .

وعند ذلك يطلب من البشر عرض أعمالهم ، فمن كان له عمل من أجل الآخرة نجا ، واخضرَّت بساتينه ؛ ومن جاء بلا عمل إلا السيء منه غاب في ظلمات كبحر لجيّ .

---

(١) غرر الحكم/ص ١٤ ، ص ٧٢ .

(٢) ثواب الأعمالجص ٢٤٢

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٠

﴿ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهِيَ الحيوانُ لوْ كانُوا يعلمونَ ﴾[1] .

كان لقمان الحكيم غلاماً لأحد الناس ، وكان مولاه إنساناً جيداً ، ومن المعتقدين بالله ـ تعالت أسماؤه ـ ولكنه كان مغروراً ، وعند المساء نام الجميع وهدأت الأجساد ، ولم تمض إلا سويعات حتى فاق لقمان لصلاة الليل ، ولكنه لم ير أثراً لمولاه الذي يدَّعي الاعتقاد بالله ، فتعجب للأمر وذهب إليه وقال له : سيِّدي الجليل أفِق من نومك لنصليَ معاً صلاة الليل ، فقافلة المصلين لم تغفل عن الأجر والثواب ، وهمسات سبوح قدوس قد ملأت أرجاء الكون ، فانهض للصلاة يا سيِّدي ! .

فأجابه : ما أزال أحتاج إلى النوم ، فدعني ساعةً ، وسأقوم بعدها وإن الله أرحم الراحمين . وصار الوقت إلى أول أذان الصبح ، فذهب إليه ثانيةً ، وقال له : قُم لصلاة الصبح أول وقتها ، فأجابه : دعني أنام قليلاً وسأقوم بعد ذلك ، فإن الله أرحم الراحمين . وقرابة طلوع الشمس جاءه لقمان للمرة الثالثة ليقول له : انهض يا سيدي ، فالصبح قد لاح ، والديك قد صاح ولم يبق على الشروق إلا مسافة رمح واحد ، فأجابه : دعني يا هذا ! فإن الله أرحم الراحمين .

بزغت الشمس ، وصاحبنا غافل عنها يغطُّ في نوم عميق ، ولم يُفق من نومته تلك إلا عندما أحرقت أشعة الشمس ساقيه اللتين خرجتَا من تحت غطائه .

وفي الصباح أعطى لقمان حفنةً من القمح وقال له : اذهب إلى المزرعة الفلانية وابذُر هذه الحبوب هناك .

ومن أجل أن يعطيَ لقمان مولاه درساً ذهب إلى هناك وبذر حبوباً من « الدُّخن » ورجع ليخبره بذلك ، فقال له مولاه : هل جننت بفعلك هذا ؟ .

فقال لقمان : إن الله أرحم الراحمين ، وقد رأيت أن القمح ثمين والدُّخن غير ذلك فآثرت زراعة الأخير علَّنا نحظى بالقمح وإن الله أرحم الراحمين .

فقال له مولاه : من أين تعلّمت ذلك ؟ .

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

قال : منك يا مولاي لكونِك تنام الليل كله ولا تصحو لصلاة الصبح وتقول إن الله أرحم الراحمين ترجو بذلك الفوز بالجنة والرضوان وحور العين ونور يعلو وجهك في محشر يوم القيامة !! .

بل إن ما زرعتُه سوف تحصده ، فمن زرع قمحاً حصد قمحاً ، ومن زرع دخناً حصده والدنيا مزرعة الآخرة .

قال عزّ من قائل في محكم كتابه : ﴿ . . **يَوَدُّ المجرمُ لوْ يفتدِي من عذابِ يومئذٍ ببنيه ، وصاحبتِهِ وأخيهِ ، وفصيلتهِ التِي تأويه ، ومَنْ فِي الأرضِ جميعاً ثمَّ ينجيهِ ، كلاّ إنَّها لظى ، نزاعةً للشوى** ﴾[1] .

وهنا تبدو الحسرة والندامة على الغافلين حينما يَرونَ المجموعات وقوافل الشهداء والصالحين ومن حسنت رفقته مشغولين بالورود إلى جنة المأوى ، يسعى نورهم بين أيديهم ؛ ﴿ **يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورهُم بينَ أيديهِم وبأيمانهم بُشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجرِي منْ تحتهَا الأنهارُ خالدينَ فيها ، ذلكَ النورُ العظيمُ** ﴾[2] .

إنهم لم يحظوا بذلك اعتِباطاً ، بل لأنهم كانوا مؤمنين ، أقاموا الصلاةَ وآتَوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر ، وصدَّقوا وعفُّوا أفواههم وبطونهم وفروجهم عن الحرام فجعل لهم ـ تعالت أسماؤه ـ نوراً يسعى بين أيديهم وبإيمانهم ، وبشَّرهم بجنات تجري من تحتها الأنهار ؛ إنهم كانوا مكابدين ومجاهدين وعاملين على علم ، فأرضاهم الباري بأن حباهم فوزاً وسعادةً وخلوداً .

أما الذين لم يعملوا خيراً في حياتهم فتراهم يلتمسون الفائزين ﴿ **يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنُوا انظُرُونَا نقتبِسْ منْ نوركِم ، قيلَ ارجِعُوا ورائكم فالتمِسوا نوراً ، فضربَ بينَهُم بسُورٍ لهُ بابٌ باطنُهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرهُ من قِبَلِهِ العذاب ، يُنادونَهُم ألمْ نكنْ معكم ، قالوا بلى ولكنَّكم فتنتُم**

---

(١) سورة المعارج، الآيات ١١ ـ ١٦ .

(٢) سورة الحديد، الآية ١٢ .

أنفسَكُم وتـربَّصتم وارتبتُم وغرّتكم الأمـانِيّ حتى جاءَ أمـرُ اللّهِ وغرّكُم بـاللّهِ الغَرورِ ﴾[1] .

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ، أي انظروا إلينا ، فإذا نظروا إليهم استضاؤا بنورهم ، أو انتَظِرونا لأنهم يمضون كالبرق الخاطف إلى الجنة (وقرىءَ بهمزةٍ وكسرِ الظاء) أي أمهلونا (نقتبس) نأخذ قبساً (من نوركم) فقيل لهم تهكماً بهم (ارجعوا وراءكم) إلى المحشر حيث أعطينا النور (فالتمسوا نوراً) أو إلى الدنيا فاطلبوه بالإيمان والطاعة (فضرب بينهم) بين الفريقين (بسور) بحائط (له باب باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) بـالجنة للمؤمنين (وظـاهره من قبله) من جهتـه (العذاب) بـالنار للمنـافقين (ينادونهم ألم نكن معكم) أي أننا كنا موافقين لكم ظاهرياً (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) بالنفاق (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (واتبتم) وشككتم في الدين (وغرتكم الأماني) الآمال الطوال (حتى جاء أمر الله) بالموت (وغرّكم بالله الغرور) أي الشيطان أو الدنيا .

لقد ذكرنا في بحثنا الأول أن الندامة تبدأ من ساعة الاحتضار لتستمر إلى يوم القيامـة ، وعندمـا ييأس الجهنميـون من رحمة أو بـرد أو سلام يشـرعون بالاصطراخ (وهم يصطرخون فيها) ، أي يستغيثون بصراخ أي صياح قائلين : ﴿ ربّنا أخرِجنا نعملْ صالِحاً غيرَ الذي كُنّا نعمل ﴾ ونحسبه صالحاً وقد تحقق الآن لنا خلافه فيقال لهم توبيخاً ﴿ أولَم نعمِّركم ﴾ عمراً ﴿ ما يتذكَّر فيه من تذكَّر ﴾ رويَ أنها ستّون ، وقيل : أربعون ، وقيل : ثماني عشـر ﴿ وجاءكم النذيرُ ﴾ الرسول أو الكتاب أو الشيب أو العقل أو موت الأهل ﴿ فذُوقوا فمَا للظالمينَ منْ نصيرٍ ﴾ لا يوجد من يدفع العذاب عنهم ﴿ إنَّ اللّهَ عـالِمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ ﴾ ولا يخفى عليه شيء [2] .

إن أعلى مراتب الظلم تتمثل في عدم معرفة الإنسان لنفسه ، لا يعرف أين هو ؟ ومن أجل أي شيء جاء ؟ وإلى أين يتجه في سيره ؟ .

---

(١) سورة الحديد، الآيتان ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٨ .

لذا يتطرّق القرآن المجيد إلى تبيان مقام الإنسان السامي وحمله للأمانة الإلٰهية .

﴿ إنّا عرضنَا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أن يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحملَها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جَهُولاً ﴾[1] .

و **﴿ إنْا عرضنا الأمانةَ ﴾** أي عرضنا الطاعة المعلق بها الفوز فإنها واجبة الأداء كالأمانة **﴿ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحملنَها ﴾** أي هي لعظمتها بحيث لو عرضت على هذه العظام وكان لها شعور لأبيْن حملها **﴿ وأشفقن ﴾** خِفن **﴿ منها وحملها الإنسان ﴾** مع ضعفه ، أي جنسه باعتبار الغالب **﴿ إنهُ كانَ ظلوماً ﴾** حيث لم يؤدِّها **﴿ جَهولاً ﴾** بعظمة شأنها أو أريد بالأمانة ما يعمُّ الطاعة الطبيعية والاختيارية .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « كفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره »[2] ؛ فمن جهل قدر نفسه ضلَّ وانحرف وعمل على وفق ما تمليه عليه نفسه الأمَّارة بالسوء ؛ على العكسِ من ذلك الذي عرف قدر نفسه ، فكان حذِراً في قوله ، حذِراً في فعله وفي كلِّ حركاته وسكناته ، ولا بأس بالمرء أن يفكر في هذا الأمر المهم ولا يغفل عنه ، لكون الغفلة تؤدي بالإنسان إلى ممارسة المعاصي ؛ قال رسول الله (ص) : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع) : « أي بنيّ ! الفكرة تورث نوراً ، والغفلة ظلمة . . . »[4] .

وقال ـ سلام الله عليه ـ أيضاً : « التفكر يدعو إلى البر والعمل به »[5] .

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ١٤٩ .
(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ٣٢٦ .
(٤) تحف العقول/ص ٦٥
(٥) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٥ .

« اللهمّ صُن وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار ، فاسترزق طالبي رزقك ، واستعطف شرار خلقك ، وابتلي بحمد من أعطاني ، وافتتن بذم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنع إنك على كل شيء قدير » .

[٥]
سير إلى اللّـه

تعرضنا في بحثنا السابق إلى موضوع العدو الأول الذي هو الغفلة ، ونتعرض في هذا البحث إلى موضوع العدو الثاني الذي هو أيضاً عدوٌّ مهمٌّ وخطير ينبغي لنا أن نحاربه ونجاهد من أجل دفعه مثلما نريد دفع الغفلة عنا التي تريد أن تحرفنا عن الطريق القويم حالها حال العدو الثاني الذي يلتزم الغاية نفسها .

والعدو الثاني هو : التخيُّلات الوساوس ، الأماني والرغبات .

فالتخيُّل والتمنِّي هما أساس وجذور الكبر والتكبر ، فنرى الإنسان المخيِّل يتصور نفسه أفهم وأعلم من الآخرين بعد حصوله على شهادة الماجستير مثلاً فتراه يتكبر على من هم أقل منه مراحل دراسية فيصدر عن التكبر مسألة التفاخر .

فالتفاخر موجود بشدة عند الغالبية العظمى من النساء ، وكذا عند أهل العلم والمثقفين ، فنراهم مثلاً يستخدمون كلمة « أنا » بإسهاب يتصورون أنهم يمتلكون علم الأولين والآخرين ولا يعرفون أن علمهم لا يساوي قطرةً في بحر ! ﴿ وما أُوتيتُم منَ العلمِ إلّا قليلاً ﴾[1] .

هل فكّر أحد هؤلاء المدَّعين للعلم والأعلمية بالمكان الذي جاء منه العلم ؟ أو الشخص الذي أعطاه ؟ .

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

وهل هو ملك لذلك الذي يقول « أنا » و « أنا » ، فلو كان العلم في أصله لك ، فلا بأس أن تتفاخر ، ولكنك تعرف جيداً أنك مكتسب للعلم ليس إلا .

ولكن التخيُّل والتوهُّم هو الذي جعلك تتصور معرفتك لكل الأمور ، وأنك تعلم السر وما يخفى .

هذا لكونك تعلمت عدة اصطلاحات أدبيّة؟! أو بضعة قوانين رياضية؟! .

ومن خلال تلك المعلومات التي هي ضائعة في مقابل العلم والعلماء تتفاخر على الصغار والكبار ؟! .

قد يتخيَّل المرء أن المال شيء والرياسة شيء ، والرياسة أمر اعتيادي ، وامتلاك الأموال أمر اعتيادي ، وعلى الرغم من أن الأمر اعتيادي تراه يتخيَّل بأنه أصبح شيئاً مهماً ، وأنه بامتلاكه لتلك الأموال والرياسة خالد ولا يعرف الموت إليه طريقاً .

﴿ ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزةٍ ، الذي جمعَ مالاً وعددَهُ ، يحسبُ أنَّ مالَهُ أخلدَهُ ﴾[1] إنه الخيال ولا شيء غيره .

لقد تخيل صاحبنا أنه سيخلَّد في الدنيا فاشتد حرصه على ماله ، أو قد يكون طال أمله فأغفله عن الموت وحسب أنه مخلد ؛ قال رسول الله (ص) : « إن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة »[2] .

هذا ناهيك عن أن جمع الأموال وطلب الرئاسة والحكم تدخل ضمن حب الدنيا ؛ قال رسول الله (ص) : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « . . . فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب »[4] .

---

(١) سورة الهمزة، الآيات ١ ـ ٣.

(٢) كنز العمال/خ ٤٣٧٦٤ ، بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١٦٢

(٣) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٢

(٤) الكافي/ج ٢ ، ص ١٣٦

وخلاصة الأمر : هي أن حب الدنيا وحب المال يجر إلى التخيل والتوهم ، والعاقل لا يمكن أن يقع في الخيال والتوهم الذي يوقع الإنسان في الافتخار على الآخرين بلا مبرر حقيقي .

فإذا قال : أنا عالم ، فالعلم الذي عنده مكتسب ، والعالم هو الله وحده وهو الذي يجب أن يفتخر بعلمه ، ولذا لا يرضى الله أن ينازعه من هو دونه في صفاته وعليه يقول : ﴿ **إنَّ اللّهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ** ﴾[1] .

فالآمال والتمنيات وكذا الحرص من التخيُّل والوهم ، وكلها تؤدي إلى اتباع الهوى الذي يصدُّ عن الحق فينسى المرء آخرته ، ويتركز تفكيره في ما عنده من أموال وسلطة وإمكانية .

إن التخيّل والتوهُّم أقوى وأمضى من الغفلة ، لكون التخيُّل يصور لك وجود شيء غير موجود ؛ فعلى سبيل المثال : لو ذهب أحد الجبناء إلى مقبرة تراه يتخيَّل أن أحد الموتى يتبعه فيترتب على ذلك هروبه وفراره من ذلك الميت الذي لا أساس لوجوده أو لمتابعته ، وقد يشعر الأكثر جُبناً بأن الميت أمسك بتلابيبه فيُغشى عليه على الرغم من أن ذلك الميت المسكين تحت التراب لا يقوى على التنفُّس فكيف بالحِراك!! .

وعليه فالتخيُّل والتوهُّم كانا باعثين على رؤية الجبان لميت يجري خلفَه ناهيك عن الإمساك به! .

وإن بعض الأحلام وانمنامات تستقي من هذا المنبع ، فيرى بعضهم أن رجلاً يلهب ظهره بالسَّوط ، وعندما يفيق من نومه يرى متعرقاً وخاملاً يبدو عليه التعب والنصب .

إن التخيّل يترك آثاره على الجسم أيضاً ؛ فبالرغم من عدم شخص حقيقي ضربه بسوط ، تراه متعباً خاملاً وكأنه تلقى ضربات سوط من أحدهم ، ويقال إن تخيُّله هو الذي ضربه بسوط غير مرئي ولا محسوس إلا في كوامن ذلك النائم ! وكذا الأمر بالنسبة للإيحاء ؛ ولا بأس بإيراد مثال على ذلك :

---

(١) سورة لقمان، الاية ١٨ .

كان أحد العلماء جادّاً في عمله ، وكان له مدرسة لا تغلق أبوابها ولو يوماً واحداً في السنة ؛ فأراد تلامذته معاكسته بعض الشيء ليتمكنوا من الحصول على عطلة لعدة أيام ، فاتفقوا على الأمر وتنفيذه من صباح اليوم التالي ؛ وما أن بزغت شمس اليوم التالي حتى جاء أحدهم صباحاً وسلّم على الأستاذ ، فرد عليه السّلام .

وقال التلميذ : عذراً يا سيدي ماذا أصابك ؟ وجهك أصفر ، فما الذي حدث ؟ .

فقال الأستاذ : اذهب واجلس مكانك إن وجهي ليس بأصفر!! .

فحضر التلميذ الثاني ليقول مثل صاحبه الأول ، فأجابه الأستاذ بما أجاب صاحبه .

وجاء الثالث والرابع والخامس ليقولوا مثل ما قال الأوائل ، فاصفرَّ وجه الأستاذ فعلاً ، وما إن توالى عليه السادس والسابع والثامن حتى علت درجة حرارته وأصيب بالحمى ، وعندها جاء التاسع والعاشر من التلاميذ ، ليقولوا له بمثل ما قال أصحابهم ، وإذا بالأستاذ يسقط على الأرض فينقله التلاميذ إلى غرفة نومه للاستراحة ، وبذلك تمكّنوا من تعطيل الدراسة .

وهذا ما نراه جليّاً في عمل أطبّاء علم النفس ، إذ يتمكن البعض منهم من تنزيل حرارة المريض من (٤٠) درجةً مئويةً إلى (٣٧) درجةً مئويةً ، وكثير هم الذين تمكنوا من الشفاء بالإيحاء إليهم وتلقينهم ؛ فنرى مثلاً سقوط أحدهم وعدم إمكانيته من القيام ، ولكن علماء وأطبّاء النفس يتمكنون من مساعدته بالقيام والخروج على حالته تلك بالإيحاء إليه وإدخاله في حالة خيالية ووهمية غير حقيقية فينهض وكأن الأمر لم يكن .

لذا ، يمكن اعتبار الخيال والوهم والآمال والمنى من المسائل والقضايا التي يمكن معها خروج المرء عن جادة الصواب .

وعليه ينبغي له أن يلتجىء إلى الله من شر هذه التخيلات والأوهام التي تؤدي بالبشر إلى مهاوي الضلالة والانحراف .

إن آخر سورة في القرآن الكريم تبين لنا بكل دقة، الانتهاءعن التخيلات والوساوس التي قد تبتعد بنا عن طريقه المستقيم وصراطه القويم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ ، ملكِ الناسِ ، إلَهِ الناسِ ، منْ شرِّ الوسواسِ الخناسِ ، الذي يوسوسُ في صدورِ الناسِ ، من الجنةِ والناسِ ﴾[1] .

أي إلّهي إنّي ألتجىء إليك من شر الذين يوسوسون وسوسةً سيئةً وباطلةً بشكل حسن وهيئة حق ؛ وقد يكون الإنسان في بعض الأحيان أسوأ من شياطين الإنس والجن ، فيكون هناك وسوسة من عنده إلى نفسه وذلك بالضرب في الخيال الأماني والرغبات .

وهذا النوع لا دخل فيه للشيطان أصلاً .

رأى أحدهم في منامه أحد الشياطين وقد أمسك بحبالٍ مختلفة ، فسأله صاحبنا عن سبب إمساكه بتلك الحبال ؟ .

فأجابه الشيطان : بهذه أُقيِّد الناس وأذهب بهم إلى جهنم ! .

فقال الرجل : وأيُّهم حبلي ؟ فأجابه الشيطان : أنت وأمثالك لا تحتاجون إلى حبال ، لأنكم تأتون بأرجلكم ! .

قال تعالى في محكم كتابه : **﴿ ومن يغشُ عن ذكرِ الرحمنِ نقيِّضُ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ، وإنَّهمْ ليَصدُّونَهُم عنِ السبيلِ ويحسَبونَ أنّهم مهتدونَ ﴾**[2] .

« اللهمّ إني أعوذ بدرعكَ الحصينة من درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء ، وأعوذ بك من الفقر والوقر ، وأعوذ بك من سوء المنظر في الأهل والمال والولد ، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين » .

---

(١) سورة الناس، الآيات ١ ـ ٦ .

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

[٦]
سير إلى اللّـه

إن الخيال والضرب فيه ، وسبر أغواره هو أساس التكبُّر .

ومن أراد أن يبتعد عن التكبُّر فليمعن النظر في هذه الآية المباركة ؛ قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ **هوَ الذِي خلقَكُم من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمَّ منْ علقةٍ ثمّ يخرجُكُم طفلاً ثمَّ لتبلغُوا أشدُّكم ، ثم لتكونُوا شيوخاً** . . ﴾[1] .

خلق الإنسان من مكونات التراب ، ثم من نطفة نجسة ليصير في آخر عمره إلى جيفة نتنة فلِمَ التكبُّر ؟ .

بأي شيء من هذه الأشياء يتكبَّر ؟ أبالنطفة التي صار منها ؟ أم بالجيفة التي سيصير عما قريب إليها ؟ .

فلو فكّر الإنسان في وضعه هذا لما تكبَّر ولما اغترَّ بنفسه ، ولتواضع أشد التواضع ، لأنه بلا هذا التفكير ، يمكن أن يسرح في الخيال ويتصور نفسَه شخصاً مهماً ، وعالماً فحلاً وأن الناس يجلُّونه لذلك .

فيمشي مختالاً فخوراً معجباً بنفسه .

إن الخيالات التي قد يعيش المرء في وسطها ، تحمل الإنسان على إلقاء نفسه في المهالك دون أن يشعر فيصير كدودة القز التي تلفُّ حولها خيوط الحرير ، لتختنقَ بعد ذلك من جرّاء ذلك اللفّ . وكذا الهائم في بحر الخيال تراه يلفُّ خيوط الخيال ويجعل منها نسيجاً يصنع منه ما تريد نفسه ورغباته .

---

(١) سورة غافر ، الآية ٦٧ .

وكلما زاد في نسيجه ، ضعفت إرادته الإنسانية وضعفت أعصابه .

وكلما ابتعد عن الوساوس والخيالات بدا إنساناً سوياً سليماً .

كان أحد الدراويش يحمل فوق رأسه إناءً خزفياً مليئاً بالزيت ، وكان الوقت ليلاً ، وكان جالساً لوحده ففكر في كيفية بيع تلك الزيوت ليشتري بدلها حملاً ، فإذا صار لديه ثلاثة أو أربعة خراف ، حتى تتضاعف وتكون قطيعاً من الغنم ليبيع قسماً منه ويشتري بثمنه قصراً ، ثم يتزوج ويأتي بخادمة لزوجته ، وإذا توانت الخادمة في بعض أعمالها يضربها ـ وكانت في يده عصاً غليظة ـ فرفع عصاه وضرب الأرض وكأنما يضرب تلك الخادمة الخارجة على طاعته وعندها فيسقط إناء الزيت الخزفي على الأرض وانكسر وساح زيته ! .

إن الآمال والتمنيات تمكنت من ذلك الدرويش المسكين فضيَّع إناءه الخزفي وزيته الذي لا يملك في الدنيا شيئاً غيره ، وبذلك ضاعت آماله وأمنياته علاوةً على تضييع زيته فبات يائساً لا يقوى على شيء ومن هنا تنبع أصول الانحرافات .

« إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى ، فيصُدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل ، فيُنسي الآخرة »[1] .

وخلاصة الحديث : ينبغي لنا الابتعاد عن الولوغ في الخيال والأماني ، لأن ذلك لا يجرُّنا إلا إلى الابتعاد عن العمل الحقيقي ، وبذلك يصبح الإنسان ضائعاً تائهاً تتقاذفه تيّارات الضلالة والانحراف والتردي من سيء إلى أسوأ منه ، ولولا فضل الله على عباده لما نجا منهم أحد من تلك الأهواء والخيالات والتمنيات ، ولغرق البشر في بحر التكبُّر والحسد والحقد والضغينة وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

إن الخروج من زوبعة الضرب في الخيال تحتاج إلى إرادة ـ ولا نريد أن نكبِّر الأمر كثيراً ـ إلى إرادة متواضعة ؛ فعندما تتراءى للمرء الآمال والتمنيات والوساوس والتخيلات عليه أن يقطعَ على شيطانه تلك القضايا بشكل مفاجىء ،

---

(١) كنز العمال/خ ٤٣٦٦٤

ليشعر بالتحرر من ذلك الأسر الذليل ، ولا يسمح لتلك الخيالات بالسيطرة عليه ، بل ينبغي له أن يكون هو مسلّطاً عليها .

قد تكون هذه المعالجة صعبة بعض الشيء في بداية الأمر ، ولكن الأمر لا يعود كذلك بعد مدة من التمرّن والتدريب عليها ، فترى أنها قد أصبحت ملكة وأضحى الخيال في عالم النسيان .

ويمكن أن تعالج هذه الحالة أيضاً : بتذكير الإنسان لنفسه : بأنه أحد عباد الله تعالى ولا ينبغي لعباد الله الصالحين أن يتدنى مستواهم إلى هذا الحد ، فيراه الناس كالمجنون سارحاً في الخيال والأماني والوساوس ! .

إن بعض الأشخاص من الذين يعتبرون أنفسهم مقدَّسين يذهب دنياه وآخرته بهذه القضايا ، فيستخدم الدِّين لتطييب وساوسه وخيالاته ، فهو يتوضأ عدة مرات ، وفي كل مرة يتصور أن وضوءه باطل ، وأن بعض النجاسة مسَّت رجله اليمنى أو اليسرى ، ناهيك عن تردُّده في صلاته وطهارة لباسه الذي قد يبدله بضعة مرات في اليوم ، ظنّاً منه : أن النجاسة وصلت إليه .

إن الركون إلى الخيال قد يؤدي بالمرء إلى سوء الظن بالآخرين ، وسوء الظن يدخل في مداخل لا يرتجى منها إلا ما لا تحمد عقباه .

فمن يصاب بهذه الصفة الرذيلة يستولي عليه الانزواء والحذر من معاشرة الآخرين بشكل واضح ، وبهذا يتحطم ما في نفسه من استعداد للتقدم والاطراد ، وسوف تقدر له عيشة غير مرضيّة .

وقيل : إن سوءَ الظن أحد عوامل الانتحار ، وإن العزم على الانتحار ينشأ غالباً من سوء الظن بالحياة .

قال أمير المؤمنين (ع) : « إيّاك أن تسيء الظن ، فإن سوء الظن يفسد العبادة ، ويعظم الوزر »[1] .

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ثمَّ كانَ عاقبةُ الذينَ أساؤُا السُّوأ أنْ

---

(١) غرر الحكم/ص ١٥٤

كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ ﴾[1] .

وقال جلّت أسماؤه : ﴿ لا يزالُ بُنيانهمْ الذي بنوا ريبةً فِي قلوبهم . . ﴾[2] .

يقول أحد المراجع العظام في معرض حديثه عن وقوع الإنسان في شرك الخيال والظنون والشكوك والوساوس : كان أحدهم يتوضأ ، وفجأةً قال : أصابتني النجاسة ، فقيل له : لماذا ؟ رشح الماء عليَّ من الطابق الثاني وكان هو في الطابق الثالث !! .

فهل يمكن أن يكون ذلك ؟ لو كان في الطابق الثاني ورشح عليه الماء من الثالث لاختلف الأمر ، ولكنه كان في الطابق الثالث ، فكيف يرشح عليه الماء من الطابق الثاني؟! .

إنه الخبال ، لقد تخيل ذلك المسكين ترشّح الماء لكثرة الوساوس التي راودت ذهنه .

وإذا تمكنت الوساوس من امرىء أضحكت منه من حوله ! .

قال الفقهاء العظام : من جلس في ـ دار الخلاء ـ وشكَّ في أن بعض الماء النجس قد أصابه ، يبني على طهارته ، فإن تيقّن بنجاسته ، فهو نجس وإذا لم يتيقن ، فهو طاهر له .

وبغير هذا لا يمكن احتساب الوساوس ضمن دائرة اليقين : « كل شيء طاهر لك حتى تعلم نحاسته » (قاعدة فقهية)

قضى الشارع المقدس : بأن الدم نجس ، فإذا شككتَ في كونِ المادة التي لمستها دما أو غير ذلك ، كانت طاهرة ، وأن البول نجس ، فإذا شككت أن الذي أصابك من الماء بول أو غير ذلك بنيت على طهارته .

إن الوساوس ليست من الإسلام في شيء ، إنها من التخيُّل ، إنها بدعة

---

(١) سورة الروم ، الآية ١٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٠ .

في الدين ، والبدعة تعدُّ من كبائر الذنوب .

فلو أصاب إحدى النساء وسواس في طهارتها ونجاستها دلَّل ذلك على تخيُّلاتها وشكوكها ، فتراها على سبيل المثال ، تضع يدها تحت مجاري المياه لتطهِّرها ولو تأتّى لها فعل ذلك مرات احتسب معصية أكثر من تلك التي تترتّب على إظهارها ليدها أمام الأجنبي عن عمد ، وهذه هي عين الذِّلَّة في الدنيا والآخرة .

إن تلك الأمور والمسائل تبعث على تلف الوقت والعمل ، وتمحق نور الآخرة الذي يحتمل أن يصيب منه العبد شيئاً ؛ ناهيك عن عدم رضا الباري تعالى بهكذا أمور ، بالإضافة إلى امتعاض الرسول الأكرم (ص) والأئمة من أهل بيته (ع) .

« اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي لا تنال منك إلا برضاك والخروج من جميع معاصيك ، والدخول في كل ما يرضيك والنجاة من كل ورطة والمخرج من كل كبيرة وأسألك السعة في الرزق والزهد في الكفاف والمخرج من كل شبهة والصواب في كل حجة والصدق في جميع المواطن برحمتك يا أرحم الراحمين وصلّى الله على محمد وأهل بيته الطاهرين » .

جهـاد النفـس

حسين مظاهري

الجـزء الرابــع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تزامنت طباعة الجزء الرابع من جهاد النفس مع حدثين تاريخين مهمين :

الأول : العروج الملكوتي لمؤسس الجمهورية الإسلامية إلى الملأ الأعلى

والثاني : عودة أسرى الحرب الأعزّاء إلى أحضان الوطن الإسلامي .

لقد كان تواري الشمس التي بزغت من الغروب لتنير أركان الشرق بأشعة الإيمان والمضاء ثلمة عظيمة آلمت النفوس وأحزنت القلوب .

كان وجهه المحبوب مثلاً من أمثال شمس الولاية ، وسعيه الحثيث لمعة من لمعات منبع الرسالة الفيّاض .

فصلابته أخجلت صلابة الجبال الشمّ ، فدانت لصولته ، هيبته رقاب العالمين بعد اعترافهم بالعجز أمامه .

كان المثل الأعلى في الفقاهة والولاية ، حافظاً لدينه ، صائناً لنفسه مخالفاً لهواه .

إنه محيي دين الله ، وناشر لواء عدل رسول الله (ص) في جميع أركان العالم .

لقد منح الإسلام العزيز حياةً ورونقاً ما كانت له من قبل بعد أن بعث في الأمة الإسلامية روحاً جيّاشةً ثورية ، ليعيد بذلك ملحمة عاشوراء ، ورواية الحسين (ع) في كربلاء ، وينشر أشرعة القيام الحسيني على مجمل هذا الملك العظيم ، بعد أن عرَّف بالإسلام المحمدي الأصيل الذي طغت الغربة على أكثر مفاصله ، بإقامته للصلاة الإلّهية ، وإحيائه للحج الإبراهيمي ، وتحبيب الجهاد إلى النفوس البشرية ، فروى بذلك مجدداً عن علي (ع) طرق عدالته التي لا يتأتّى لفرد أن ينكرها .

كان معلماً ومثالاً للأخلاق الفاضلة ، ومربياً قديراً للنفوس المشتاقة ، عارفاً بالله سبحانه ونائباً بالحق لوليِّه ـ أرواح العالمين له الفداء ـ وظهيراً قوياً للمستضعفين ، ومطرقةً شديدة على رؤوس المستكبرين ، وملجأً للمساكين ونقمةً على المتجبرين ، وعزةً للمؤمنين ، وذلةً للمنافقين .

عاد الإسلام عزيزاً بعزته ، وتسافل الكفر إلى الحضيض بيُمن نفسه القدسية ، فكان وجوده المبارك شوكةً مريرةً في أفواه المتحجرين من عُمي القلوب .

كان الإيثار مبدأه ، والتضحية عقيدته ، وشرب المر بدل الحلو صفته لكي يعلم الإيثار والفناء في الله لكل دعاة الإسلام وطلابه .

أجل ، كان شمس أبراج الفقاهة الساطعة ، فأصابها الكسوف الكلي ، فما عاد نورها يسطع فعمَّنا ستار الفراق المظلم الذي مدَّ ظلَّه فوق رؤوسنا ، وأضحت الأمة الإسلامية بذلك في يتم وعزاء . . .

سألنا الباري تعالى أن يرفع روحه في علِّيين ، ويقبل منه الدعاء بحقنا آمين ، وينبغي أن نقول هنا :

إن ما نقشه على ألواح قلوبنا وأرواحنا لن يمحى أبداً ، وستبقى صورته الثورية فى بيدر الذاكرة أبداً .

الحمد لله تعالى على نعمائه في بقاء راية الإسلام خفاقة عالية ، بعد أن سلمها مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى تلميذه المخلص والمقتدر قائد الثورة

الإسلامية آية الله الخامئني (مد ظله) . والأمل كل الأمل أن يحقق القائد الفذُّ الأهداف المقدسة التي نادى بها الإمام بلطف من الباري وعناية .

الحدث الثاني : تحقق وعد الله بنصر عباده ورجوع الأسرى مرفوعي الرأس إلى أحضان هذه الأمة المضحية ، وهو ما يلزمنا الشكر والامتنان لبارىء الخلائق أجمعين ، هؤلاء الأعزّة الذين ضربوا الرقم القياسي في صبرهم وصلابتهم وتحملهم .

وبتلك الصلابة تحقق الوعد الإلهي : ﴿ **إن تنصُروا اللّهَ ينصركم** ﴾ في مقابل الشدائد وأنواع العذاب النفسي والجسدي ، فقد تركوا حسرةً ما بعدها حسرةٌ في نفوس الخصوم ، ليثبتوا بذلك المنطق أنهم تلاميذ روح الله ، ومن المتخلقين بأخلاق رسول الله (ص) ، وأن ما لديهم هو روح من بستان أبي عبد الله (ع) ، لكونهم لم يمتثلوا لأوامر الظلمة والجبارين ، وسوف يمرّغون بالوحل أنوف المعتدين بالاتكال على الله العزيز العليم .

إن الذي بين يديك عزيزي القاريء الكريم هو الجزء الرابع من كتاب جهاد النفس ، هذا الأثر الأخلاقي المفيد للأستاذ حسين مظاهري مهدى إلى روح مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني قدَّس الله نفسه الذكية ، وإلى جميع الأحرار الذين منحوا الوطن الإسلامي عزَّةً وجلالاً ، بالإضافة إلى جميع المعلمين من الشهداء والمفقودي الأثر وبالخصوص الأخ عباس قهستاني .

نسأل الباري تعالى أن يمنَّ على الأمة الإسلامية بالنصر والغلبة ، وأن يمنحنا الحرية والانطلاق من أسر قيود الأهواء النفسية ، إنه سميع الدعاء .

الجمعية الإسلامية لمعلّمي قم

الغفلة

إن الإنسان ـ بل جميع الموجودات ـ تتجه نحو الخالق المصور في سير دؤوب : ﴿ إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجعى ﴾[1] ، ﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربك كدحاً فمُلاقيه ﴾[2] ، ﴿ وإنَّ إلى ربكَ المُنتهى ﴾[3] ، ﴿ ألا إلى اللّهِ تصيرُ الأمورُ ﴾[4]

إن الآيات التي تتطرق إلى هذا الموضوع كثيرة ، ويستفاد من مجموعها أن عالم الوجود في حركة ، ومنتهى هذه الحركة هو الله تعالت أسماؤه . وقد قسّمنا المسيرة الإنسانية إلى الله ثلاثة اقسام :

قسم سلك الطريق الذي هو طريق جميع الأنبياء والرسل ، ليصل إلى جنة الخلد مع الأنبياء والأوصياء والصلحاء والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

﴿ ومن يطعِ اللّه والرسول فأولئك مع الذين أنعم اللّهُ عليهمْ منَ النبيين والصديقينَ والشهداءَ والصالحينَ ، وحسُنَ أولئك رفيقاً ﴾[5]

ويختلف الناس في سيرهم ـ وأعني هذا القسم من الناس ـ إلى الله تعالى فالذي يحشر مع الأنبياء غير ذلك الذي يحشر مع الأوصياء وغير الذي يحشر مع

---

(١) سورة العلق ، الآية ٨ .

(٢) سورة الانشقاق ، الآية ٦ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٣٢

(٤) سورة الشورى ، الآية ٥٣ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

الصالحين ، لوجود مقامات مختلفة ودرجات عليا ودنيا في هذا الأمر .

وعرضنا فيما سبق إلى مسألة الصراط المستقيم الذي لا بد لكل الناس من السير عليه في يوم القيامة ، فترى البعض يمرُّ عليه مرَّ البرق ليصل إلى جنة المأوى ، وترى بعضاً آخر يمرُّ عليه ويعبر إلى الجهة الثانية ولكن بعد عناء ونصب شديدين حيث تمس النار يده أو رجله أو أي عضو من أعضائه ، ويسقط آخرون في بداية الصراط أو في وسطه إلى ما لا تحمد عقباه ـ والعياذ بالله ـ .

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة هذا الأمر ، علينا أن نرى أوضاعنا في الحياة الدنيا ؛ فإذا كانت علائقنا مع الله محكمة ، ولا يرى في سيرنا إليه معاصي إلا اللمم ، مررنا على الصراط وتجاوزناه إلى حيث النجاة .

أما إذا كانت روابطنا مع الله في الحياة الدنيا مقطّعةً وترتكز في أصلها إلى هوى النفس ورغباتها ، فلا ينبغي أن ننتظر الأخذ بيدنا إلى حيث جنات الخلد والرضوان .

قال رسول الله (ص) : « إن على جهنم جسراً أدق من الشعر وأحدَّ من السيف »[1] .

وقال أيضاً (ص) : « أثبتكم على الصراط أشدكم حبًّا لأهل بيتي »[2] .

فالحياة الدنيا ظاهر الأمر ، والآخرة حقيقة الأمر .

فما نعمله هنا يتجسَّد هناك حقيقة ملموسة ؛ فمن اتصف بالصفات الرذيلة في الحياة الدنيا تجسّدت له هذه الصفات على هيئة حيوانات مفترسة وضارية تنهش لحمه .

ومن اتصف بالصفات الحسنة هنا ، تجسّدت له تلك الصفات على هيئة روح وريحان وجنة نعيم وأنيس في يوم القيامة لتبقى معه إلى الأبد

فالنفس السوية ترجع إلى ربها راضية ومرضية ومطمئنة ، لأن أعمالها

---

(١) كنز العمال/خ ٣٩٠٣٦ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٩ ـ فضائل الأشهر الثلاثة .

لا تؤدي إلى الرضا : ﴿ يا أيَّتها النفسُ المطمئنةُ ارجعِي إلى ربكِ راضيةً مرضيةً ﴾[1] .

لقد عرض القرآن لهذه المجموعة من الذين يصلون إلى رضوان الله . فقسمهم قسمين : قسم سمَّاهم أصحاب اليمين : ﴿ وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ ﴾[2] ؛ وقسم آخر سموا بالسابقين : ﴿ والسابقونَ السابقونَ أولئكَ المقربونَ ﴾[3] ، وهم الذين تسابقوا إلى الخيرات ليكون أسرع وصولاً إلى رضوان الله من أصحاب اليمين .

أما القسم الثاني والثالث ، فهم أصحاب الشمال ، و : ﴿ أصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمالِ ﴾[4] ؛ وهذا القسم يشمل جميع أولئك الذين لم يسلكوا الجادَّة الصواب ، ولم يبحثوا عنها أصلاً ، فتقاذفتهم أمواج الضَّلالة والانحراف ، وهم على شعبتين :

شعبة عرفوا الطريق المستقيم ، ولكن العناد واللجاجة منعتهم من انتهاجه ، فسلكوا بذلك الطرق الملتوية .

وشعبة لم يهتدوا أصلاً إلى الطريق المستقيم ، ولكنهم غير معاندين أو لجوجين ، ولعدم اهتدائهم إلى جادة الصواب ساروا مسارات مختلفة غير سوية ، فوصلوا إلى نار جهنم وبئس المصير .

إن لجهنم درجات وطبقات مثلما للجنة مقامات ودرجات ، وإن من يرد جهنم ـ والعياذ بالله ـ تحدد درجته وطبقته التي ينزل فيها ، فالدرجة الأولى ليست كالثانية والثانية ليست كالسابعة ، فالدرجة السابعة أشد الدرجات حراً وعذاباً ، ولا يوجد أشد منها إلا بئر في قعرها تحتوي على توابيت ، كلما خفَّت حرارة جهنم فتحت تلك التوابيت لتؤجج نار جهنم ؛ فالذي يكون نصيبه التابوت فالويل له ، ولا يعرف أعماله وأفعاله إلا الله تعالى ، فالمنافقون مثلاً يكون

---

(١) سورة الفجر، الآية ٢٧ و ٢٨ .

(٢) سورة الواقعة، الآية ٢٧ .

(٣) سورة الواقعة، الآية ١٠ و ١١ .

(٤) سورة الواقعة، الآية ٤١ .

منـزلهم الدرك الأسفـل ﴿ إنَّ المنافقينَ في الـدركِ الأسفلِ منَ النـارِ ﴾[1] ؛ لعنادهم ، ولمعرفتهم بالحق الذي لا يلتزمونه طريقاً لهم ، إنهم يظهرون غير ما يخفون ، ولا يعملون بما يقولـون ، بل يعملون خـلافاً لمـا يسمع منهم ؛ فالبعض منهم يهوي في جهنم آلاف السنين بعد ذلك يصل إلى قعرها أو إلى طبقاتها السفلى .

وهذا ما يجسِّد الحالة التي كان عليها في الحياة الدنيا حيث كان يتسافل من وضاعة إلى أوضع وأسفل منها .

وقـد يتمكن البعض من الصعود ثـانية إلى حـافة جهنم فتصيبـه إحدى المقامع على رأسه ليهوي مرة أخرى في قعر جهنم وتقول الروايات : إن ذلك السقوط قد يطول آلاف السنين ليمرَّ على عدة طبقات في جهنم .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في معنى الصراط : « هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ ، وهمـا صراطـان : صراط في الـدنيا ، وصـراط في الآخرة .

وأما الصراط في الدنيا ، فهو الإمام المفترض الطاعـة ، من عرفـه في الدنيا ، واقتدى بهداه ، مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة »[2] .

فالذي لا يعرف إمامه انحرف عن الجادة السوية ، ومن انحرف عن الجادة حشر يهودياً أو نصرانياً ، أو فاسقاً ، أو ظالماً .

فأصحاب الشمال الذي قسمناهم إلى قسمين وقلنا : القسم الأول هم من عرفوا الـطريق ، ولم يسلكوه عنـاداً ولجاجـةً هم المغضوب عليهم ، والقسم الثاني : وهم الذين لم يهتدوا إلى الطريق ولكنهم اتخذوا طرقاً أخرى لسيرهم وهم الضالّون .

وخلاصة القول : إنهم مشمولون بالآية المباركة التي تقول : ﴿ وضربَتْ

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) معاني الأخبار/ص ٢٨

عليهمُ الذلةُ والمسكنةُ وباؤُا بغضبٍ منَ اللّهِ ﴾[1] .

وهناك قسم ثالث يمكن أن نذكره هنا ، وهم الذين تراهم دائمي الاضطراب في الحياة الدنيا ، يعملون بالشك والشبهة ، وهؤلاء لن يفارقوا الحياة الدنيا حتى تتقطع قلوبهم باضطرابهم ذاك وبشكهم وشبهتهم التي سيطرت على جميع ذرات أجسادهم ﴿ لا يزالُ بنيانهُمُ الذِي بنوْا ريبةً في قلوبهِمْ إلاّ أن تقطَّعَ قلوبهُم ﴾[2] .

وهذا الشك وتلك الشبهة تعدُّ من أسباب الشرك ﴿ ومنْ يشركِ باللّهِ فكأنَّما خرَّ من السماءِ فتخطِفهُ الطيرُ أو تهوِي بهِ الريحُ في مكانٍ سحيقٍ ﴾[3] .

فالسقوط من السماء ، وتخطُّف الطير ، والسقوط في مكان سحيق كلها إشارات إلى الاضمحلال النفسي الذي قد يصيب البشر فيهوي في حب الدنيا وزخارفها ، ويطمع في البقاء فيها ، فتظهر آثار أخرى هي التكبر والغرور والمنَّة والحسد وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

وأمّا تقطع القلب بالنسبة لهؤلاء ، فهو من جرّاء الاضطراب الذي يأتي به الحرص على الأموال والثروات ؛ فهو الذي يبعده عن الهدوء والراحة والاطمئنان .

والجدير بالذكر أن أولئك الذين اضطربوا وابتعدوا عن راحة البال تصيبهم الكوارث والمصائب ما داموا في الحياة الدنيا ؛ وقد يقول البعض بمشاهداته لارتياح البعض منهم ، فنقول له : قد يحتويهم الاضطراب النفسي والقلق ، فيعدُّ ذلك إحدى القوارع أو المصائب ﴿ ولا يزالُ الذينَ كفرُوا تصيبُهُم بمَا صنعُوا قارعةٌ ﴾[4] .

وإذا لم يصيبهم من ذلك شيء فسوف يصيب أبناءَهم من بعدهم ، أو

---

(١) سورة البقرة، الاية ٥٩.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٠.

(٣) سورة الحج، الآية ٣١.

(٤) سورة الرعد، الآية ٣١.

أهلهم ، أو زوجاتهم ، أو قد تقوم الخلافات الأسرية المستعصية نتيجةً لما صنعوا .

وهذا الوضع الدنيوي بما فيه من اضطراب وغمٍّ وهمٍّ نتيجة للمعاصي ، يكون عليه المرء بهيئته وصورته الأخروية ، واضطراب الأخرة وقلقها وهمُّ الآخرة أشد وأوقع في النفس من ذلك الذي يكون في الحياة الدنيا .

﴿ ومنْ كانَ في هذهِ أعمى فهوَ في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾[1] ، ﴿ ومنْ أعرضَ عنْ ذكرِي فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ﴾[2] .

فالإعراض عن ذكر الله يؤدي بالإنسان إلى المعيشة الضنك ، ولا نعني بالضنك هنا الافتقاد إلى الزوجة الجميلة أو الافتقاد إلى الثروات الطائلة أو المنصب الاجتماعي لا ﴿ معيشةً ضنكاً ﴾ قد تأتي بها الأموال ، وقد يأتي بها المنصب الاجتماعي الرفيع ، فالتكالب على المناصب ﴿ معيشةً ضنكاً ﴾ ، والتفاخر بالأموال ﴿ معيشةً ضنكاً ﴾ والخسران في الانتخابات الرئاسية ، وتحمل الهمِّ الذي يلي تلك الخسارة ﴿ معيشةً ضنكاً ﴾ .

ولا أريد أن أعرض لهذا الموضوع أكثر من اللازم ، لأن هذه القضايا لا تخفى على اللبيب .

فالعمى والضلال والانحراف كلها تأتي من الغفلة والتسامح في أمور الدين ، قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إياكم والغفلة ! فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه ، وإياكم والتهاون بأمر الله عزّ وجلّ فإنه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة »[3] .

وقال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ إنَّ الذينَ لا يرجونَ لقاءنَا . ورضُوا بالحياةِ الدنيَا واطمأنُّوا بهَا والذينَ همْ عن ءاياتِنَا غافلونَ ، أولئكَ مأواهُمُ النارُ بمَا كانُوا يكسبونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٢ .

(٢) سورة طه، الآية ١٢٤ .

(٣) ثواب الأعمال/ص ٢٤٢

(٤) سورة يونس، الآية ٧، ٨ .

فالغافل عن ذكر الله لا بد له أن يكون مشغولاً بعمل آخر عن هذا الذكر ، وكما تعرفون أن كل عمل لا يصب في ذكر الله باطل ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنس ولا الجن إلا لعبادته ، وهي الامتثال لأوامره ونواهيه حقاً وصدقاً ؛ فمن رغب عن تلك العبادة ضلَّ وهوى في وادي جهنم السحيق .

فالغرور سببه الغفلة ، وعندما يغفل الإنسان عن قدر نفسه يغترُّ بها ويصعِّر خدَّه ، ويختال في مشيته ؛ والحرص أساسه الغفلة ؛ فالإنسان اليقظ لا يمكن أن يحرص على شيء وهو يذكر نفسه دائماً بزوال الدنيا ونعيمها بدليل السالفين الذين لم يتمكنوا من أخذ شيءٍ معهم من هذه الدنيا ؛ فقد تركوا الأموال والثروات والزوجات والأولاد وكلَّ ما كان يسمى بالنسبة لهم نعيماً ، وذهبوا إلى غير رجعة ، ذهبوا ليُلاقوا أعمالهم على حقيقتها .

لذا ينبغي لنا أن نذكر هذه النفس الأمَّارة بالسُّوء ، بالمعاد والرجوع إلى الخالق المصور ليلاً ونهاراً ، لترتدع عن الإيغال في الغفلة ، ومن لم يغفل ذلك لن يتأتَّى له أن يفوز أو ينتصر على هذه النفس في مجمل سيره إليه ـ تعالت أسماؤه ـ .

والغفلة تجرُّ الإنسان في بعض الأحيان إلى الثرثرة ، فترى الغافلين يطيلون في الكلام الفارغ الذي لا يؤدي بهم إلا إلى الغيبة والنميمة والتهمة وما إلى ذلك ؛ فلو كانوا غير غافلين لسكتوا على مدى الدهر ، ولما تحدثوا إلا بالقدر الذي يسهم في ترتيب حياتهم وعلائقهم مع الآخرين .

وكم هي جميلة تلك العبارات التي يستخدمها العرفاء في تنظيم حياتهم ويحسبونها إحدى القواعد العرفانية وهي :

« إياك ثم إياك من التوغل في المشتهيات ، وإياك ثم إياك ثم إياك من كثرة الكلام ، وعليك ثم عليك ثم عليك بذكر الله بذكر الله بذكر الله » .

الوساوس والأوهام

قال رسول الله (ص) : « أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل .

فأما اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق .

وأما طول الأمل فينسي الآخرة »[1] .

إن استيلاء الآمال والرغبات على النفس البشرية يؤدي به إلى نسيان الآخرة ، مثله مثل ذلك الحيوان الذي يستمر في الحفر داخل وجره ، وفجأة ترى سقوط وجره على رأسه ليموت تحت أنقاضه ؛ والإنسان يفعل ذلك في بعض أحيانه حينما يغور في التخيُّل والوهم ، وما يوغل في هذه الخيالات وتلك الأوهام عميقاً حتى يختم الله على قلبه ويبعثه إلى التي وقودها الناس والحجارة .

تنقسم الخيالات ثلاثة أقسام : قسم يرتبط بالدنيا وحبها ، وهو ما يبعث على الجنون في بعض حالاته ، قال أحد علماء النفس : جيء بإحدى الفتيات إلى دار المجانين ، وهي طالبة في الثانوية ، فما استقرت هناك حتى بدأت تجول أقسام الدار تلك وتتحدث إلى بقية المجانين ، فتقول : « بالأمس ولدت في قصري غلاماً غايةً في الجمال » ، أو تقول : « ذهبت البارحة إلى شمال

---

(١) كنز العمال/خ ٤٣٧٦٤ .

القطار بطائرتي الخاصة » ، أو : « طوينا العاصمة أنا وزوجي بسيارته الجميلة » .

بحث العالم النفساني في هذا الأمر كثيراً ، ولكنه لم يصل إلى شيء إلا بعد أن التقى زميلاتها الطالبات في المدرسة التي كانت فيها تلك المجنونة .

وبعد السؤال عن أحاديث وحالات تلك الفتاة من زميلاتها الطالبات قيل له : إن هذه الفتاة كانت متعلقة بشكل شديد بهذه الدنيا ، وكانت تقول دائماً : كم يطيب لي أن يتقدم إليّ رجل جميل وذو ثروة فيتزوجني لأنجب له طفلين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ! كم يسعدني الحظ لو كان ذلك الرجل متمكناً مادياً يمتلك قصراً منيفاً وسيارةً كسيارات الرؤساء والوزراء » ! وما إلى ذلك من الأوهام والخيالات .

وتزوجت تلك الفتاة زوجاً دميماً لا يمتلك قصراً ولا سيّارةً ، فقد كان يستأجر بيتاً في حارة للمستضعفين .

وذهبت تخيُّلاتها أدراج الرياح ، وتركت أثراً في ذهنها جرَّها إلى الجنون ، ومن بعد ذلك إلى دار المجانين .

لقد أوصى الرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع) بعدم الانطلاق في صحراء الخيال ، لأنه شعبة من شعب الوساوس ، وأن مصير الإنسان لا يتعدى أن يكون بيد الحكيم تعالى وليس بيد الأفكار والخيالات والأوهام ، وقد أوصوا (ع) بضرورة قراءة هذه الآية عندما يرى الإنسان نفسه طعمةً للأوهام :

﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ ، تؤتي الملكَ منْ تشاءَ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ بيدِكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

إن الآية المباركة التي تقول : **﴿ إيَّاك نعبدُ وإيَّاكَ نستعينُ ﴾**[2] تعني أن مصائرنا بيدك وحدك لا شريك لك ، فمنك نستمدُّ العون ولا نعبدُ إلا إياك ، وإنا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

لا نستعين بالآمال والأماني لكونها لا توصلنا إلا إلى الضلالة والانحراف؟! .

قال رسول الله (ص) : « من كان يأمل أن يعيش غداً ، فإنه يأمل أن يعيش أبداً »[1] .

جاء في الحديث القدسي أن الله قال : « لأقطعنَّ أمل كل من يؤمل غيري باليأس »[2] .

وقال الرسول الأكرم (ص) : « خذ بالثقة من العمل ، وإياك والاغترار بالأمل ، ولا تدخل عليك اليوم همَّ غد . . . ولو أخليت قلبك من الأمل لجددت في العمل » .

والأمل الممثل في اليوم ، غداً أضرَّك في وجهين : سوَّفت به العمل ، وزدت في الهم والحزن »[3] .

وفيما ناجى الله تعالى موسى عليه السّلام : « يا موسى ! لا تطل في الدنيا أملك فيقسوَ قلبك ، والقاسي القلب مني بعيد »[4] .

إن التمنّي وطول الأمل وتسليم النفس للخيال يؤدي بالمرء إلى التعلق بالدنيا الدنيَّة ، وإن كثيراً من التخيُّلات تجرُّ الإنسان إلى ارتكاب المآثم ، وعلى الرغم من أن التفكير في عمل المحرمات لا يؤدي إلى تثبيت شيء في سجل الأعمال ، فإنه يترك أثراً أسود في القلب ، وهذا التفكير في عمل المحرم يدخل ضمن الضرب في الخيال ويميت القلب ، ويجعل الإنسان دميةً خاليةً من النشاط والعمل ، ناهيك عن إدخاله في دائرة القاسية قلوبهم : ﴿ **فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهُم من ذكرِ اللّهِ** ﴾[5] .

والتفكير في عمل المنكر لا يختلف كثيراً عن العمل نفسه ، والاختلاف

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ ص ١٦٧

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٤ ، ص ٩٥

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١١٢

(٤) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٩٨

(٥) سورة الزمر، الآية ٢٢ .

يكمن فقط في أن الذي يفكر في عمل المنكر لا يسجِّل له في سجلِّ أعماله معصيةً إلا إذا قام بذلك العمل ، ولا يترتب على ذلك التفكير عقوبة ، بينما العمل بالمنكر يترتب عليه تسجيل لمعصية في سجلِّ القائم بذلك العمل بالإضافة إلى العقوبة التي ستلحق به ، ويلتقي التفكير في عمل المنكر مع العمل نفسه في إضعاف البعد المعنوي للإنسان ، وإيجاد بذور القساوة في القلب البشري ، وأن التفكير في المعصية وممارسة المعصية يشتركان أيضاً في أن لهما نفس الأثر في تأصيل الأفكار المنحرفة في مخيِّلة الإنسان ، وينقسم التفكير في المعصية قسمين :

١ ـ قسم يرتبط بحق الله ، وهو ما عرضنا له ، وقلنا بأن التفكير في المعصية يشترك مع نفس المعصية في حرف مخيِّلة الإنسان إلى حيث ما لا تحمد عقباه .

٢ ـ قسم يرتبط بحق الناس ، وهو ما يترتب عليه معصية كبرى ؛ إنه سوء الظن بالآخرين ، والجدير بالذكر أن الأفراد الذين يشكون من حالات نفسية أو عصبية غالباً ما يسيئون الظن بالآخرين .

إن الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) ذمُّوا سوء الظن والعامل به ، إلا في مواطن تستوجب ذلك .

قال رسول الله (ص) : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسّسوا ، ولا تجسَّسوا »[١] .

وقال أيضاً (ص) : « من أساء بأخيه الظنَّ ، فقد أساء بربه »[٢] .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »[٣] .

لقد أكد الإسلام العظيم ضرورة حمل أعمال المسلمين على أحسنها وصحتها .

---

(١) سنن أبي داود/خ ٤٩١٧ .

(٢) كنز العمال/خ ٧٥٨٧ .

(٣) غرر الحكم .

وهذا ما نراه في القاعدة الفقهية الموسومة بـ « أصالة الصحة » التي بحث فيها الفقهاء كثيراً التزاماً بالأحاديث المتواترة عن النبي محمد (ص) وأهل بيته الكرام ـ سلام الله عليهم ـ .

قال رسول الله (ص) : « اطلب لأخيك عذراً ، فإن لم تجد له عذراً ، فالتمس له عذراً »[1] .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً »[2] .

إن مسألة الضرب بالخيال مسألة عجيبة ، فقد يتخيّل الجبان حين دخوله مقبرةً بأن أحد الموتى يطارده ، بل يمسك به ، أو قد يتخيَّل الجبان ذاك عند ذهابه إلى أحد الحمامات العمومية ، بأن عدَّةً من الجن لهم حوافر وأظلاف جاءوا للاستحمام على الرغم من أن الجن لا أظلاف لهم ولا حوافر .

إنه يتخيل أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويصنع أشخاصاً في مصنع مخيَّلته الضارب في أطناب الخيال .

فعندما يطلق المرء لخياله العنان يتبنّاه الشيطان ، ويرد مخيلته ليوسوس إليه بأن زوجته قد تفعل فعلاً سيئاً ـ والعياذ بالله ـ وأن جاره المؤمن قد يسرقه ، وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام التي يشرع الشيطان بها من (١) بالمليون لتصير بعد شهر واحد (٥٠٪) وهكذا ، إلى أن يصل الأمر أن يشكَّ بأخيه أو أبيه أو ابنه (٩٠٪) .

وهنا يصبح الأمر اتهاماً جاء به الخيال والوسواس .

ويقال : إن التهمة أكثر من القتل في بعض مواطنها ، قال الإمام الصادق (ع) : « إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٧

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٦

في الماء »[1]

وقال أيضاً ـ سلام الله عليه ـ: « من اتَّهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما »[2] .

قال الشيخ الجليل غلام رضا اليزدي ـ رحمه الله ـ: إن الشيطان الذي يأتي إليك لا يقل علماً عنك إذا كان لا يزيد عليك ، فالعالم يأتيه شيطان عالم مثله ، والدكتور يأتيه شيطان عالم بعلمه الطبي والطالب لا يتصيّده إلا شيطان بنفس مستواه ليتمكن منه ويحرفه عن الجادة الصواب .

ففي الخيال يسرح الشيطان ويمرح ، وفي الخيال يبذر الشيطان الرجيم بذوره القذرة ليلوِّث الطاهر بنجاسته ، وليحرف السويَّ عن استقامته .

إن الكثير من النساء والرجال يتصلون بي هاتفياً ليعرضوا عليَّ مشاكلهم على أمل المساهمة في حلِّها والوصول بهم إلى حياة سليمة سوية .

وقد لاحظت أن أغلب تلك المشاكل والاختلافات تحمل جذور سوء الظن .

وكما يعرف القاريء الكريم أن سوء الظن لا يجرُّ على الإنسان غير الابتلاءات والمصائب من مثل الطلاق ، وظهور العقد النفسية على أطفال أولئك المبتلين بالاختلافات .

ولذا ينبغي أن نوليَ أهميةً بالغةً بهذه القضية ، ولا نجعل أنفسنا ألعوبة بيد شياطين الإنس والجن من الذين يبعثون على الضياع في دنيا الخيال .

إن سوء الظن يدخل الإنسان مداخل عجيبةً وغريبةً ، فقد يساهم في طرد الفرد من المجتمع ولفظه مما يبعث على ظهور اللوثات الدماغية ، وقد يجرُّ إلى اغتياب الآخرين ، والغيبة أشد من الزنا ، ومن فعلها فقد تجاوز الفضيلة وأصبح مجرماً لدى الإنسانية والإسلام ، فقد أجمع العلماء على عدِّ الغيبة من كبائر

---

(١) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١

(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١

الذنوب ، وأن مرتكبها يخالف الأحكام الإلهية ويتجاوز على حقوق المخلوقين غير مبال بحقوق الخالق .

إن المنزل الذي خلا من المحبة والود بين الزوجين أفضل أرضية لسوء الظن ـ والعياذ بالله ـ فترى الرجل مثلاً إذا أراد أن يتّهم زوجه في شيء ما ، جاءه الشيطان وحرّكه على قضية أخرى لا ترتبط أساساً بما يريد التصريح به ، فيشرع الرجل بانتقاص زوجته بأن طعامها خال من الملح ، أو أنه لم ينضج بعد ، وأن المائدة قذرة ولم يمسّها الماء منذ أيام إلى أن يصل به الشيطان إلى المرحلة الوضيعة وهي : سوء الظن ، فيشرع الرجل بتجريح زوجه بالكلام اللاذع الذي يشبه الهمز واللمز إلى أن يصل مرحلة التصريح فيطرق الشيطان على رأسيهما ليفترقا إلى غير رجعة ويتركا أولاداً كاليتامى أو أقل شأناً منهم تتقاذفهم الأيدي هنا وهناك ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاباً جداً أليم .

إن النيران والعذاب الأليم الذي ينتظر المسيء لتجريحه باللسان لأقرب الناس إليه ، فيصبح بعد ذلك طعمةً لجهنم التي تتّقد بالناس والحجارة .

﴿ إنكمْ ومَا تعبدونَ منْ دونِ اللّهِ حصبُ جهنَّمَ ﴾[1] .

والحصب هو كل شيء يرمى في جهنم ويعني بذلك وقودَها .

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قِوا أنفسكُم وأهليكُم ناراً وقودُهَا الناسُ والحجارةُ ﴾[2] .

فالتخيُّل والوسوسة بلاءٌ ومصيبةٌ كبرى على الضارب أطنابه في الخيال عدو الإنسان الشديد ، فلا تجعلوا للشيطان طريقاً إليكم من خلال التخيُّلات والتصوُّرات .

قد يأتي الشيطان إلينا عن طريق مصطبغ بصبغة دينية ، لأنه قطع على نفسه يميناً بإغواء من عليها بشتى الوسائل والطرق **﴿ قالَ فبما أغويتنِي لأقعدنَّ لهمْ صراطَكَ المستقيمَ ، ثمَّ لأتينَّهم منْ بينِ أيديهمْ ومنْ خلفِهم وعنْ أيمانِهمْ**

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٨.

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

وعنْ شمائلِهِمْ ولا تجدُ أكثرهُمْ شاكرينَ ﴾[1] .

﴿ قالَ فبِما أغويتني ﴾ وهذه دلالة على أن الشيطان أشعري أو جبري ، فقد نسب الإغواء إليه ـ تعالت أسماؤه ـ ﴿ لأقعدَنَّ لهمْ ﴾ لبني آدم ﴿ صراطكَ المستقيمَ ﴾ طريقك الحق القويم ﴿ ثمَّ لآتينَّهم من بينِ أيديهم ومنْ خلفِهم ، وعنْ أيمانهِم وعنْ شمائلِهم ﴾ أي من جهاتهم الأربع فأضلَّهم عن سلوكه .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة منه تعالى ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

وقيل : ﴿ منْ بينِ أيديهِم ﴾ أي : من قبل الآخرة ، أي : تصوير الآخرة لهم شيئاً غير مهمٍّ وبعيد ، وعدمية وجود الآخرة وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام .

﴿ ومنْ خلفِهم ﴾ من قبل الدنيا ، والآخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم .

ومجيء من الأولين لتوجهه منا إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم ﴿ ولا تجدْ أكثرهُم شاكِرين ﴾ إن الغالبية العظمى منهم غير مؤمنين .

فترى الشيطانَ مثلاً يأتي للإنسان عن طريق الوضوء ، فترى الرجل أو المرأة يضعون أيديهم تحت مجاري المياه مدةً طويلةً ، ثم يقولون : إن أيدينا ما زالت نجسةً ، في الوقت الذي لا وجود أصلاً للنجاسة ، وإن الذي يحدث هو أن خياله يجسِّم له الأشياء ، وعندما يشرع بالصلاة طالباً ذكر تكبيرة الإحرام تسمعه يقول : « ال ، ال ، ال ، وبعد بضعة دقائق يقول : « الله أكبر » .

إنه يتخيَّل أن « ال » لم يقلها بشكلها الصحيح ، ويتخيَّل أن هناك أحداً يقول له : ليست هكذا ، بل اصبِر قليلاً ، لتقولها على طبيعتها .

إنها الخرافة ، ويد الشيطان ولسانه ، والمعصية الكبرى لكونها تدخل ضمن البِدع .

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦، ١٧ .

وقد لا يقنع الشيطان بهذا ، بل يصعِّد المسألة أكثر مما كان ، وعندها تسمع من العالم الفلاني أن له مكاشفةً وأنه رأى الإمام المهدي (عج) ، وأنه قال له : إنك نائبي الخاص كما حصل للميرزا علي محمد البهائي ، الضالِّ المضلِّ .

لقد أضلّ البهائي الكثير من الحمقى والعوام ، وجرَّهم إلى ملتويات السبل ، بالرغم من أن الكثير منهم كان يعرف أن البهائي لا يحسدُ على عقله الخرافي ، وسيرته الشوهاء التي كان يسميها بالرياضة الروحية .

قال البهائي : « أنا نائب المهديّ المنتظر (عج) ، لقد رأيته وقال لي : إنك نائبي الخاص ـ وبعد أن نزغ الشيطان له أكثر لما رآه أحمقاً بليداً ـ قال : « إن الله أوحى إليّ فأنا نبيُّ الله ـ وقد يكون قوله صحيحاً والسبب في ذلك : ﴿ **وإنَّ الشياطينَ ليوحونَ إلى أوليائِهِمْ** ﴾[1] .

وبعد مدة قال : « إني أنا الله » ، وعندها أعدمه الناس لقولته القذرة تلك ، ولو لم يعدموه لتمادى في غيِّه ، وقال بما هو أكثر من ذلك ، ولا نعرف ماذا كان يريد أن يقول!! .

وهكذا كان أحد العرفاء يقول : إنه يرى بعض المسلمين أشبهَ بالقرود ، ويقول أيضاً : إنه رأى إمام الزمان المهدي المنتظر (عج) وقد قال له : إن ما في أيدي الناس هو ملك لك ؛ وعندها سرق أموالاً لأحدهم ، وحينما سئل عن سبب سرقته ، قال : إنه رأى في عالم الكشف أن هذا المال يرجع في أصله له!! .

إن الشيطان الرجيم يطرق كل الوسائل والسبل من أجل تضييع الإنسان وحرفه عن سبل السلام والهداية والصواب ، وإن التخيُّل أحد أبوابه ووسائله التي يقود الإنسان من خلالها إلى حيث الرضاعة والحطة ـ والعياذ بالله ـ .

ومن أراد النجاة من هذه الخيالات والأوهام وسوء الظن الذي لا يعتمد أساساً على دليل أو سند ، فليلم نفسه حين تراوده الأوهام والخيالات ،

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢١ .

ويعنِّفها ، لئلا يساوره الشكُّ والظن الشيطاني المقيت ، فإذا ما كان جالساً وداخلته الخيالات فليضطجع ، وإذا كان نائماً وساورته الظنون فليجلس .

وما يحاول إبعاد تلك الأفكار عن ذهنه لمرة أو مرتين أو ثلاثة حتى يصبح الأمر اعتيادياً جداً ، ويبتعد بتلك عن هذه الصفة الرذيلة والله هو المستعان في كل الأمور .

« إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك ، وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك ، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك ، إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم بحق النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

[١]
أيّام اللّـه

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ولقدْ أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخرجْ قومك منَ الظلماتِ إلى النور وذكّرهُمْ بأيامِ اللّهِ . .** ﴾[١]

أي يا أيُّها الرسول إذا أردت أن تخرج قومك من الضلاله والانحراف إلى طريق الهدى والنور عليك بتذكيرهم بالنعم الجليلة وبأيام الله العظام ، التي يمكن أن يستفيد الإنسان من الحوادث التي جرت فيها فيتخذها عبرةً له .

﴿ **فسيروا في الأرض ، فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذّبين** ﴾[٢]

أيُّها البشر عودوا في التاريخ لنعرفوا عاقبة الذين كذّبوا الرسل ، ولتتعرفوا على كيفية إذلالهم من قبل الله تعالى ، واتخذوا من سيرة الماضين عبرةً لكم تنتفعوا بها في مجمل حياتهم الدنيوية .

﴿ **يخرّبونَ بيوتهُم بأيديهِم وأيدي المؤمنين فاعتبرُوا يَا أولي الأبصارِ** ﴾[٣] .

فالتاريخ عبرةٌ للمعتبرين

ومن عاشوا في الحقبة الزمنية الماضية عبرة ، فعلينا أن نعتبر بتلك الأيام

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦

(٣) سورة الحشر، الآية ٢

والأعوام والحوادث ، ونتذكّر أيام الله التي خصَّها الله بحوادث بقيت آثارها على مدى الدهور .

إن المسيرة التاريخية للإنسان عجيبة جداً ، فالبحث في التاريخ والتدقيق فيه يجرُّنا إلى الكثير من المسائل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولا أعني هنا مطالعة التاريخ بحد ذاتها ، فذلك يختلف كثيراً عن السير في التاريخ .

فقد يطالع إنساناً كتاب تاريخ من الغلاف إلى الغلاف ، ولكنه في النهاية لا يخرج بتحليل عام للقضايا الاجتماعية أو السياسية وما إلى ذلك ، وهذا ما لا يعطيه القرآن الكريم أهمية تذكر .

إن مطالعة القرآن تفهمنا أن هناك حوادث تاريخية مهمة ضبطها القرآن بشكل دقيق ليتخذها الناس عبرةً لهم يستفيدون منها في تنظيم حياتهم ولو أخذنا سورة يوسف (ع) وطالعنا في محاورها السياسية والاجتماعية والأخلاقية لتوصلنا إلى أن ما في تلك الحوادث والمحاور التي ضبطها القرآن المجيد لنا لا يتعدّى أن يكون درساً واقعياً ، في بعض من أيام الله ـ تعالت أسماؤه ـ لنعتبر ونلتزم بأوامر الباري ـ جلَّت قدرته ـ ونتجنب ما يغضبه .

ومطالعة الحوادث التي جرت في تلك الأيام المنعوتة بأيام الله يكون بالشكل التالي : لماذا ألقي يوسف في غيابة الجبّ؟ .

ومن هو الذي ألقاه؟ .

وما السبب في اختيار يوسف دون غيره؟ .

ولماذا بيع يوسف بثمن بخس؟ .

وكيف ذهب إلى السجن .

وما السبب في تتويجه ملكاً بعد أن كان يباع ويشترى ويظلم ويسجن؟ .

وكيف كان حديث يوسف إلى أبيه؟ .

وما كان حديثه إلى إخوانه الذين ظلموه وألقوه في الجبِّ ، وباعوه! .

وفي الختام نخرج بنتائج عديدة ، منها عفة يوسف في الوقت الذي كان كل شيء مهيَّأً له ، إلا الانقياد للشيطان ! .

وهذه تجربة اجتماعية أخلاقية فذَّة للإنسان المسلم .

يقول القرآن الكريم في نهاية الأمر : ﴿ **مَنْ يتَّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنينِ** ﴾[1] .

هذه الجملة قالها يوسف لإخوانه بعد تحقق منامه ، حيث تعني : أن الذي يخاف الله ويتقيه ، ويصبر على بلائه يؤتيه أجر المحسنين ، وأنكم وصلتم ـ أي إخوانه ـ إلى الذلِّ والهوان بسبب افتقادهم للتقوى أولاً وللصبر ثانياً ، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تصلان بالمرء إلى المقام العليِّ .

وكذا الأمر في جميع القصص القرآني ، فنشاهد قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام ويمكن أن نأخذ منها عبرةً وعظةً .

وكذلك قصة نوح التي تعدُّ إحدى العبر .

وقصة قوم ثمود وعاد ، وقصة قوم لوط وكيف أفناهم الباري تعالى ، وقصة يونس وكيفية إشراف قومه على الهلكة لولا رحمة من الله .

كل هذا وذاك من القصص والروايات القرآنية الحكيمة من أجل أن يتَّعِظ ابن آدم ، ويعتبر ، ويلتزم أخلاقياً .

وقد ذكرت ذلك فيما سبق وقلت إن نصف الكتاب الشريف يتعلق بالمسائل الأخلاقية المحضة ، هذا في ظاهر الأمر .

أما إذا أمعنَّا النظر فيه في سوره وآياته ، لاتضح لنا أن كل الآيات والسور القرآنية المباركة هي من أجل بناء الإنسان بشكل يليق به وبسجود الملائكة له .

وعليه ، فالتذكير بأيام الله الاستثنائية المليئة بالعبر والمواعظ أمر ضروري ولازم ، ليُراجع الإنسان مسيرة حياته ليطابقها مع المسيرة التاريخية الصحيحة والسليمة التي تعرض لها القرآن الكريم في مجمل سوره الشريفة .

إن الأول من فبراير عام ١٩٧٩ يعدُّ أحد أيام الله ، لكونه حادثة غريبة وعجيبة ، علينا أن نجعلها ضمن المسائل والأيام المعتبرة ، إنه اليوم الذي رجع

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى ايران ولا يملك سلاحاً إلا لا إله إلا الله ، ليطرد الشاه المقتدر والمرجح بشتى أنواع السلاح ، بل يقال إن إيران كانت ترسانة للسلاح الغربي والإسرائيلي ، ولكن الإمام المؤسس استطاع بصدقه وصبره وتقواه أن يكون أقوى الناس . قال رسول الله (ص) : « إن سرك أن تكون أقوى الناس ، فتوكّل على الله »[1] .

لقد توكل هذا الرجل على بارئه في يوم عدَّ من أيام الله العظام ، فطرد الطواغيت إلى حيث لا رجعة ، وأقام حكومة إلهية يلتزم ما جاء به القرآن المجيد ، وما جاء به الرسول الأكرم (ص) والأئمة من بعده ـ صلوات الله عليهم ـ لقد جلب هذا الإمام محبة الناس دون أن يطلب هو ذلك ، فقاموا لمقارعة الظلم والفساد الشاهنشاهي البغيض باذلين الغالي والنفيس واضعين الأرواح الى الأكف ممتثلين لأمر قائدهم الذي لم يحد عن نهج الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) .

لقد توكّل على الله واعتصم به ، ومن توكّل على الله لا يُغلب ، ومن اعتصم بالله لا يُهزم

سأل أحدهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن حدِّ التوكل ؟ .

فقال (ع) له : « حدُّه اليقين » .

فقال : فما حدُّ اليقين ؟ .

قال (ع) : « أن لا تخاف مع الله شيئاً! »[2] .

إن الحوادث التي جرت في ذلك اليوم الذي قدم فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية من باريس ، نادرة جداً ، وفيها عبرةٌ وعظةٌ لنا .

لقد وقفت الأمّة المستضعفة مقابل مدافع ودبابات الحكومة الجائرة ، ولم يكن لديهم غير شعارات إسلامية أطلقوها في وجوه المؤتمرين بأوامر الطاغوت ، فسقط الطاغوت وانتصر الشعب الملتزم لأوامر القائد المتوكل على الله ، الصابر

---

(١) مكارم الأخلاق/ص ٥٥٢ .

(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٧ .

في الله ، المعتصم به ، والواثق بما في يده ، فنصره الله في يوم من أيامه التي سجلها التاريخ بأحرف من نور .

إن الباري تعالى منح أولياءه عزاً ما بعده عز . لكونهم خرجوا من ذل معصيته إلى عز طاعته .

ومن أحكم علاقاته مع خالقه منحه الباري قوة وبأساً ، وجعل الجميع يدينون له بالولاء .

لقد ملأ الخوف والرعب قلوب المستكبرين حينما رجع الإمام إلى إيران ، وقبل ذلك كان الوضع على هذه الشاكلة ، ولا بأس هنا بذكر حادثة جرت عام ١٩٦٣ حين نفت حكومة إيران الإمام إلى تركية ، بعد أن اقتادته من بيته في مدينة قم إلى طهران .

وفي الطريق إلى طهران ، وفي سيارة جلس فيها ثلاثة من الضباط الكبار كان يجلس بينهم الإمام ـ رضوان الله تعالى عليه ـ بان الرعب والهلع على أولئك الضباط فلم يسمحوا له بالنزول من السيارة للصلاة . فقال لهم بضرورة التيمُّم ، فوافقوا على ذلك شريطة أن لا يترجَّل من السيارة ، وفعل ذلك وصلى صلاته جالساً ﴿ **فمنِ اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليهِ** ﴾[1] .

إن تلك الثورة المباركة لم يحدث نظيرها في العالم في عالم الحضارة والمدنية العصرية .

إننا لم نشاهد ولم نسمع بثورة يجرُّ حب القائد فيها مليون شاب إلى الشارع ليقف إزاء الدبابات والمدافع والجيش والشرطة ، من أجل رجل قال لهم : قوموا لله .

رجل أطاع الله فأعزه ، وخرج على ذل معصية الله إلى عز طاعته ، فمنحه الله عزاً وهيبةً وسلطاناً نصيراً .

﴿ **إنَّ الذينَ ءامنُوا وعملُوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وُدًّا** ﴾[2] ،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٣ .

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦.

وعلى العكس من ذلك نرى : ﴿ **عاقبةَ الذينَ أساؤُوا السُّوأى أنْ كذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ وكانُوا بها يستهزِئُونَ** ﴾[1] .

إنها عظات وعِبر لنا ولأبنائنا من بعدنا .

إنها أيام الله التي يجب أن نتذكرها دائماً ، لتستقيم أمورنا الدنيوية والأخروية ، وعلينا أن ندرك مسألة مهمة جداً وهي أن الله تعالى يُمهل ولا يُهمل ، إنه يعطي الناس فرصاً كثيرة ليؤوا إلى الخير والصلاح .

ولكن إذا لم يفعلوا ذلك أمهلهم مدةً ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إن أخذه لشديد ، فاتَّعِظ أيها الإنسان يا من يطول بك الأمل في هذه الدنيا الدنيّة .

كان نمرود فاسقاً متجبّراً مغروراً وصل به الأمر إلى بناء قصر شاهق طلع على سطحه ليقول للباري تعالى جئت لحربك ، جئت لقتلك ، فإن كنت أهلاً لذلك فارمني بسهم منك ـ أعاذنا الله وإياك من هكذا مقولات ـ .

تركه الباري لعقله القاصر مدةً ، ثم أراد أن يفهم الآخرين أنه أضعف من بعوضة ، فبعث إليه بعوضة اخترقت دماغه فحار بذلك بالأمر ، عندما أمر اثنين من حاشيته بأن يضربوا رأسه بالمطارق ، وإذ فعلوا ذلك حتى وصل الدرك الأسفل من جهنم التي وقودها من هم أمثاله .

قال أحدهم : إلٰهي إذا كان حاصل أرضي لهذا العام كثيراً ، سأُخرج من العشر وأوزعه على الفقراء والمساكين ، فلما جاء موسم الحصاد وكان الحاصل جيداً قال : إلٰهي إن العشر كثير وأن عليّ قروضاً ينبغي أن أسلمها لأصحابها ، فامهلني إلى العام القادم ؛ فإن كان الحاصل جيداً سأتبرع بالنصف ، ليبقى لي نصف ؛ وجاء الموسم الجديد ، وكان الحاصل أفضل من السنة الماضية بكثير ، ولكن صاحبنا كان يقول : إلٰهي أريد هذا العام تزويج ابني فأمهلني إلى العام القادم ، ليكون الحاصل كله لك بشرط أن يكون حاصل العام كله لي .

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠ .

ولمّا جاء الموسم الثالث وعزلت القشور عن الحبوب حتى رأى الكذاب ذاك أن المسألة أكبر من أن يعطي محصوله في سبيل الله فنزلت به الآية المباركة : ﴿ **ثمَّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤُا السُّوأى أنْ كذَّبوا بآياتِ اللّهِ** ﴾[1] .

لقد أحرق الباري تعالى محصولَه وزرعَه ، ثم أغرق أمواله من دوابَّ وبيوت وما إلى ذلك فكان يندب ويصرخ ويقول : إلهي إن القمح لك وحدك ، والدار والمزرعة لي ، فاصفح عني وتجاوز ، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولاً : ﴿ **وليخشَ الذينَ لو تركُوا منْ خلفهِم ذرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عليهِمْ فليتقُوا اللّهِ ، وليقولُوا قولاً سديداً** ﴾[2] .

إن تلك الحكاية يمكن أن تكون لنا عبرةً وعظةً لنستقيم على الجادة الصواب من خلال الارتباط بالله ، والالتزام بأوامره ونواهيه لكي نحظى بالأمن والسلام والطمأنينة الإلهية : ﴿ **فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتُم تعلمونَ** ﴾[3] .

من هي الفرقة التي تستحق الأمن ؟ .

إنها ﴿ **الذينَ ءامنُوا ولمْ يلبسُوا إيمانهُم بظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ وهم مُهتدونَ** ﴾[4] .

إنهم لا يشركون ، ولا يلبسون ما يؤمنون به بالظلم ! .

﴿ **وإذْ قالَ لقمانُ لابنهِ وهوَ يعِظهُ يا بنيَّ لا تشرِكْ باللّه إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ** ﴾[5] .

فعبادة الشيطان وأتباعه والامتثال لأوامره ظلم لله المتعالي وظلم للنفس ؛ فقد يتوغل الإنسان بالظلم والجور إلى درجة يصل معها إلى الحيونة ، بل يصير أضل من الحيوانات نفسها ، فيظلم الآخرين باغتياب أو بنميمة أو بشائعة أو

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠ .
(٢) سورة النساء، الآية ٩ .
(٣) سورة الأنعام، الآية ٨١ .
(٤) سورة الأنعام، الآية ٨٢ .
(٥) سورة لقمان، الآية ١٣ .

بتهمة ، وبعد ذلك يأتي ليقول إنه مسلم ! .

كيف ذلك ولم يسلَم الناس لا من لسانك ولا من يدك!!؟ .

إنك لا تستحقُّ الأمن لأن الناس لم يأمنوك ، وإنما المستحق لذلك هم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ! .

[٢]
أيّـام اللّـه

عرضنا في ما مضى إلى أيام الله تعالى وأنها يجب أن نستثمرها لتربية أنفسنا وأبنائنا ، ولبناء الإنسان المسلم السويِّ ، وأن التذكير بأيام الله ورد في القرآن المجيد لكي يكون لنا عبرةً وعظةً ؛ وأن مسيرة التأريخ التي احتوت على القصص أنبأتنا بمصائر ومآل الأقوام الذين لم يلتزموا أوامر ونواهي الخالق المصور ـ جلَّت أسماؤه ـ .

إن الأيام التي نعتها الباري بأنها أيامه كانت حافلة بالحوادث المثيرة والمدهشة التي تدلل على عظمته وجبروته .

ولو طالع الإنسان تلك الحوادث بدقة وأمعن النظر فيها لاستفاد كثيراً من تجارب الآخرين ولتمكن من ممارسة (التوحيد الأفعالي) الذي يؤدي بالبشرية إلى سعادة الدارين ، بعيداً عن الاضطراب والقلق والحزن مانحاً إياهم الوقار والسكينة والطمأنينة .

قسّم علماء الكلام والفلاسفة التوحيد أربعة أقسام :

١ ـ التوحيد الذاتي :

وهو التوحيد الذي شاهدناه وتعلمناه من آبائنا وأجدادنا حيث كانوا يقولون لنا دائماً : إن الله واحد ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، وأن التوحيد هو الأصل الأول في أصول الدين ، وبعبارة أخرى التوحيد يعني : أن في عالم الوجود واحداً واجب الوجود حاكماً عادلاً ، وليس اثنين .

وهذا ما يمكن التدليل عليه بوضوح في كثير من المواقف والحوادث والقضايا .

يقول صدر المتألهين في أسفاره :

واجب الوجود : موجود لا نهاية له ولا حد ، ولو كان كذلك ، لما كان واجب الوجود .

إنه موجود في كل مكان وزمان ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد . وعندما نتصور هكذا موجود بالإدراك تكون التثنية مستحيلةً ، ولهذا يكون « واجب الوجود » أحاديته ، فإذا قلنا بثنائيته صار محدوداً ، وما حد سقط عنه قول « واجب الوجود » .

فالتوحيد الذاتي هو : وحدانية الله ، وليست ثنائيته ، إذ لا ثنائية في الأمر ، والدليل على ذلك واضح بنظر الفلاسفة والعرفاء ؛ وبالقدر الذي يدركه البشر يكون واجباً ؛ وإدراكه على أنه واحد غير محدود يسمى بالتوحيد الذاتي .

٢ ــ التوحيد الصفاتي :

وهو : أن صفات الله ـ تعالت أسماؤه ـ عين ذاته .

وإذا أردنا تقريب المعنى إلى الأذهان نقول : إن التوحيد الصفاتي هو نظير الملوحة بالنسبة للملح ، أو نظير الرطوبة بالنسبة للماء .

فالملح يعني الملوحة ولا يمكن فصل الملوحة عن الملح ، كأن يكون الملح شيئاً ذاتياً والملوحة عارض أو حالة طارئة ! .

والحالة الطارئة هي كالإنسان وعلمه ، والإنسان وقدرته ، والإنسان وإرادته وشعوره ، أي كل هذه زائدة على ذات الإنسان ، فالإنسان لم يكن عالماً في يوم من الأيام ، لكنه أضحى كذلك بعدما اكتسب العلم ، وعندما كان طفلاً لم يكن يمتلك قدرة على المشي أو الصعود أو ما شابه ذلك ، لكنه اكتسب هذه القدرة بعد مرور أعوام وأيام .

وعندما يشيخ تنسلخ منه تلك القدرة ؛ ولكن لا يمكن انسلاخ وفصل الملوحة عن الملح أو الرطوبة عن الماء فوصل الرطوبة يعني انعدام الماء .

وكذا الأمر بالنسبة لصفات الباري تعالى ، فعالم تعني العلم وتعني أنه تعالى العلم والإرادة ، والقدرة والشعور ، كلهن غير زائدات على ذات الله المقدسة ، بل عين ذاته .

فوجوده يعني وجود العلم ، ويعني الإرادة والقدرة . ووجود الملح يعني الملوحة . فالملوحة هي الملح وهذا الشيء تطرق إليه أبو الأئمة أمير المؤمنين علي (ع) في أول نهج البلاغة ، فقال : « . . . وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدَّه ، ومن حدَّه فقد عدّه . . . »[1] .

قال صدر المتألهين ـ عليه الرحمة ـ في أسفاره : إن التوحيد الصفاتي بالنسبة للإنسان ينحصر بمقدار التصور والإدراك لواجب الوجود بالقدر الذي لا يجعله محتاجاً للخروج على قاعدة صفات الله عين ذاته .

إن إدراك مسألة التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي يجعل المرء موحداً عقائدياً ويلزمه أن يكون موحداً أيضاً بسلوكه وعمله .

٣ ــ التوحيد العبادي :

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يعمل من أجل أحد ، بل يجب عليه أن يكون عمله لله وحده لا شريك له ، وبعبارة أخرى لا ينبغي له أن يجعل أحداً يتحكم في عواطفه وقلبه ، ومن فعل ذلك فهو عابد لذلك الشخص ، وذلك الشخص إلٰهه .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿**أفرءيت منِ اتخذَ إلٰههُ هواهُ وأضلهُ اللّٰهُ على علمٍ**﴾[2] .

إن الذين يتحكم الهوى في قلوبهم وعقولهم أشد شركاً من أولئك الذين

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

كانوا يعبدون الأوثان والأصنام الحجرية والخشبية ، فهؤلاء يقولون : إنها تقربهم زلفى من الله ، أما الذي اتخذ إلّهه هـواه فلا يعبـد الله ولا يتقرب بهـواه ذلك إلى الله زلفى .

فالتوحيد العبادي : هـو الخضوع لله فقط : ﴿ **إيّـاك نعبد** ﴾[1] ، وهـو تقديم ما هو حقه التأخير ويفيد الحصر .

فـ « نعبدك » ضمير متقدم ، وتقدم الضمير دلالة على الحصر ؛ وتعني أننا نعبدك فقط ، ولا نعبد غيرك ، سواء كان هوى أم شيطاناً أم أوثاناً أو غير ذلك .

فإذا أصبح الإنسان عبداً للشهوة ، أو عبداً للأموال ، تعلق قلبه بالشهوات وتعلق قلبه بالأموال ، وهذا التعلق يمنعه من أداء واجبه المفروض عليه ، فالذي تعلق قلبه بالأموال لا يتأتى له أن يعطي حقوق الفقراء والمساكين حاله حال ذلك الذي كان في زمن الجاهلية يعبد الأوثان والأصنام والحجر ؛ وحاله حال هؤلاء الذين يعبدون في زماننا الحـاضر (متـاع الرجـل أو متاع المـرأة) في الهند واليابان .

فإذا كان الفرد لا يتمكن من الحؤول دون غريزته الجنسية ، يُعدُّ عابداً للأصنام فذاك الذي في اليابان يعبد (متاع الرجل أو متاع المرأة) لا يختلف عن هذا العابد للشهوات أو ذاك الذي يعبد الأوثان أو الذي يعبد الأموال ، فكلهم عبيد لغير الله تعالى .

إن سورة يسّ المباركة تتصدى لمثل هذه الأمور ، وهي من السور التي ينبغي أن تقرأ في كل صباح لتأثيرها الملحوظ في الحياة الدنيوية والأخروية ، ونقرأ فيها : ﴿ **ألَمْ أعهدْ إليكمْ يا بنِي ءادمَ أن لاَّ تعبدُوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ** ﴾[2] .

أي : أنسيتم أيُّها الناس عهدي إليكم أن لا تعبدوا الشيطان الذي أغوى أباكم آدم وأخرجه من الجنة وزوجه ، وأقسم مراراً على تضليلكم وإضلالكم ؟

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) سورة يسّ، الآية ٦٠.

ألا تعلمون أنه عدوٌّ لكم وأن هذا الأمر غير خاف على أحد .

فالذي يعبد الأموال أو النساء ، أو السلطة ، أو الشهرة ، عابد للشيطان الرجيم . وفرقه مع ذلك الذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتي ؛ أنه يُعدّ مشركاً بالله بحبِّه للمال وعبادته له ، والذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتيّ يقول بإشراك إلٰه آخر مع الله .

فالاثنان يلتقيان في نقطة واحدة هي الشرك سواء كان إلٰهاً آخر أم مالاً أم شهوةً ونحوها .

٤ ــ التوحيد الأفعالي :

وهو : أن الإنسان لا ينبغي أن يرى غير الله في هذا العالم مؤثراً ، وقد بيَّن القرآن المجيد التوحيد الأفعالي بالآية المباركة التي تقول : ﴿ **قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ وتعزُّ منْ تشاءُ وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾[1] .

إن هذه الآية الشريفة تعني بالضبط أن لا إلٰه إلا الله ؛ أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وما دونه وسائل فقط .

فالسعادة مرهونة بالله ، فإذا تمكنا أن نصل إليها بواسطة العلم أو القدرة أو الشهرة ، يعني أنّا وصلنا إليها بتأثير من الله تعالى فهو الذي أعطى العلم ، والقدرة ، والوجاهة ، ولا يتأتّى لأحد أن يأتي بهذه النعم لولاه جلَّت صفاته ، وأن البشر مجرد وسيلة لوجود السعادة .

فإذا كان توحيدك العبادي متخلخلاً بنسبة (٩٠٪) يكون التخلخل في التوحيد الأفعالي (٩٥٪) بل أكثر في بعض الحالات الطارئة .

ولذا يكون تعريف زليخا ـ في سورة يوسف للقدرة شركاً بالله العظيم : ﴿ **ومَا يؤمنُ أكثرهُم باللَّهِ إلاَّ وهمْ مشركونَ** ﴾[2] .

فقد يقول البعض إنه مؤمن ، وإنه يعلم أن صفات الله عين ذاته ، وأن قلبَه

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٦ .

لا يحكمه إلا الباري تعالى ؛ ولكنه عندما يصل إلى التوحيد الأفعالي يتلكأ ، ويؤكد القول : إرادتي وعلمي وجاهي وجلالي ؛ وهذه كلها لا تتناسب مع التوحيد الأفعالي ، لأن الإرادة لله وحده ، والعلم من الله وحده ، والمال مال الله وحده .

والإنسان يصعب عليه أن يطابق بين رسوخ هذا التوحيد والعمل به ، فمن فقد هذا التوحيد تراه دائم الاضطراب ، يسيطر عليه الخوف والقلق ونحوهما .

إن من سيطر على قلبه هذا النوع من التوحيد لا يفرح بما يأتيه ، ولا يأسى على نعمة سلبت منه ، لأنه يؤمن إيماناً كاملاً بأن ما يقدِّره الباري تعالى هو الأفضل ، وما يقدِّره البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما يقدِّره المولى تعالى .

يقال : إن إحدى النساء العارفات كانت تحتضر ، فاجتمع من مثلها حولها ، فقالت إحداهن : نحن العرفاء لا نعرف عارفاً إلا من خلال شكره على النعم .

وقالت أخرى : نحن لا نعرف العارف إلا من خلال شكره في البلاء .

فقالت المرأة التي على فراش الموت : العارف لا نعرفه إلا من خلال نظرته الحسنة إلى عالم الوجود ؛ إنه لا يرى إلا الحسن في عالم الذَّرِّ .

فالذي يأتي من الحق تعالى حسن وجميل ، وما يأتي منه إلا لمنفعة أو فائدة ، وما يأتي منه هو المصير المحتوم الذي يجب أن يأتي ، فالحزن والهمُّ لا يمكن أن يغير المصير ، وكذا الفرح والسرور . وإن الاثنين فيهما ضرر على الحالة النفسية للبشر : ﴿ **لكيلا تأسَوْا على مَا فاتكُم ولا تفرحُوا بما ءاتاكُم** ﴾[1] .

أعزّائي ؛ عليكم بمطالعة تاريخ الأسرة البهلوية في إيران ، ومطالعة تاريخ الساواك (الأمن والمخابرات الإيرانية) وزمان الطاغوت وحكومته .

وينبغي لكم مطالعة أوضاع الحرس الثوري ، ومتطوعي جهاد البناء

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣ .

والمسؤولين ؛ وكيفية انفلات تلك القدرة العظمى من يد تلك الأسرة الفاسدة ووصولها إلى أيدي المستضعفين من شعب إيران البطل .

من طهران وأصفهان أرادوا أن يذهبوا به إلى إحدى الجزر ليموت فيها ذليلاً ، وكان حينها في منزل أحد المتمولين الأصفهانيين ، كان يقطع إيوان ذلك البيت جيئةً وذهاباً ويقول : أي ملك الملوك ، يا أيها المقتدر أين الملوكية التي كانوا ينعتونك بها ؟ وأين القدرة التي كانوا ينادونك بها ؟ .

لقد كان شاه إيران يخافه الداني والقاصي داخل وخارج إيران على نطاق المنطقة الخليجية ، وكان اسمه كافياً لإخافة من يفكر في سوء يمكن أن يمسَّ ذلك الشاه المقبور .

ذهب ذلك الشاه إلى غير رجعة ، جمع بساطه في ساعة واحدة وذهب إلى حيث حسابه ، ولو تأتّى لابنه أن يعتبر ، لكان اعتبر بتلك الكتابة التي خطَّها أبوه على ذلك الحيوان الذهبي الموجود في قصر (سعد آباد) وجاء فيها : أين القدرة ؟ أين القوة ؟ أين السلطة ؟ ﴿ كلَّ يومٍ هوَ فِي شأنٍ ﴾[1] .

سأل أحد الملوك وزيره عن معنى : ﴿ كلَّ يومٍ هوَ في شأنٍ ﴾ فلم يتمكن من إعطاء جواب ناجحٍ ،وذهب إلى أحد العلماء ، فقال له : لنذهب إلى الملك معاً فأعطيك الجواب هناك .

وعند وصولهما إلى الملك قالَ : إذا نصبتموني وزيراً سأقول لكم الجواب ! .

فوافق الملك على ما قاله العالم ؛ وبعد التنصيب قال : إن معنى : ﴿ كلَّ يومٍ هو شأنٍ ﴾ هو أن وزيراً من وزراء الملك عالم ديني ، وأن العالم الديني أضحى وزيراً للملك .

لقد كانت قوة وقدرة الشاه كبيرة ، ولكنه بدَّدها بالسوء ، حيث كانت عناصره وجلاوزته يشدِّدون من ضرباتهم في أساس كل شيء فيحيلون تلك

---

(١) سورة الرحمن، الآية ٢٩ .

الأسس إلى هشيم تذروه الرياح ، وقد ساندت الدول العظمى ومنها أمريكة ذلك الشاه بشتى الوسائل والأجهزة ، ليتمَّ لهم ما يريدون ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

إنه لا يريد إلا أن يجري أحكامه في الأرض ، ولا تسبق إرادةٌ إرادة الله سواء كانت داخلية أم خارجية ، فهو القوة وهو العظمة ، وهو الجبروت ، ولا يتأتّى لغيره أن يكون ذلك ، بل لا يليق لأحد أن يكون شيئاً من ذلك .

﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ ، تؤتِي الملكَ منْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

مصائبُ الزهراءِ فاطمة (ع)

إن فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ امرأة لم يأت مثلها ولن يأتيَ أبداً ، كان رسول الله (ص) يطبِّق هذه الآية على الزهراء ويقرؤها لها : ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمينَ** ﴾[1] .

لا يتأتَّى لأحد في العالمين أن يصل إلى حسب أو نسب فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ فأبوها حبيب الله ، رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وزوجها أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين ، وخليفة رسول رب العالمين ، وولداها الحسن والحسين ريحانتا رسول الله (ص) وسيِّدا شباب أهل الجنة ؛ لقد كانت أخلاقها أخلاق الرسول الأمين المصطفى محمد (ص) ، وأمها أفضل النساء بعدها فهي السند الأول والمعين الأفضل للرسول الأمين محمد (ص) ، وقد أفنت كل ما لديها على جادة الإسلام العزيز وكانت في زمانها أثرى من في الحجاز كلها ، وعندما قبضت لم يكن لديها كفنٌ وهذا خير دليل على تضحيتها وإيثارها .

وعند الاحتضار أوصت ابنتها الزهراء البتول بإخبار النبيِّ (ص) بأن والدتها لا تمتلك كفناً ولا بأس أن يكفِّنها بتلك العباءة البالية التي كان يستخدمها في أثناء نزول الوحي عليه لأول مرة .

وقبل انعقاد نطفة الزهراء البتول ـ سلام الله عليها ـ جاء الخطاب إلى..

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٢ .

النبيّ (ص) باعتزال القوم أربعين ليلة كي لا يصيب الكدر نفس وروح الرسول الكريم (ص) من خلال تماسّه للناس .

فكان الرسول الأمين (ص) حينها يذهب إلى غار حراء في جبل ثور ، لينشغل في عبادة الله ـ جلّت صفاته ـ ولم يكن وقتها يتصل مع أحد أو يتحدث إلى أحد .

وفي أثناء هذا كانت خديجة ـ سلام الله عليها ـ خلف جدران بيتها لا تخرج إلى أحد ولا تستقبل أحداً ولا تكلم أحداً ؛ وفي الليلة الحادية والأربعين نزل الأمين جبرائيل ليقول ل (ص) : اذهب إلى منزلك ، فذهب وطرق باب داره ، ليدخل فيه ولتنزل عليه مائدة من السماء لم يشاركه فيها غير زوجه خديجة أُمّ المؤمنين .

إن قانون التغذية يؤكد مسألة الطعام الحلال ، وأنواع الطعام التي يكون بعضها مرققاً للروح أو مقسّياً لها .

وهكذا حملت أم المؤمنين بفاطمة الزهراء التي قال فيها الرسول الأكرم (ص) : « ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين »[1] .

إن التاريخ لم يتعرض لحياة الزهراء (ع) في السنوات التسع الأولى ، ولكنه أخبر عن زواجها الذي كان في ربيعها التاسع من ابن عم الرسول الأكرم (ص) . والتاريخ يخبرنا عن الحياة المتلاطمة في تلك السنين المملوءة بالوقائع والأحداث ويعقب تلك السنوات العجاف نزول سورة الانشراح على صدر الحبيب محمد (ص) : ﴿ **ألمْ نشرحْ لكَ صدركَ ، ووضعنَا عنكَ وِزركَ ، الذي أنقضَ ظهركَ ورفعنَا لكَ ذكرَكَ** ﴾[2] .

إن الحقبة الزمنية التي تربّت فيها الزهراء (ع) في بيت أبيها كانت مملوءةً بالمصائب والبلايا والحروب القاصمة للظهور ، ففي تلك الفترة خاض الرسول (ص) (٧٤) حرباً ، غير الحصار الاقتصادي الذي سبّب نقصاً ملموساً

---

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٢ .

(٢) سورة الانشراح.

في المقاتلين الإسلاميين .

من كان له سيف لم يكن له غلافه ، ومن كان له غلاف لم يكن له سيف ، ولم يكن للغالبية العظمى من مقاتلي الإسلام فرس ، بل إن المقاتلين لشيء ينتعلونه فأغلبهم كانوا حفاةً تدمي الأشواك والصخور أرجلهم عند الكرِّ والفرِّ في تلك الحروب المفروضة على رسول الله الكريم محمد (ص) .

وكانت حرب « مؤتة » والمسلمون لا يمتلكون طعاماً كافياً ، فطعام كل مقاتلين تمرة واحدة يقتسمانها عند منتصف النهار .

وفي « ذات الرقاع » سار الجميع وليس لأحد منهم دابة تحمله ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعدّاه إلى كون المقاتلين حفاةً مما اضطرهم إلى لفِّ أقدامهم بخرق بالية خوفاً من أن تصيبها الأشواك والأحجار الناتئة ، وعليه اشتهرت هذه الواقعة بـ « ذات الرقاع » .

كان سفير الإسلام في هذه السنوات العشر هو « دحية الكلبي » يذهب من المدينة إلى بلد الروم ويرجع لا يحمل معه أي طعام ، وكان طعامه لبن ناقته التي كان علفها تلك الأشواك الصحراوية الجافة ؛ وكانت استراحته عندما ينام تحت ظلالها ، وفراشه جلالها ، وبالرغم من ذلك أنجز مهمته على أكمل وجه .

هكذا كان وضع المدينة عندما وُلدت الزهراء البتول ، واستمر ذلك الحال ثلاث عشرة سنة من المحاصرة الاقتصادية والفقر المقدع والحروب الضروس والبلايا والمصائب .

لقد عاشت الزهراء البتول في وسط الصدمات والمصائب التي ألحقها الكفّار والمنافقون بالمسلمين ، حيث شاهدت التعذيب الذي كان يمارس بحق المؤمنين الأوائل من مثل سميَّة ـ أول شهيدة في الإسلام ـ وياسر بن عامر ، وعمار بن ياسر . . . .

لقد رأت الزهراء بأُمِّ عينيها الدماء تسيل من أقدام الرسول الأكرم (ص) ؛ بعد أن بعث الكافرون صبيانهم لضرب النبي الأكرم (ص) بالحجر والأشواك والأغصان وما إلى ذلك .

كان الرسول الأكرم (ص) دائم الذهاب إلى غار حراء للتهجُّد والتعبُّد والابتعاد عن هؤلاء الذين لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية ، وكان أمير المؤمنين (ع) يذهب إليه في بعض أحيانه حاملاً إليه الطعام فيراه يستغفر لقومه ويقول : « اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

وبعد وفاة السيدة خديجة أُمِّ المؤمنين ، وأبي طالب (ع) ، فقدَ النبي الأكرم (ص) أقوى ظهرين له على الإطلاق ، ولم يبقَ له إلا ابنته فاطمة (ع) وأمير المؤمنين (ع) .

وكانت الزهراء دائمة القول : لو كان أبو طالب حيّاً ، لما استطاع المشركون أن يتجرّأوا على رسول الله (ص) في بعث أطفالهم وصبيانهم ليرموه بالأحجار . . .

كانت الزهراء البتول أُمَّ أبيها ، فكانت البنت المواسية المسلِّية لأبيها ، ومستودع سره العظيم ، ونور عينه ، وثمرة فؤاده .

لم يكن للزهراء البتول كُفْءٌ غير أمير المؤمنين علي (ع) ، فخطبها إلى أبيها ، ولم يكن لديه مهرها ، فأمره الرسول ببيع درعه ليتمكن من تجهيزها ، وقد كلف جهازها (٦٣) درهماً ، اشتمل على قميص وإناء لشرب الماء وحصير وإناء من الخزف لخزن الماء ، وإبريق من الطين وما شابه ذلك .

وعندما نظر الرسول (ص) إلى جهاز الزهراء البتول اغرورقت عيناه بالدموع ودعا الباري تعالى أن يبارك لهما زواجهما ؛ وفي الطريق إلى منزل علي (ع) أهدت الزهراء قميصها الذي كان من ضمن المهر إلى إحدى فتيات لترد منزل الزوجية بقميص قديم ، ويقال إن الآية المباركة : ﴿ **لنْ تنالُوا البرَّ حتّى تنفِقُوا ممَّا تحبُّون** ﴾[1] نزلت بحقِّ الزهراء البتول لفعلها ذاك ، وهي أفضل هدية لها جاء بها الرسول (ص) إليها في اليوم الثاني من زفافها .

فالزهراء البتول (ع) كُفْ عليٍّ (ع) ، وعليٌّ (ع) كُفءُ الزهراء ـ سلام الله

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

عليهما ـ كانا يقتسمان العمل، فالزهراء(ع) تلتزم أعمال البيت من طهي وكنس واهتمام بالأولاد ، والإمام علي (ع) يسعى جاهداً لجلب الماء والغذاء وما إلى ذلك من أعمال ترتبط بخارج المنزل .

وعليه كانت الزهراء (ع) مسرورةً جداً لتلك القِسمة التي أمرهم بها حبيب الله ورسوله محمد (ص) .

ولدت أُم الحسنين فاطمة بنت النبي الأقدس (ص) في السنة الثانية من البعثة ، وقيل : الخامسة ، واستشهدت في العام العاشر من الهجرة ، وللرسول (ص) في حقها كلمات وعبارات صحيحة جاءت في كتب العامة والخاصة .

وقد لقيت في حياتها من الآلام والمصاعب والتعذيب ما لم يكن في الحسبان مع سماع الصحابة بأجمعهم قول النبي (ص) : « فاطمة بضعةٌ مني ، من سرَّها فقد سرَّني ، ومن ساءها فقد ساءَني ، فاطمة أعزُّ البريَّة عليّ »[1] .

قال رسول الله (ص) : « الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما ، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض »[2] .

وقال أيضاً (ص) : « إن فاطمة بضعةٌ مني ، وهي نور عيني ، وثمرة فؤادي ، يسوؤني ما ساءَها ، ويسرُّني ما سرَّها ، وإنها أول من يلحقُني من أهل بيتي . . . »[3] .

عن علي بن الحسين بن علي عن أبيه الحسين (ع) قال : « لما مرضت فاطمة بنت النبي (ص) أوصت إلى عليٍّ (ع) أن يكتم أمرها ويخفي خبرها ، ولا يؤذن أحداً بمرضها ففعل ذلك ، وكان يمرِّضها بنفسه ، وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس ـ رحمها الله ـ على استسرار ذلك كما وصَّت به ، فلما حضرتها الوفاة وصَّت أمير المؤمنين (ع) أن يتولى أمرها ويدفنها ليلاً ، ويُعفي

---

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٣ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٠ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٤ .

قبرها ، فتولى ذلك أمير المؤمنين (ع) ، ودفنها ، وعفّى موضع قبرها ، فلما نفض يده من تراب القبر هاج به الحزن فأرسل دموعه على خديه ، وحوّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص) فقال : « السلام عليك يا رسول الله مني ، والسلام عليك من ابنتك وحبيبتك وقرة عينك ، وزائرتك ، والبائتة في الثرى ببقعتك ، والمختار لها الله سرعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، وضعف عن سيدة النساء تجلّدي ، إلا أن لي في التأسّي بسنتك والحزن الذي حلّ بي بفراقك موضع التعزي ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك بعد أن فاضت نفسُك على صدري ، وغمّضتك بيدي ، وتولّيت أمرَك بنفسي ، نعم ، وفي كتاب الله أنعم القبول ، إنّا للّهِ وإنا إليه راجعون ؛ وقد استُرجعت الوديعة ، وأُخذت الرهينة ، واختُلست الزهراء ، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهّد ، لا يبرح الحزن أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم ، كمدٌ مقيح ، وهمٌّ مهيج ، سرعان ما فرق الله بيننا ، وإلى الله أشكو ، وستنبئُك ابنتك بتظاهر أُمّتك عليّ ، وعلى هضمها حقها ، فاستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج في صدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً ، وستقول ويحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

سلام عليك يا رسول الله ، سلام مودِّع لا سئمٍ ولا قالٍ ، فإن أنصرف ، فلا عن ملالة ، وإن أُقم فلا عن سوء ظن بما وعد الصابرين ، الصبر أيمن وأجمل ، ولولا غلبة المستولين علينا ، لجعلت المقام عند قبرك إلزاماً ، وللبثت عنده معكوفاً ، ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزية ، وبعين الله تُدفن ابنتك سراً ، ويهتضم حقها قهراً ، ويُمنع إرثها جهراً ، ولم يطل العهد ، ولم يخلُ منك الذكر .

فإلى الله يا رسول الله المشتكى ، وفيك أجمل العزاء ، وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته »[1] .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، فيُنادي منادٍ غضّوا أبصاركم ، ونكسوا

---

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

رؤوسكم حتى تجوزَ فاطمة بنت محمد (ص) على الصراط .

قال : فيغضُّ الخلائق أبصارهم ، فتأتي فاطمة (ع) على نجيب من نُجُبِ الجنة يشيِّعها سبعون ألف ملك ، فتقف موقفاً شريفاً من مواقف القيامة ، ثم تنزل عن نجيبها ، فتأخذ قميص الحسين بن علي (ع) بيدها مضمَّخاً بدمه وتقول : يا رب هذا قميص ولدي ، وقد علمت ما صُنع به فيأتيها النداء من قبل الله عزّ وجلّ : يا فاطمة لك عندي الرضا .

فتقول : يا رب انتصِر لي من قاتلِه فيأمر الله تعالى عنقاً من النار ، فتخرج من جهنم فتلتقط قتلةَ الحسين (ع) كما يلتقِط الطير الحبَّ ، ثم يعود العنق بهم إلى جهنم فيعذبون فيها بأنواع العذاب ، ثم تركب فاطمة (ع) نجيبَها ، حتى تدخل الجنة ومعها الملائكة المشيِّعون لها وذرِّيَّتها بين يديها ، وأولياؤهم من الناس عن يمينها وشمالها »[1] .

---

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ٨٤ .

النفس الأمّارة

إن جميع الموجودات تمتلك سيراً وحركةً موسومةً بالمسيرة الإلّهية ، وإن عالم الوجود يشبه القافلة في حركتها ، ولكنه يختلف في سيره كونه يسير صوب الباري تعالى ، وأن الأفراد في حركتهم ومسيرتهم إلى الله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم وجد الطريق القويم وسار عليه ، كما سار الأنبياء والأوصياء ، وأن لهذا النوع أو القسم من الأفراد أعداء الداء يريدون إيقاعهم في شراك السُّبل المنحرفة ، وأن هؤلاء الأعداء على قسمين : الأول : العدو الباطني ، والثاني : العدو الخارجي ؛ وقد تحدثنا فيما سبق عن الغفلة والوسواس وهما يشكّلان العدوَّ الأول والثاني من الأعداء الباطنيين .

أما بالنسبة للعدو الباطني الثالث وهو النَّفسُ الأمَّارة بالسُّوء ، فيعدُّ العدوَّ الأخطر من تلكم التي تحدثنا عنها فيما سبق .

والنفسُ الأمَّارة : نعني بها الميول والغرائز والرغبات والهوى ، وحب التنقل هنا وهناك على وفق ما تمليه علينا الرغبات الترفية .

وقد عرض القرآن الكريم لهذه المسألة فضرب لنا مثلاً في قصة يوسف الصديق الذي كان يقول : ﴿ **وإلاَّ تصرفْ عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن مِّنَ الجاهلينَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٣٣.

أي : إلهي ، إن لم تدرِكني رحمتك ، فسوف تميل بي النفس الأمّارة إلى حيث الهلاك ، وعندها سأكون من الجاهلين .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ **ولقدْ همَّتْ بهِ وهمَّ بها لولاَ أن رَّأى برهانَ ربِّهِ** ﴾[1] .

أي : مالت زليخا صوب يوسف ، ودفعت النفس الأمَّارة يوسف (ع) إلى مقربة من الميلان ، ولكن رأفة الله وعنايته وعصمة يوسف حالت دون ذلك الميل ؛ و ﴿ **برهانَ ربِّه** ﴾ تعني هنا العصمة التي تحول دون ارتكاب المعصية .

وفي تفسير آخر لهذه الآية جاء ما مضمونه :

إنها همَّت بفعل الفساد ، وهمَّ يوسف (ع) لمنعها من ذلك بعد أن عصمه الله تعالى من الزلل والخطأ .

عزيزي القاريء الفاضل : لا يخفى عليك أن القرآن الكريم ليس بكتاب قصة ، متى أراد الإنسان التلذُّذ بالقصص قرأه ، ولا هو بكتاب تأريخ يريد رواية فترة زمنية عن حياة أحد الأنبياء (ع) مع بضعة نساء أخذت الشهوة منهن كل مأخذ ، ولكنه كتاب أخلاقي محض ، لا يضمُّ بين صفحاته إلا المثُل والخلُقُ الرفيع السامي ليتعرَّف الناس نفوسهم الأمَّارة بالسوء كيما يبتعدوا عن الرذيلة .

واعلم أن النَّفس الأمَّارة تنحرف بالإنسان إلى حيث الرذيلة ، إذا ما غفل عن نفسه قليلاً مهما كان عفيفاً . إنها تشجع صاحبها وترغّبه في عمل المعاصي ، وعندما يرِدُ الإنسان موارد السَّوء ، تشجِّعه ثانيةً أن يستمرَّ في عمل المعصية ، وبعد ذلك تحبِّب إليه عمل المعصية ، ليراها مسألةً طبيعيةً ولا غرابة فيها ، وحينئذ يصبح عمل المعاصي ملكةً لا يمكن التخلي عنها إلا بصعوبة بالغة ﴿ **إنَّ النفسَ الأمَّارةُ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحِمَ ربِّي** ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤ .

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٣ .

والنفس الأمّارة هي التي تأمر بالرغبات والأماني والهوى ، وأمّارة صيغة مبالغة تشير إلى أن النفس تلحُّ بالأمر الكثير ، وهي كناية عن عدم شبعها ، فالفرد الذي اتخذَ إلّهه شهوته الجنسية لا يتأتّى له أن يشبع من الجنس ولو أعطي كل نساء الدنيا ، والفرد الذي اتّخذ إلّهه الشهوة لا يروي غليله ، حتى لو سخّرت له الكرة الأرضية بكلها ، والذي اتّخذ إلّهه حبَّ الرئاسة لا يشبع ولو تسلّط على من في الأرض جميعاً ؛ وأن هذه الشهوات لا تتزامن مع الأكل الكثير ، ولا أكل الإنسان إلى حد الانفجار .

فالشهوات والرغبات لا تقف عند حد معين ، لذا يقول علماء النفس : إن الرجل الشهوانيَّ أو المرأة الشهوانية يفضّلان إرضاء شهواتهما ؛ التلذُّذ بالحرام دون الحلال ؛ وأن النفسَ الأمّارة التي لا تردع تميل إلى استطعام الحرام دون الحلال هذا إذا تسلّطت الغرائز والأمنيات على النفس البشرية ؛ ولا ينتهي تسلُّط الشهوات على الإنسان إلا بعد أن يدخل نار جهنم الحامية ، فالشهوات لا تترك الإنسان إلا بعد إدخاله في أسفل السافلين .

يقال : إن ذا القرنين وبالرغم من فتوحاته المتمادية وامتلاكه للكثير من البلدان قال : بعد موتي عليكم بإخراج يدي من التابوت ، ومتى رأيتم جمعها وانسدادها ادفنوني في المكان الذي تنجمع فيه .

أخرجوا يده من التابوت وساروا به ولكنهم لم يروا يده إلا مفتوحةً فقال لهم أحد العلماء : إذا أردتم جمعها فضعوا فيها حفنة من تراب ، فحصل ما لم يكن بالحسبان ، واجتمعت أصابعه ودفن في ذلك المكان ؛ وبعد ذلك قال العالم : إن الإنسان لا يشبع من شيء أبداً إلا أن يكون قانعاً ، أو يموت دون تلك الرغبة .

إن الإسلام العظيم لا يقول بقتل تلك النفسَ الأمّارة ، فقتلها محرم في قانون الإسلام ، ولكن الإسلام يأمر بتهذيبها وصدعها وردعها لتتعوَّد ما نريد تعويدَها وفق نظام الإسلام العظيم .

جاء في تفسير الصافي أن ثلاثة أشخاص ابتعدوا عن الدنيا وما فيها ، فتركوا نساءهم وهجروا معاشرة الناس ، وصمّموا على عدم تذوق لذيذ الطعام .

وعندما ذهبت إحدى زوجات هؤلاء الثلاثة إلى عائشة ، قالت لها متعجبةً ـ بعد أن شاهدت عليها عدم التزيُّن مثلما تفعل المتزوجات ـ: أليس لك زوج ؟ .

قالت : بلى .

فقالت عائشة : ولِمَ لا يدلُّ وضعِك على ذلك ؟ .

فأجابت : أدار زوجي ظهره للدنيا وتركنا ليسكُن البراري ، فروت عائشة ذلك للنبي (ص) وكان الوقت ضُحى ، فاغتاظ الرسول (ص) وخرج صوب المسجد في وضع لفت أنظار الجميع إذ كان بين الجاري والماشي ، وطرفُ عباءته يثير خلفه التراب ، ليدخل إلى المسجد ويأمر بجمعٍ الناس ، ثم يقف غاضباً على الدرجة الأولى من منبره ، ويقول : « الزواج سُنّتي فمن رغبَ عن سُنّتي فليس منّي » . قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ **قلْ منْ حرَّم زينةَ اللّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ منَ الرزقِ** ﴾[1] ، وقال أيضاً : ﴿ **يا بَنِي آدمَ خذُوا زينتكُمْ عندَ كلِّ مسجدٍ وكلُوا واشربُوا ولا تسرفُوا إنَّهُ لا يحبُّ المسرفينَ** ﴾[2] .

وقال أيضاً جلّت أسماؤه : ﴿ **وابتغِ فيمَا آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدنيا وأحسنْ كما أحسنَ اللّهُ إليكَ . .** ﴾[3] .

ومثل هذه الحكاية جرت مع أمير المؤمنين علي (ع) حينما دخل المسجد ، ليرى مجموعةً من الرجال يتعبّدون في المسجد ، فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم رجال الحق ، وإنهم لا يغادرون المسجد ليل نهار ، فإذا أصابوا طعاماً أكلوه ، وإن لم يصيبوا شيئاً صبروا قانعين ، فرفع حينئذ أمير المؤمنين (ع) سوطه على رؤوسهم بعد أن وصفهم بالكلاب ؛ لأن الكلاب تصبر إذا لم تجد

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣١.

(٣) سورة القصص، الآية ٧٧.

ما تطعمه وأخرجهم من المسجد بعد أن تركوا زوجاتهم وأطفالهم دون طعام ولا شراب .

إن الإسلام لا يريد أن يكون المسلم ذليلاً ، بل يريده عزيزاً من خلال التزامه بالكدِّ على نفسه وعياله بعيداً عن سؤال الناس لما يطعمه .

إن أولئك الأفراد أرادوا قتل الغرائز الجنسية والميول النفسية على طريقتهم الخاصة ، بالرغم من أن الحكيم العزيز دلَّنا على الطرق التي يكون فيها البشر ملتزماً بالأخلاق الفاضلة بعيداً عن الإفراط والتفريط .

إن النفس تحتاج إلى من يرتِّبها وينظِّمها وفق النظام الإسلامي العظيم لتكون فاعلةً في سيرها إلى الله العلي القدير حالها حال ذلك الحصان الذي يوضع اللجام في فمه ، فإن رُفع اللجام عنه انشغل عن السير بالأكل وبذلك سوف يتلقَّى الضربات من صاحبه الذي يريده أن يسير على الطريق الذي رسمه له .

كنت صغيراً حينما كان في مدينة أصفهان أحد المستجدِّين في وضع لا يُحسد عليه أبداً ، وكان له حمار عليه خرق بالية وقدرة ، يرافقه طفل ولو رآه شمر بن ذي الجوشن لرقَّ لحاله ناهيك عن كون ذلك السائل أعرج .

اتفق أن يمرض ذلك السائل فذهبوا به إلى المشفى ، حيث كان يردد : ائتوني بجلال الحمار ، ائتوني به يرحمكم الله ، فرقُّوا له لما رأوه يحتضر وأحضروا جِلال الحمار ، وما إن رآه تحسَّر بآهٍ عميقة ومات ، وبعد موته فتح بعضهم جُلَّ حماره ليرى مبلغاً كبيراً من النقود كان قد أخفاها في الجلِّ!! .

فإذا أصبح الإنسان يعبد المال أضحى مثل ذلك السائل لا يملأ رغبته غير حفنة من التراب ـ والعياذ بالله ـ ويطرق كل السبل من أجل إرضاء غريزته التي لم يسيطر عليها ولم يلجمها .

كان عليُّ بن إسماعيل طاهر النسب ، وكان عمه الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ، وجده الإمام الصادق (ع) ، وكان أبوه إسماعيل عالماً زاهداً يعتبره الإسماعيلية أحد الأئمة ، وفي زمنه استشهد الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) .

عليّ بن إسماعيل كان عبداً للمال ، وكان المال بالنسبة له كل شيء ، وفي زمنه أراد البرامكة بالإمام الكاظم (ع) سوءاً ، فاستغلوا حبه للمال وأمروه بعد أن قدموا له الأموال أن يشهد زوراً على الإمام الكاظم في مجلس هارون الرشيد ؛ وكان الإمام الكاظم قد نهاه عن السفر إلى بغداد فأجابه ؛ بأنه مدين لبعض الأفراد ويروم الحصول على مال من هارون ، فعرض عليه الإمام (ع) ما لا يسدُّ حاجته ، لكنه أبى إلا الذهاب إلى بغداد ليلتقي بهارون ؛ وعندما قال له الإمام (ع) : لا تكن شريكاً في دمي؟! .

فقال : ما الذي تعني في قولك هذا ؟ فكرَّر الإمام (ع) حديثه لعلمه أن علي بن إسماعيل عبداً ذليلاً أمام الذهب والفضة .

ذهب علي بن إسماعيل إلى بغداد فسعى بالإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) في مجلس هارون ، وقال مخاطباً إياه : لو كنت أنت الخليفة فمن يكون موسى بن جعفر ؟ ولو كان هو الخليفة فمن تكون أنت ؟ لقد جمع موسى بن جعفر الأموال والسلاح وتهيَّأ لحربك فبادِره قبل أن يبادِرك!! .

وعند ذاك تفتّحت أسارير هارون الرشيد ليقدم لصاحبنا جائزةً قدرها (٢٠٠) ألف درهم ، وليجد عذراً في قتله للإمام الكاظم ـ سلام الله عليه ـ ولكنه لم يسعد بجائزته حيث لقي حتفه قبل استلام جائزته المزعومة تلك .

كان نسب علي بن إسماعيل ، من أرقى الأنساب ، ولكنه انحرف عن الجادة الصواب لكونه كان عبداً لغريزته على العكس من ذلك العالم الذي كانت غريزته عبداً له ؛ إنه المقدس الأردبيلي أحد مراجع المسلمين العظام .

سأل أحدهم هذا العالم الجليل : لو تأتّى لك الاختلاء بفتاة جميلة ، فهل تحدِّثك نفسك بعمل ما لا يليق بالشرع المقدس ؟ .

فأجاب : سألت الباري تعالى أن لا يحشرني في وضع هكذا .

لم يقل الأردبيلي : لن أفعل شيئاً ، ولكنه قال : سألت الباري أن لا يحشرني في وضع مثل هذا! وذلك لأن النفس أمّارة بالسُّوء ، إذا عصفت بها الشهوات تنكّرت للشرائع إلا ما رحم ربي ، سألت الله تعالى أن يجعلنا ممن

يستطيعون السيطرة على غرائزهم .

ومن أجل ذلك منع الإسلام منام الأخ والأخت من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم عن الثماني في فراش واحد ، ويستحبُّ أن يُحال بينهم شيء حتى ولو كان من قبيل الستارة أو ما شابه ذلك .

وقد نرى البعض ممن يدَّعون التمدن والحضارة يلوم زوجته على تمسكها بالحجاب ، وينعتها بالرجعية والتخلف ليتمكن بهذه الوسيلة من حرفها عن جادة الصواب .

فعلى وقتنا الحاضر نشاهد الكثير من هذه المسائل ، ولو رجعنا إلى السبب في ذلك ، لرأينا بوضوح عمل النفس الأمَّارة بالسوء التي تعصف بالمرء إلى حيث التقليد الأعمى والجهل المركب أعاذنا الله وإياكم من هوى النفس ورغباتها :

أعزائي القرّاء الأفاضل : كلُّنا سمع وقرأ عن علي الأصغر ابن الإمام الحسين بن علي ـ عليهما السّلام ـ وما جرى له في أرض كربلاء ؛ بعد أن طغت غرائز القوم وتفاقمت تنكّروا بكل القيم الفاضلة والمثل الإسلامية الراقية ، لقد تجردوا عن العواطف الإنسانية ، وأصبحوا حيوانات مفترسة لطغيان غريزة حب السلطة ، وحب الدنيا .

جاء الإمام الحسين (ع) يحمل طفله الرضيع بعد أن اعتمَّ بعمامة رسول الله (ص) إلى القوم يطلب ماءً له ، ولكن أحد أولئك الذين أرادوا كسب رضا العبيد رماه بسهم في عنقه فسال دمه الطاهر في حضن أبيه ، ومن هو أبوه ؟ إنه ابن بنت رسول الله (ص) ، إنه ابن الزهراء البتول التي قال فيها الرسول (ص) : « من أغضبها أغضبني ، ومن أغضبني فقد أغضب الله »[1] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ١٩ ـ الاحتجاج للطبرسي .

الحسد ، الكبر ، الرياء

﴿ ولولاَ فضلُ اللَّهِ عليكمْ ورحمتُهُ ما زَكى منكُم مِّنْ أحدٍ أبداً ، ولكنَّ اللَّهَ يُزكِّي من يشاءُ ، واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[1] .

إن جميع الأنبياء والرسل ـ سلام الله عليهم ـ جاءوا من أجل الأخلاق الفاضلة ، ومن أجل خلق مجتمع سليم بعيداً عن الصفات الرذيلة والمتدنِّية كالحسد والكبر والتظاهر والرياء والعجب وسوء الظن وما شابه ذلك من الصفات المنحطَّة .

ولا يتأتى لأي فرد أن يدَّعي أنه لا يمتلك إحدى هذه الصفات الرذيلة ، أو يقول : بأنه تمكن من قلع جذور هذه الصفات من نفسه الأمَّارة ، لأن قلع جذور هذه الصفات يتطلب جهاداً مريراً ، إضافةً إلى فضل من الله ورحمة .

قد يتصور البعض أنهم لا يوجد في كوامنهم صفة رذيلة ؛ ويمكن أن يتعرفوا ذلك حينما تعصف العواصف ، وحينما تمحِّصهم البلايا ، لأن أغلب الصفات الرذيلة تشبه في وضعها النار التي تحت الرماد ، وما ينزاح الرماد حتى تُرى النار الحامية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن للإنسان أن يقدِّر وجود أو عدم صفة الحسد فيه إلا إذا محِّص بالتجربة .

فنرى البعض يدّعي عدميّة الحسد في كوامن نفسه ، ولكنه يتحرَّق من الغيظ حينما يرى صاحبه قد حصل على جائزة تقديرية له في عمل معين ،

---

(١) سورة النور، الآية ٢١ .

ويتمنى موت زميله الإداري إذا أصبحَ مديراً للقسم الذي هو فيه ، بالرغم من أنه كان بالأمس يحبُّه ويودُّه ويرجو له كل الخير ظاهراً .

هذا هو الحسد ؛ إنه تمنِّي زوال نعمة الغير ، أو تمنِّي إصابة الخير الذي أصاب منه أحدهم بحيث يُمنع فرد من خير يستحقه ؛ ولا بأس إيراد حكاية في هذا المجال ؛ وقبل الشروع في الحكايـة نذكر مثلاً ينطبق على حكايتنا بدقة ؛ وهو قول أحدهم : الحمار الأسود يقتل نفسه من أجل إلحاق الضرر بصاحبه والحكاية هي :

ذكر المرحوم المحقق النراقي في معراج السعادة أن شخصاً اشترى غلاماً وذهب به إلى منزله ، وكان الشاري على العكس مما هو معروف وشائع يخدم غلامه بشكل يثير الدهشة والعجب ، فسأله الغلام عن فعله ذاك فقال : كل هذا من أجل أن تقدم لي خدمةً واحدةً وهي : أن تذبحني على سطح جاري بعدما تُحكم شـدَّ يدي ورجلي ، ومـا إن تفعل ذلـك حتى تطلق العنـان لـرجليـك بالهرب ! فسأله عن السبب في ذلك ؟ فأجابه : إن الوضع الحسن الذي يتمتع به جاري لا أطيقه وأشعر بأن وضعه المادي أفضل من وضعي ، وأريد أن يؤخذ به إلى السجن ، ليفقد ما يتمتع به من راحة بال وهدوء ؟! .

فصعد الرجل وغلامه ليلاً إلى سطح جاره الغافل ، وشدَّ الغلام وثاق مولاه وذبحه بناءً على طلبه ، ونزل دمه من المزراب إلى وسط الشارع فشكَّ أحـد المارة بالأمر ، فاستنهض الحرَّاس وشحذ هممهم ليطلعوا إلى سـطح الدار ، ويمسكوا بالغلام المسكين .

قصَّ عليهم القصة ، فذهبوا به إلى السجن ومـات مولاه دون أن يمس جاره ضرر .

إنه كذاك الحمار الأسود الذي يقتل نفسه من أجل أن يضرَّ بصاحبه .

فالبعض يذهب إلى جهنم الحامية ويضحى جهنمياً من أجل أن يذهب بماء وجه الآخرين ، أو من أجل أن يلحق بهم الضرر .

فالحسد يجرُّ إلى التهمة والغيبة والنميمة وإلى كل شيء يمكن أن يساهم

في أذى الآخرين ، إو إسقاطهم من أعين الناس .

فالحسد أساس الكثير من الصفات الرذيلة ، ولو خلا قلب المسلم من الحسد لاستخفت أغلب الصفات المتدنيّة والمنحطّة التي تحطُّ صاحبها في جهنم الحامية .

قال رسول الله (ص) : « ألا ! لا تعادوا نِعَم الله .

قيل : يا رسول الله : ومن الذي يُعادي نِعَم الله ؟

قال : الذين يحسدون »[1] .

وقال الإمام الصادق (ع) : « الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى وهما جناحان للكفر ؛ وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد ، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً »[2] .

أما بالنسبة للكبر ، فقد قال فيه الإمام الصادق (ع) : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر »[3] .

فالكِبر يعني الركون إلى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزةٌ وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير ، واعتقاد المزيَّة والرجحان عليه ؛ قال رسول الله (ص) : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذرِّ ، تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى . . يسقون من طينة الخبال ، وعصارة أهل النار . . »[4] .

إن إحدى المسائل التي تؤدي بالإنسان إلى التكبُّر هو الجهل ، والجهل المركب لأن العالم أسمى من أن يتكبَّر ، وأكبر من أن يخيِّم عليه ظلام التكبُّر المقيت لذا نصح الكثير من العلماء والفقهاء بضرورة طلب العلم والحكمة حتى

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٢٤٩ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٧٨ ، ص ٢١٧ .
(٣) جامع السعادات/ج ١ ، ص ٣٤٦ .
(٤) كنز العمال/ج ٢ ، ص ١٠٧ .

تعمر القلوب ، وتبتعد عن التكبُّر والخيلاء وما إلى ذلك من الصفات التي تدخل الإنسان في مداخل يندم عليها كثيراً حين لا ينفع الندم .

قال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ، ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبِّر ،

ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجّه ، ومن يطأطىء أظلَّه وأكنّه »[1] .

فالذي يتبختر في مشيته ، ويتكبّر على الآخرين بحصوله على شهادة الماجستير ليس عالماً ، ولا فاضلاً ، بل متكبِّراً وضالاً ، لأن ما عنده من علم لا يعدو أن يكون قطرة ماء في بحر ؛ فالعلم يمنحه الباري تعالى من خلال سعي الإنسان الحثيث للوصول إليه ، وحريٌّ بالله تعالى أن يتكبَّر بعلمه ، ولا يليق لأحد سواه لأن يتكبَّر ـ جلَّت صفاته ـ .

قال الإمام الباقر (ع) : « الكبر رداء الله ، والمتكبِّر ينازع الله رداءه » ، وقال : « العزُّ رداء الله والكبر إزاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبَّه الله في جهنم »[2] .

أما الرياء ، فهو إحدى شُعب النفاق ، والمرائي يظهر عكس ما يبطن ، فتراه يظهر الودَّ والحبَّ للآخرين ويبطن لهم العداوة والبغضاء ، ويسلِّم عليهم بالرغم من أنه يريد تمزيق أحدهم تمزيقاً .

إنه النفاق بعينه وقد لاحظنا هذه الحالة عند البعض حينما شاهدناه يصلي في المسجد من أجل أن يفهم جاره بأنه إنسان متديِّن وملتزم ، ولو ترك لحاله لما صلَّى ولا صام أبداً .

هذه الحالة من التظاهر والرياء والنفاق تجرُّ الإنسان إلى سوء الظن بالآخرين ، ففي المدرسة يسيء الظن بزملائه الملازمين له ، وفي السوق يظن سوءاً بالتاجر الذي يبيعه بضعة أمتار من القماش ، ويسيء الظن كذلك بحكومته

---

(١) إحياء العلوم/ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) جامع السعادات/ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ودولته حينما يقلّ جريان الماء في أنابيب مياه بيته .

وقد يصل سوء الظن به إلى أن يظنَّ سوءاً بزوجته وابنه وابنته على الرغم من أنه ينبغي له من وضع أمورهم على أحسنها .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »[1] .

أما العجب ، فهو من المهلكات العظيمة ، وأرذل الملكات الذميمة ، وهو استعظام النفس لما يرى فيها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لم تكن .

إن المعجبين بأنفسهم ينظرون إلى جميع أعمالهم وأفعالهم وأقوالهم بعين الرضا وبكل جمال وجلال ، بل حتى إنهم يرون نقائصهم بصورة فضائل بارزة ؛ قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) : « العجب درجات منها : أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيحبّه ويحسب أنه يحسن صنعاً »[2] .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « العجب يفسد العقل »[3] .

إن انحطاط الأفراد ورقيَّهم يرتبط بمكانتهم الروحية ارتباطاً مباشراً ، والرذائل الأخلاقية منتشرة في شتى مراحل الحياة بأشكال مختلفة ، ينشأ كثير منها من مشاكل الحياة عن ميولنا الخاطئة غير المعتدلة .

فغريزة « حب الذات » على سبيل المثال لو خرجت عن الاعتدال وسلكت جانب الإفراط أصابت بخروجها هذا عن اعتدالها جهاز العقل الإنسانيّ في الصميم ، فمنعته عن إدراك واقعيات الحياة .

وعلى هذا يجب علينا أن نصرف أكثر مساعينا في سبيل تعديل هذه الخصيصة الذاتية ، ولو أهملناها بلا حدّ محدود ولا قيد ممدود لعجزنا عن أي

---

(١) غرر الحكم .

(٢) وسائل الشيعة/ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) وسائل الشيعة/ج ٢ ، ص ٢٢١ .

تقدم في طريق التخلُّق بالأخلاق الحميدة .

ودون تنظيم للنفس الإنسانية لا يمكننا أن نعيش عيشةً راضيةً مرضية .

إن من إحدى الصفات الذميمة التي تجرح عواطف الآخرين بشدة ، وتقطِّع أوصال المحبة والوئام (الجدل واللجاج) ، فاللجوج المجادل إن لم يكن يعلم أسباب سلوكه الجدلي ، فليعلم أن الإفراط في حب الذات من العوامل الأساسية لنشوء هذه الخصلة المذمومة عنده ، وأنها إنما ترتوي من منبع هذه الغريزة .

إن الشخص اللجوج المجادل من أجل أن يروي عطش غروره يعترض على كل متكلم أو كل من له رأي خاص بموضوع ، واعتراضه ذاك لا يكون للإرشاد أو رفع شبهة ، بل لكي يثبت بهذه الطريقة التافهة فضائله الموهومة ولكي يحطم شخصية المتكلم بانتقاداته غير الصحيحة واتهامه باللغو وسوء الفهم .

وقد يتستّر اللجوج في بعض أو أغلب أحيانه بستار من كلمات الاستفهام أو الاستفسار أو الاستعلام أو الاستيضاح .

والجدير بالذكر أن الشخص المهان ستصدر عنه ردود فعل تصل في بعض أحيانها إلى الانتقام .

وهكذا نرى أن تفشّي هذه الصفة بين أفراد الأمة الواحدة قد يؤدي بهم إلى فقد وحدتهم في الفكر والسلوك ويجرُّهم إلى نزاعات ما كان لتكون .

يقول أحد العلماء : العقل مصباح منير يهدي البشر في ظلم الجهل ويرفع عنه أعباء مشاكله ، وها نحن نفخر على سائر المخلوقات بأنا ندرك به مقدمات الأمور وأسبابها ونتائجها .

ولكن الويل لنا لو أردنا أن نكشف عن حقيقة بقوة الجدل ، إن المناقشة الجدلية لا تؤثر شيئاً سوى اضطراب الفكر والخيال ، ثم لا أثر لها سوى أن تبدي جهل الطرفين وخطأهم في البحث العلمي لا غير ، وأنها لا تستطيع أن تغيِّر فكر الآخرين وتجعلهم تبعاً لأفكارنا .

قال رسول الله (ص) : « من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه »[1] .

وقال الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء ، وإن كان حقاً »[2] .

اللهمّ إنا نسألك وندعوك باسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجلّ الأكرم بحق فاطمة يا الله يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلّب القلوب أن تثبت قلوبنا على دينك بحق محمد وآله الطاهرين .

---

(١) نهج البلاغة/ص ٦٣٣

(٢) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

العدو الظاهري « الشيطان »

تحدثنا في ما سبق عن سير الإنسان في هذا العالم ، وتطرّقنا إلى موضوع العدو الباطني والعدو الظاهري الذي تكمن الأخطار في كل واحد منهما ، وإذ لم يلتفت الإنسان إلى وضعه مع هذين العدوين انجرف صوب الضلالة .

إن الأجزاء السابقة تشهد على تعرضنا للعدو الباطني ، أما الأوراق القادمة فسنتعرض فيها للعدو الظاهري المتمثل بالشيطان الرجيم الذي أخرج آدم وحوّاء من الجنّة ، إنه عدوّ الإنسان المبين ؛ قال تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ **إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبينٌ** ﴾[1] .

وقال أيضاً : ﴿ **يَا بني آدمَ لا يفتنَنَّكُمُ الشيطانُ كمَا أخرجَ أبويْكُم مِّنَ الجنةِ ينـزعُ عنهما لباسَهُما ليرِيَهما سوءاتِهما إنهُ يراكُمْ هوَ وقبيلُهُ منْ حيثُ لا تروْنهُم** ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) : « بينما موسى بن عمران (ع) جالس إذ أقبل إبليس . . قال له موسى (ع) : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ فقال : إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، وصغُر في عينه ذنبه . . »[3] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧ .

(٣) مستدرك سفينة البحار/ج ١ ، ص ١٦ ـ تفسير نور الثقلين/ج ٥ ، ص ٢٦٧

لقد أقسم الشيطان بعزّة الله ليغوينَّ خلق الله من البشر أجمعين ، بعد أن استثنى من ذلك عباد الله المخلصين ، فالذين يعبدون الله حق عبادته يلتزم الباري تعالى بعناية منه خاصة ، ورحمة أبدية فلا يستطيع الشيطان الوصول إليهم بشراكه ووسائله المختلفة التي ينحني أمامها الإنسان غير المخلص : والاستثناء هنا منقطع ، وليس متصلاً أي لا يشمل المخلصين بشكل قطعي ، بل لا يتأتّى له أن يصل إليهم بسبب ذلك الإخلاص الذي فيهم ، والذي هو صنيعة أيديهم .

لقد كرّر القرآن الكريم مسألة « العدو » بالنسبة للشيطان الرجيم في آيات مختلفة لينبِّه الإنسان إلى هذه المسألة المهمة والخطيرة ؛ ونستفيد من الآيات الشريفة التي تعرض لهذا العدو اللئيم . إن للشيطان طرقاً خاصةً ووسائل مختلفةً من أجل حرف البشر عن الهدف السامي الذي خلقهم الله من أجله وهو : ﴿ **ومَا خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ** ﴾[1] .

إن طرق ووسائل الشيطان الرجيم مختلفة من فرد لآخر ، تتناسب مع وضع الفرد الذي يريد الشيطان أغواءه ، فالبعض يأتيه عن طريق المال وآخر عن طريق النساء وثالث عن طريق الغيبة والنميمة .

فمن كان حاله لا يسمح له أن ينحرف عن طريق الأموال جاءه الشيطان عن طريق العجب ـ على سبيل المثال ـ ومن لا يمكن إغواؤه وحرفه عن الجادة السليمة بالعجب جاءه الشيطان بوسيلة أخرى كأن تكون الغيبة أو الحرص أو الجبن .

لا ينبغي لنا أن نغفل عن تلبيس الشيطان اللعين ، فهو في كل حالة يلبس شيئاً ، وأن ما يلبسه يأخذ بلب الإنسان وما لباسه الملون والمزخرف إلا دليلاً على وجوهه المختلفة ، فهو يتلوَّن كتلوّن الحرباء ليبهر ضعاف النفوس بتلك الألوان البراقة التي لا يراها المخلص إلا ظلاماً وكدراً ومرارة .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) أنه قال : قال إبليس :

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

خمسة ليس لي فيهم حيلة وسائر الناس في قبضتي ؛ من اعتصم بالله عن نية صادقة واتكل عليه في جميع أموره ، ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره ، ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه ، ومن لم يجزع على المصيبة حتى تصيبه ، ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتم لرزقه »[1] .

فالمعتصم بالله عن نية صادقة لا يتمكن الشيطان منه ، ولا حيلة له عليه على الرغم فإن زينته حيلة ، ووعوده حيلة ، ووساوسه حيلة ، وأنه ينفذ في الصدور خفياً فلا يسمع له دبيب ، حتى إن النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء أكثر منه دبيباً ، وأسمع للإنسان من دبيبه الخفي الذي يوغر الصدور بالعداوة والبغضاء والشحناء ، هذا بالإضافة إلى نفثة في الأذان يناجي بذلك ضعاف النفوس من الذين لم يتمكنوا من نفوسهم الأمَّارة بالسوء ؛ فإذا أحاطت هواجسه بقلب العبد ، وتعاضدت أهواؤه ، حال بينه وبين الطاعة والزلفى .

لقد نصب إبليس كل ما لديه من حبائل في دار الغرور قصداً منه إلى إغواء عدوه الأول الإنسان الذي كان سبباً في طرده من السموات العلى ، وإن تلك الحبائل أخفاها بشكل مريب كي يزين لهذا الإنسان حب الدينار والدرهم ، وحب النساء ليمسي كافراً ضالاً حينها يهديه إلى عذاب السعير .

فالمتولي للشيطان ملاق حتفه في جهنم ، والمتولي له هو ذاك الذي اتبع خطواته بالمعاصي والآثام ؛ وخطوات الشيطان تكون تزييناً لطرق الباطل بزينة الحق ، فيسمي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذها الإنسان من غير علم .

إن علة سلطان الشيطان على الإنسان هي ما ذكرها الباري ـ جلَّت أسماؤه ـ في الآية المباركة التي تقول : ﴿ **ومَا كانَ لهُ عليهم مِّن سلطانٍ إلاّ لنعلمَ منْ يؤمنُ بالآخرةِ ممن هوَ منهَا في شكٍّ** ﴾[2] .

فالمؤمن بالآخرة ، ملتزم أوامر الله ونواهيه ، ولا يمكن أن يحيد عنها

---

(١) بحار الأنوار/ج ٦٧٩ ، ص ٣٧٨ .

(٢) سورة سبأ، الآية ٢١ .

أبداً ، والملتزم أوامر الله لا يسمح لإبليس وقبيله من النفوذ في قلبه ، لأنه لا يوجد مكان فيه إلّا لخالقه وبارئه ـ تعالى اسمه ـ ولكن عندما يخلو هذا القلب من الإيمان به ـ تعالى ـ يجد الشيطان له طريقاً إليه ليعمل فيه مكايده ، ويسنّي طرقه فيحلُّ دين العبد عقدةً عقدةً ، فينسيء الإيمان من القلب ليشعفه بمحبة الحرام والشهوات .

قال رسول الله (ص) : « إن لإبليس كحلاً ، ولعوقاً ، وسعوطاً ؛ فكحله النعاس ، ولعوقه الكذب ، وسعوطه الكبر »[1] .

إن سلطان الشيطان يأتي من نسيان العبد لذكر الله تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكرِ الرحمنِ نقيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ﴾[2] .

فالفرد الذي غفل عن ذكر الله تعالى يسهل إغواؤه من قبل الشيطان الذي ستكون أحباباً وأصحاباً له إلى أن يدخلوه مدخله في جهنم وبئس المصير .

ولا يخفى عليك عزيزي القارىء الكريم أن للشيطان أربعة طرق ذكرها القرآن المجيد : ﴿ قالَ فبمَا أغويتني لأقعدنَّ لهمْ صراطكَ المستقيمِ * ثمَّ لآتينهُم مِّن بينِ أيديهمْ ، ومنْ خلفهِم ، وعنْ أيمانهم ، وعن شمائلِهم ، ولا تجدُ أكثرهُم شاكرينَ ﴾[3] .

لقد نسب الشيطان الرجيم في هذه الآية المباركة الإكراه والجبر لله تعالى ـ والعياذ بالله ـ حاله في ذلك حال الأشعرية والجبرية ، ثم قال لأقعدن لبني آدم وآتينَّهم من جهاتهم الأربع فأضلنَّهم عن سلوك طريقك القويم وصراطك المستقيم الذي هو طريق الحق الذي بيَّنته أنت لهم .

والجهات الأربع التي ذكرها هي ﴿ منْ بينِ أيديهم ﴾ ، ﴿ ومنْ خلفهِم ﴾ ، ﴿ وعنْ أيمانِهم ﴾ ، ﴿ وعن شمائلِهم ﴾ .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة من السماء ، ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠ .

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦ و ١٧ .

فالإتيان من بين الأيدي يعني به من قبل الآخرة ، أي يشككهم في مسألة المعاد ، ومن خلفهم يقصد به من جهة الدنيا ، حيث يتأتّى له أن يزيّنها لهم على هواه بأشكال متعددة ، والآخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم ، ومجيء من في الأولين لتوجُّهه منها إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم .

قال الإمام علي (ع) : « من شغل نفسه بغير نفسه تحيَّر في الظلمات ، وارتبك في الهلكات ، ومدَّت به شياطينه في طغيانه ، وزيَّنت له سيء أعماله »[1] .

إن الشياطين لا تنزل إلا على من اتخذ إلّهه هواه ، إنها تنزل على كل أفّاك أثيم ، كل من أعجب بنفسه وتكبَّر ونسي ذكر الله ، حينها تتاح الفرصة لها لتمحق إحسان المحسنين بالإضافة إلى مجالسة أهل الهوى ، واستكثار الأعمال ، واستصغار الذنوب والمعاصي .

إن لإبليس وسائل متعددة ومختلفة ، وقد دلَّنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرون (ع) على شراكه ، وحذَّرونا منها لكي لا نقع فيها فنكون طعمة لجهنم التي سجَّرها الجبار المتكبر .

قال الإمام الصادق (ع) : « من لم يبال ما قال وما قيل فيه فهو شرك شيطان ، ومن اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان ، ومن شغف بمحبة الحرام وشهوة الزنا فهو شرك شيطان »[2] .

إن المذاهب المنحرفة التي نراها ونسمع بها كل يوم هي إحدى طرق الشيطان ووسيلة من وسائله لإبعاد بني البشر عن الطريق المستقيم ، فمذهب ماركس وفرويد ودوركيم ومن لفَّ لفَّهم لا يمكن اعتبارهم إلّا وسائل يستخدمها الشيطان لجرِّ عباد الله إلى ما لا تحمد عقباه ، وقد بيَّنت الكثير من الآيات الشريفة هذا المعنى ، فالاستفزاز الشيطاني بالصوت والجلب بالخيل والرجل ، والمشاركة في الأموال والأولاد يمكن أن تكون باستخدام الشيطان لهذه المذاهب

---

(١) نهج البلاغة/الخطبة ١٥٧

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٥٦

واستغلالها ، ليقع البشر في هذه الفخاخ المقيتة .

فمذهب فرويد على سبيل المثال يشيع النظرية القائلة : « إن جميع الغرائز الإنسانية تسقي من منبع الغريزة الجنسية ، وما من عمل إلا وللغريزة الجنسية دخل فيه » ، حتى مسألة رضاع الطفل من ثدي أمه .

إن الكلمات التي يطلقها هكذا أفراد لها تأثير سلبي في الفكر الإنساني بشكل أو بآخر، فالكلمة تعني « الجرح » في اللغة ، وما تفعله السكين في البدن تفعله الكلمة في الدماغ ، لهذا قالوا : إن الكلمة تعمل جرحاً يندمل والكلمات تعمل جروحاً لا تندمل إلى يوم القيامة .

وعليه ينبغي لنا أن نلتزم جانب الكلمات الإلهية حتى لا نمكن الشيطان وخيله ورجله أن يستحوذوا علينا .

فالكلمات التي جاءت بها المذاهب الأرضية جنود لإبليس مثلها كمثل السهام السامة التي تصيب الإنسان فتحيله إلى ميتة أو ما أشبه ذلك .

عزيزي القارىء : يتمكن الإنسان من طرد الشيطان من حياته إلى غير رجعة هذا إذا التزم ما جاء في كتاب الله وسنة أوليائه ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

قال رسول الله (ص) لأصحابه : « ألا أخبركم بشيء إن فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى .

قال : الصوم يسوِّد وجهه ، والصدقة تكسر ظهره ، والحبُّ في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطع دابره ، والاستغفار يقطع وتينه . . . »[1] .

وعليه تكون الصدقة ، والكلمة الطيبة والإحسان إلى الآخرين وما إلى ذلك من الأعمال التي تقرِّب الإنسان من العلي القدير ، تقصم ظهر الشياطين الصغيرة والكبيرة وتقطع دابرها وتسوِّد وجهها بذلك يتأتّى للبشر أن يسلموا من خطر هذا اللئيم .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٦٩ ، ص ٣٨٠ .

لقد أتحفتنا الروايات المتواترة عن أهل بيت النبوة والرسالة ـ سلام الله عليهم ـ بنصائح للشيطان ، هذه النصائح ذكرها إبليس لبعض أنبياء الله ـ عليهم السّلام ـ بعدما يئس منهم ولا بأس بذكر بعض منها في هذه المقالة ؛ قال صادق أهل البيت (ع) :

« لما هبط نوح (ع) من السفينة أتاه إبليس ، فقال له : ما في الأرض رجل أعظم منّةً عليَّ منك ، دعوت الله على هؤلاء الفساق فأرحتني منهم ، ألا أعلّمك خصلتين : إياك والحسد فهو الذي عمل بي ما عمل ، وإيّاك والحرص ، فهو الذي عمل بآدم ما عمل »[1] .

وقال الإمام الباقر (ع) : « لما دعا نوح (ع) ربَّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس فقال : يا نوح . . اذكُرني في ثلاثة مواطن فإني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدها : اذكرني إذا غضبت ، واذكُرني إذا حكمت بين اثنين ، واذكُرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد »[2] .

وجاء في وصايا إبليس لموسى (ع) : « إذا هممت بصدقة فامضها فإذا همَّ العبد بصدقة كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبينها »[3] .

وبناءً على ما ذكرنا يمكن القول بأن الغضب والحسد والحرص والصدَّ عن الصدقة وما إليها من الصفات الرذيلة هي وسائل الشيطان وشراكه التي يمكن من خلالها أن يقود البشر إلى الدرجات السفلى من جهنم الحامية .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « إن الشيطان يدبِّر الإنسان في كل شيء فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته ، وإن إبليس يقول لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك »[4] .

فانظر أيها القارىء الكريم ؛ فما دلَّك القرآن عليه من صفات فاضلة ،

---

(١) الخصال/ص ٥١ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٢٢ .
(٣) بحار الأنوار/ج ١٣ ، ٣٥٠ .
(٤) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٦٠ .

وأخلاق سامية فاتبعها ولا تتوانى عن ذلك أبداً ، وأستضيء بنور هدايته والتزم ما جاء به الرسول الأكرم (ص) ، وما وصلنا عن الأئمة الأطهار من أهل بيت النبي (ص) لأنهم يدلُّون على الحق والهداية ، وما خالف القرآن والرسول والأئمة من الأقوال والأفعال فانبذه كونه شركاً نصبه الشيطان ليهدي به أولياءه إلى الخسران المبين .

فضائل الإمام علي (ع)

إن الحديث عن أمير المؤمنين ليس بالحديث الهيِّن ، وإذا أردنا القول ؛ إن الصراط المستقيم أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف علينا أن نقول إن نموذج ذلك هو التحدث عن أمير المؤمنين علي (ع) .

لقد كتب الرجال في أمير المؤمنين (ع) كتباً كثيرةً ، وقيل فيه شعراً من أفضل الأشعار، فشهد بحقه العدو والصديق، المسلم وغير المسلم ، فذاك « جورج جرداق » كتب في أمير المؤمنين كتاباً تحت اسم « صوت العدالة الإنسانية » تعرض فيه بدقة ولطافة إلى علم وسيرة الإمام بشكل ظهر فيه الكتاب وكأنه دائرة معارف طيبة الذكر ، ومثل ذاك كتب عباس محمود العقّاد في كتابه الموسوم « عبقرية الإمام » وأحمد تيمور في كتابه « علي بن أبي طالب »، وطه حسين في كتابه « عليّ وبنوه » ، وتوفيق الفكيكي في بحثه الممتع « الراعي والرعية » وما إلى ذلك من كتب خاصة وبحوث ملحقة كلها صدرت عن غير الشيعة .

لقد أدرك الإمام علي (ع) العلم إدراك العالم المجرَّب فجعله من أوليات رسالته ، وحثَّ الأمة على طلبه ، حتى جعله نبراساً لها ، تهتدي وتستضيء بنوره « تعلَّموا العلم صغاراً تسودوا كباراً »[1] .

تحكَّم الإمام (ع) في المعرفة فارتاد بها الحياة من أوسع أبوابها ، وأوضح

---

(١) ألف كلمة للإمام علي (ع)/رقم ١٠٢ .

السبيل السويَّ حتى بيَّنه للناس جليّاً واضحاً ، وسنَّ للإنسانية سنناً تحصَّنت بالحق والخير .

لقد نهج الإمام (ع) في معرفته سبيلاً خاصاً ، رفع من خلاله مستوى العلم والعلماء لأنه يعلم جيداً أن الإنسانية تنبعث بهما ، وبهما تسمو إلى استخدام الحياة على أفضل وجه .

وبهذا قد ذهب بالعلم مذهباً رفيعاً سامياً جعله ديناً يُدان به ومبدأً تؤخذ الرحمة من معالمه .

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى الحق نظرة عرفانية إنسانية تسمو بالإنسان إلى حيث السعادة وتجعله يشعر بالاستئناس لأن الحق أحق أن يتبع ، وأن في الحق تنظيم المجتمعات ، وأنه تركن إليه النفوس الباحثة عنه .

فبالحق ينسجم الحكم والشعب في وحدة المصلحة وبسيادة الأمة ؛ وبالحق يعرف الإنسان إنسانيته ، وبالحق تنبسط العدالة الاجتماعية من المجتمع وإليه .

عدّد أمير المؤمنين (ع) سلوك المؤمن في الحكم والسياسة تحديداً دقيقاً ، حيث لا يرى داعياً للمداهنة ، وللمناورات السياسية التي تعتمد على الإقناع بالمراوغة والكذب ، وكان مؤمناً بأن الغاية لا تبرر الوسيلة .

قد يتبادر إلى بعض الناس أن المسلم مجرد آلة يقوم بما فرضه الشرع الإسلامي بدون نظر أو تفكير ، ولكن الإمام علياً (ع) أوضح لنا سبيل المسلم المؤمن إيضاحاً جلياً .

نقل صاحب المناقب عن الزمخشري في المستقصى وعن شريح القاضي : أن أمير المؤمنين (ع) رأى شاباً يبكي فسأله عن السبب في ذلك ؟ .

فقال : سافر أبي مع هؤلاء ، ولم يرجع حين رجعوا ، وكان ذا مال عظيم فرفعتهم إلى شريح فحكم عليَّ ! فتمثل الإمام (ع) بهذا البيت :

أوردها سعد وسعد مشتمل يا سعد ما تُروى على هذا الإبل

ثم قال : إن أهون السقا التشريع .

فاستقصى الإمام الحقيقة وخالف شريحاً في حكمه لأنه طلب البينة ولا يمكن إثباتها من فتى لم يدرك وجهته ، والحال على القاضي بأسلوبه الخاص أن يلتمس البينة ، ويستقصي في الحقيقة ثم يجمع الأدلة للإدانة ، وقد التمس الإمام في هذه الحالة طريقة مثلى .

دعا أحدهم وسأله عن كل ما يتعلق بسفرهم ، وما شأن القتيل معهم ، ثم كبَّر ، وكبَّر من كان معه ، وكان ذلك على مسمع من المتهمين الباقين دون أن يحضروا حديث صاحبهم فظنوا به أنه أقرَّ بجريمتهم .

ثم أمر الإمام (ع) به إلى السجن ، واستدعى آخراً منهم، وعند دخوله فاجأه قائلاً : « زعمتم أني لا أعلم ما صنعتم ؟ .

فأقرّ هذا ، ثم دعا الجميع فأقرُّوا وألزمهم الإمام بالمال والدم .

ومما يروى أن الإمام علياً (ع) كان أول من فصل بين الشهود في الإسلام ، وأول من سجَّل محضراً وثبت شهادةً بالتسجيل .

ومن طريف حكمه وحكمته القضائية ما رواه الصدوق بإسناده عن سعيد ابن طريف عن الأصبغ قال :

أتى رجل إلى أمير المؤمنين فقال : إني زنيت فطهِّرني .

فأقبل عليّ (ع) على القوم ، فقال : « أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله ؟» .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إني زنيت فطهِّرني .

فقال الإمام (ع) : « وما دعاك إلى ما قلت ؟» .

قال : طلب الطهارة .

قال (ع) : « وأي طهارة أفضل من التوبة »؟ .

واحتج عليه الأشعث بتعطيل حد فأجابه الإمام (ع) :

« إذا قامت البينة ، فليس للإمام أن يعفو ، وإذا أقرَّ المرء على نفسه فذلك للإمام إن شاء عفا ، وإن شاء قطع » أي حد .

كان الإمام في موضوعه هذا بعيد القصد ، حسن التناول ، لم يسأله لماذا زنى ، لأنه يدرك حقيقة الإنسان إذا اشتدت به الحاجة ، وألمَّت به النزوة وواكبته الأحوال ؛ بالإضافة إلى أن الإمام (ع) لم يقرّع الرجل أو يندِّد به في مجتمعه وبين قومه حيث رآه بإقراره وتوبته لا ينبغي أن يهان .

لقد أورد الثقات من المؤرخين ما كان عمر بن الخطاب يردده في علي (أقضانا علي) الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي/ص ٧٨، ، الرياض النضرة/ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن) الاستيعاب لابن عبد البر، الآية ج ٢ ، ص ٤٨٤ ، ذخائر العقبى للطبري الشافعي/ص ٨٢ .

وجاء في الاستيعاب بسنده عن عائشة أنها قالت في علي (ع) : (أما إنه أعلم الناس في السنة) .

ولما سأل عطاء عائشة عن علي (ع) قالت : (ذلك خير البشر لا يشك فيه إلا كافر) ؛ كما جاء في كفاية الطالب للكنجي الشافعي/ص ١١٩ ، وفي ينابيع المودة للقندوزي الحنفي/ص ٢٤٦ .

ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية : جئتك من أعيا الناس .

قال له : (ويحك كيف يكون أعيا الناس ، فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره) سيرة أمير المؤمنين للأمين/ص ٥٦ .

ولما سمع معاوية بقتل علي بن أبي طالب قال : (ذهب الفقه والعلم) .

ولماسئل حبر الأمة عبد الله بن العباس ـ وهو من أكبر المصادر والمراجع الإسلامية ـ عن مقدار علمه من علم ابن عمه علي ، أجاب : (كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط) .

وأما شهادة الرسول الذي واكب الإمام وربّاه وأنشأه ، فهي أفضل الشهادات .

فقد جاء عن الكنجي الشافعي في الكفاية/ص ٩٨ ، وعن ابن حجر في الصواعق المحرقة/ص ٧٣ ؛ وعن الخوارزمي الحنفي في المناقب/ف ٧ ، ط ٢ ، ص ٤٠ ؛ وعن الخطيب البغدادي في أماكن متعددة ، وعن مصادر أخرى كثيرة قال الرسول (ص) : (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها) .

وجاء عن الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة/ص ٢٥٤ : (عليٌّ باب علمي ، ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي) .

وقد نصَّ القرآن المجيد : ﴿ **وأْتُوا البيوتَ منْ أبوابهَا** ﴾[1] ، وعليٌّ باب علم الرسول ، ومن الرسول انطلق الإسلام ، وهذا دليل قاطع ونص واضح على أن المفسر الأفضل بل الأوحد لما جاء عن الرسول (ص) هو عليٌّ بن أبي طالب (ع) : ﴿ **ومَا ينطقُ عنِ الهوَى * إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يوحى** ﴾[2] .

وقد ورد في ينابيع المودة/ص ٥٣ ، نقلاً عن مودة القربى للهمداني الشافعي ، وفي الكوكب الدرّي/ص ١٣٣ ، كما جاء عن عمر بن الخطاب وولده عبد الله في حديث طويل عن الرسول (ص) في مرض وفاته ، وفي آخره : (وإني أوصيت علياً ، وهو أفضل من أتركه بعدي) .

وليس الفضل الذي أولاه به الرسول (ص) هو قربى أو نسباً لأن ذلك مما يخالف الإسلام بل للعلم والعقيدة والجهاد التي كان يحملها أمير المؤمنين (ع) .

وجاء في المناقب للخوارزمي الحنفي في الفصل الرابع عشر بسند متصل . قال رسول الله (ص) : « عليٌّ مني وأنا منه ولا يقضي إلا أنا أو علي) .

وسمع عليٌّ بن أبي طالب (ع) ينادي بسيفه : (من يشتري مني سيفي هذا ، فلو كان عندي ثمن إزار ما بعته) .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٩ .

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣ و ٤ .

وكان يعمل طول الليل ليسقي بستان يهودي في أجرة قدرها ثلاثة دراهم ليشتري بها ثوباً يستر جسمه .

فلم يضع طول حياته يده على لبنةٍ ، ولم يملك إلا ما يسدُّ رمقه ، ويستر جسمه ، ولم يدخر من يوم لآخر .

فهل لأُمة فيها هذا الإنسان تدرس مبادئه وآراءه ثم ترتضي لخلفاء وأمراء بني العباس وبني أمية أو لأي ملك أو سلطان استغلاله واستعباده واستيطانه ؟ .

وهل يقنع المؤمنون المخلصون بغير الإمام أميراً عليهم وهو القائل في كتاب له إلى عثمان بن حنيف :

(لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، أو يقودني جشعي إلى نحير الأطعمة ، ولعل في الحجاز ، أو في اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرَّى ، أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنُّ إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر)[1] .

إنه لا يريد أن يشاركهم مباهج الدهر بل مكارهه ، ويريد من أولي الأمر أن يقتدوا به ؛ إنه لحمل ثقيل لا يتحمله سواك وسوى الصفوة من أتباعك .

« توكلت على الحي الذي لا يموت ، وتحصنت بذي العزة والجبروت ، واستعنت بذي الكبرياء والملكوت ؛ مولاي استسلمت إليك فلا تُسلمني ، وتوكلت عليك فلا تخذلني ، ولجأت إلى ظلك الظليل فلا تطرحني ؛ أنت المطلب وإليك المهرب ، تعلم ما أخفي وما أعلن فأمسك عني اللهم أيدي الظالمين من الجن والإنس أجمعين واشفِني وعافِني يا أرحم الراحمين » .

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٤١٦ .

بقيّـة اللّـه (عج)

لقد بحث الكثير من العلماء والأدباء في مسألة بقيّة الله الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ .

إن الأسئلة التي تتبادر إلى أذهان العامة بصدده هي :

كيف كان الإمام في بطن أمه ، ولم يفهم القوم بأنها حامل به ؟

وكيف صار إماماً وليس له من العمر غير خمس أو ست سنوات ؟

وكيف يمكن أن يعيش إنسان ألف عام أو أكثر ؟ أين هو مكان الإمام المهدي (عج)؟ .

إن الإشكالات التي يمكن أن يطرحها البعض على هذه المسائل تكتسب شبهتها من منبع واحد ، وهذا المنبع اشتباه بحد ذاته ؛ لأن المساواة بين الوضع الطبيعي والخارق للعادة اشتباه كبير .

فعندما يقول الإنسان : إن البشر لا يعمَّرون في العادة أكثر من مائةعام كيف يتأتى لأحدهم أن يحيا ألفا ؟ .

وكيف يمكن له أن يسيطر على كل أمور الدنيا ، مع أنه لا يمتلك من الجيوش والعساكر وما إلى ذلك من الأسلحة الفتاكة والطائرات المروحية والنفاثة ، وأن من يقوم معه في بداية أمره ٣١٣ إنساناً .

ونقول هنا : إن قضية الإمام المهدي (عج) هي قضية غير طبيعية من أولها

إلى آخرها ، ولا يمكن أن ننعتها بأنها طبيعية ، بل إنها خرق للعادة .

إن قضية المهدي (عج) لا يمكن أن نساوي بينها وبين المسائل الطبيعية بل يمكن أن نشبهها ببعض المسائل الخارقة للعادة التي أخبرنا بها القرآن الكريم من مثل حمل مريم وهي بنت . وعندما تتأثر نفسياً يأتيها الخطاب بالإشارة إليه : ﴿ **فأشارتْ إليهِ ، قالُوا كيفَ نكلِّمُ من كانَ في المهدِ صبيّاً * قالَ إنِّي عبدُ اللّهِ ءاتاني الكتابَ وجعلنِي نبيّاً** ﴾[1] .

هذه الحكاية نقلها لنا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

كان اليوم الرابع عشر من شعبان حينما أرادت حكيمة خاتون عمّة الإمام الحسن العسكري وابنة الإمام الجواد في دار الإمام الحسن العسكري ، وكانت حينها صائمةً . فأرادت الذهاب إلى منزلها فقال لها الإمام بضرورة بقائها لأمر مهم ! وعندما سألت عن ذلك الأمر المهم أجابها : بأن الله سيمنحه ولداً في تلك الليلة .

فتعجّبت عمة الإمام (ع) وسألت : ممَّ؟ .

فأجابها : من نرجس ، بعد ذلك سكتت حكيمة خاتون ، ووطّنت نفسها للإفطار والبقاء في منزل الإمام ليلاً ، وقرابة أذان الصبح طرق الإمام العسكري الباب عليها ليقول لها : إن وعد الله قريب .

تقول حكيمة خاتون : وما إن أتيت حجرة زوجة الإمام العسكري (ع) حتى قامت زوجته إليّ ؛ وبعد أن أمسكت بها استندت إليَّ لتجلس على الأرض ، عندها رأيت الصبي ينزل منها ساجداً وكأنه فلقة من قمر[2] ، عندها قال الإمام (ع) : ﴿ **ونريدُ أن نمنَّ علَى الذينَ استضعفُوا في الأرضِ ونجعلهُم أئمةً ونجعلهُم الوارثِينَ** ﴾[3] .

إن قضية المهدي المنتظر لا تقتصر على ما جاء في القرآن الكريم ، بل

---

(١) سورة مريم، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) تاريخ الإمام المهدي ، بحار الأنوار/ج ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

(٣) سورة القصص، الآية ٥.

تتعدّى هذا الحد إلى الكتب السماوية الأخرى ، فقد عرَّفنا القرآن المجيد بذلك من خلال الآية المباركة : ﴿ **ولقدْ كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرثُهَا عبادِي الصالحونَ** ﴾[1] .

فوراثة الأرض التي عرض لها القرآن الكريم عرض لها الإنجيل والتوراة والزبور ، فهذه الكتب السماوية وتفضل علامات ظهوره وزمان ظهوره وما إلى ذلك من الإشارات التي يمكن أن يفهم منها أن الإمام المهدي (عج) ظاهر في آخر الزمان لا محالة .

بعد التحري والتحقيق تمكنت من العثور على (٦٢٣٠) رواية تهتم بموضوع المهدي (عج) ، وعلى علمي أن الروايات أكثر من هذا العدد بكثير ، لأن هذا العدد هو ما أخرجته أنا لوحدي ، وإنني لا أدعي علماً أو مقاماً عند الله ، فأنا أجد طلاب الحوزة العلمية لا غير .

ومن اهتم بمتابعة هذه الروايات من العلماء تمكن من تجاوز هذا الرقم الذي ذكرت بكثير .

إن أغلب الروايات التي تعرض لقضية الإمام المهدي (عج) مروية عن طريق أهل السنة ، ولذا لا يمكن لأحد من المسلمين إنكار هذه القضية الحياتية التي تتعلق بمصير الأمة الإسلامية والمجتمع الفاضل الذي سيلي هذه الحقبة من الزمن .

قال رسول الله (ص) : ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[2] .

وقال (ص) : « سيكون بعدي خلفاء ، وبعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . . . »[3] .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥ .

(٢) كنز العمال/خ ٣٨٦٥٤ .

(٣) كنز العمال/خ ٣٨٦٦٧

وقال أيضاً (ص) : « . . . . والـذي بعثني بالحق بشيـراً ونذيـراً ، وأن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعزُّ من الكبريت الأحمر »[1] .

إن طول عمر الإمام المهدي (عج) ، أمر اقتضاه الباري ـ تعالت أسماؤه ـ فهو الخالق المصور ، وهو الذي يتمكن لوحده من مد الأعمار أو تقصيرها ، ولا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك .

وقد تستوجب حكمته أن يقصر في عمر فلان ، أو يطيل في عمر آخر من مثله من البشر .

ومن أجل تقريب هـذه القضية إلى أذهـاننا عـرض القرآن الكـريم عدة روايات وحكايات تدلِّل على قدرة الباري تعالى في إطالة عمر الإنسان فينقل لنا مثلاً عن أنبياء الله عزير وعزيز ، وهما من أنبياء بني إسرائيل ؛ وهذا ما تقره أيضاً الروايات المتواترة والأخبار عن هذين النبيين (ع) .

ظاهر الأمر أن هذين النبيين كانا توأمين ، عُمِّر أحدهما مئة عام وعمِّـر الآخر مئتي عام .

فكيف يمكن لشخصين جاءا إلى الدنيا في يوم واحد ، وذهبا منها في يوم واحد ، ولكن أحدهما عاش مائة عام والآخر مائتي عام ؟ .

إن هذه الحكاية لها جذور قرآنية عميقة ؛ يقول القرآن الكريم : ﴿ **أوْ كالذِي مرَّ على قريةٍ وهيَ خاويةٌ علَى عروشِها** ﴾[2] .

مـرَّ رسول الله عـزير على نبينـا ـ عليه السـلام ـ راكباً حمـاره على قـريـة وهي شيء أبداً ، فسأل صاحبنا نفسه ؟

﴿ **أنَّى يُحيـي هذه اللّهُ بعدَ موتِهَا** ﴾[3] كيف يمكن أن يحيـي هذه الله بعد ما جرى فيها من الخراب والدمار وموت أهلها ؛ ﴿ **فأماتهُ اللّهُ مأةَ عامٍ ثمَّ بعثهُ**

---

(١) تفسير نور الثقلين/ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

قالَ : كمْ لبثتَ ؟ قالَ : لبثتُ يوماً أو بعضَ يومٍ ؛ قالَ : بلْ لبثتَ مأةَ عامٍ فانظُر إلى طعامِكَ وشرابِكَ لمْ يتسنَّهْ وانظُرْ إلى حِمارِكَ ولنجعَلَكَ ءايةً للنَّاسِ وانظُرْ إلى العِظامِ كيفَ ننشزُهَا ثمَّ نكسُوهَا لحماً ، فلمَّا تبيَّنَ لهُ قالَ : أعلمُ أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

إن القرآن الكريم بيَّن لنا السير الطبيعي والخارق لعُمر الإنسان ، فلو قلنا على سبيل المثال : إن عمر الإنسان الطبيعي مائةعام يكون عمر الخبز الذي بقي على حاله ولم يتسنَّه في الوضع الطبيعي اثنتي عشرةً ساعةً ، دون وضعه في ثلاجة ، لانعدامها في ذلك الزمان .

إن الخبز ظل على مدى مائةعام، ولم يتلف على الرغم من أن عمره الطبيعي لا يتعدى اثنتي عشرة ساعة .

فإذا ناسبنا بين عمر الخبز وعمر الإنسان الذي يكون في الوضع الطبيعي مائةعام لأضحى عمر الإنسان يحدد بالملايين إذا أخذنا النسبة إلى الخبز الذي لم يتلف في زمن قدره مائة عام . ﴿ إنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

أما بالنسبة للأفراد الذين لا يتعدى عددهم (٣١٣) وهم أصحابه الذين يأتمرون بأمره ، فلا يمكن احتسابهم أفراداً اعتياديين ، بل هم قادة وأئمة هدى ومراجع عظام يتمثل الناس لأوامرهم ونواهيهم .

إن أصحاب الإمام المهدي (عج) هم من المجتهدين الذين يتأتى لهم تسيير الأمور وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة ، ولو كانوا غير ذلك لما عقلنا أو صدقنا أن (٣١٣) يمكن أن يكونوا أصحاباً للمهدي (عج) ينصرونه ويوطئون له دولته العظمى التي ستشمل العالم بأكمله .

وهذه المسألة ليست عظيمة على الله ، بل اعتيادية جداً وطبيعية ، والدليل على ذلك أن الباري ـ تعالت قدرته ـ منح نبيَّه سليمان قدرةً عظيمةً ما بعدها قدرةٌ ، إذ كان يدير الأمور وهو جالس على عرشه ، فالهدهد يأتيه بأنباء اليمن وهو جالس في فلسطين في ظرف سويعات ، وآصف بن برخيا يطلب منه الإذن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

في جلب عرش بلقيس في طرفة عين ﴿ قالَ الَّذِي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا ءاتيكَ بهِ قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ﴾[1] ؛ وما إلى ذلك من الأمور الخارقة للعادة بإذن الله تعالى ؛ فلا غرابة في الأمر ولا عجباً حين يريد الباري أن يمنَّ على عبده بـ (٣١٣) رجل مثل آصف بن برخيا ؛ وهذا ما قرآناه في دعاء الندبة المنقول عن السيد طاووس في مصباح الزائر جاء فيه : « خففته بجبرائيل والمسوَّمين من ملائكتك » .

إن هذه المسائل تكون طبيعية إذا أمعن المؤمن النظر في قدرة الله ـ تعالت أسماؤه وصفاته ـ ويستسهل الأمر حين يتعمق في آيات القرآن الكريم ليرى عظمة الباري من خلالها ، وما يمكن أن يكون للقائم المهدي (عج) ليس بأكثر مما كان لعباده الصالحين على مرِّ الدهور والأزمان .

قال رسول الله (ص) : « يخرج في آخر أُمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطي المال صحاحاً ، وتكثر الماشية وتعظم الأمة »[2] .

« اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد ، وأقم به الحق وأدحض به الباطل وأدل به أولياءك ، واذلل به أعداءك ، وصل اللهمَّ بيننا وبينه صلة تؤدي إلى مرافقة سلفه ، واجعلنا ممن يأخذ بحجزتهم ، ويمكث في ظلهم ، وأعنا على تأدية حقوقه إليه ، والاجتهاد في طاعته ، واجتناب معصيته ، وامنن علينا برضاه ، وهب لنا رأفته ورحمته ودعاه ، وصلِّ اللهمَّ على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) سورة النمل، الآية ٤٠ .

(٢) كنز العمال/خ ٣٨٧٠٠ .

الـفهــرس

الجـزء الأول

البحث الأول :
التربية والتعليم ٥
البحث الثاني :
الذنب وتهذيب الغرائز ١٩
البحث الثالث :
جهـاد النفس ٣٣
البحث الرابع :
الإنسان الملكوتي ٤٧
البحث الخامس :
النفس الأمارة ٥٩
البحث السادس :
الصبــر ٧٥
البحث السابع :
ملكة الصبر ٨٥
البحث الثامن :
إنعكاس الصبر ٩٧

البحث التاسع :
التوبة (١) ١١١
البحث العاشر :
التوبة (٢) ١٢٣
البحث الحادي عشر :
التوبة (٣) ١٣٧
البحث الثاني عشر :
رحابه الصدر (١) ١٤٧
البحث الثالث عشر :
رحابه الصدر (٢) ١٦١
البحث الرابع عشر :
كفاره الذنب ١٧١
البحث الخامس عشر :
عبوديه الله ١٨١

الجـزء الثانـي

مقدمـة ١٩٥
السعي والاستقامة ١٩٧
الإخـلاص ٢٠٨
صـلاة الليل ٢١٦
الإلتجاء إلى القران ٢٢٣
فوائد الدعاء ٢٣٠
التوسل بأهل بيت الرسول (ص) ٢٤١
ذكـر اللّـه ٢٥٠
التوكل على الله ٢٦٥
مراحل التوحيد والتوكل ٢٥٦

الجـــزء الثالث

مقدمـــة ٢٨١
(١) محبة أهل بيت الرسول (ص) ٢٨٣
(٢) محبة أهل بيت الرسول (ص) ٢٩٥
(٣) محبة أهل بيت محمد (ص) ٣٠٣
(٤) محبة أهل البيت (ع) ٣١٤
سير إلى الله (١) ٣٢٦
سير إلى الله (٢) ٣٤٠
ولادة الرسول الأكرم (ص) ٣٤٧
سير إلى الله (٣) ٣٥٧
سير إلى الله (٤) ٣٦٨
سير إلى الله (٥) ٣٧٧
سير إلى الله (٦) ٣٨٢

الجـــزء الرابع

المقدمـــة ٣٨٩
الغفلـــة ٣٩٢
الوساوس والأوهام ٣٩٩
أيام الله (١) ٤٠٩
أيام الله (٢) ٤١٧
مصائب الزهراء فاطمة (ع) ٤٢٥
النفس الأمارة ٤٣٢
الحسد ، الكبر ، الرياء ٤٣٩
العدو الظاهري ٤٤٦
فضائل الإمام علي (ع) ٤٥٤
بقية الله (عج) ٤٦٠